عبدالحق فاضل

ثورة الخَيّام



منشورات الجمل

عبدالحق فاضل

ثورة الخَيّام

منشورات الجمل

ولد عبدالحق فاضل في بغداد عام ١٩١١ وهو كبير أبناء الشاعر الموصلي فاضل حامد الصيدلي. أنهى عبد الحق دراسته الابتدائية في الموصل وأكمل دراسته الدينية في كلية الإمام الأعظم، توظف في الديوانية ثم التحق بكلية الحقوق، تخرج فيها عام ١٩٣٥ ومارس المحاماة في الموصل وأصدر مع زميله المحامي يوسف الحاج الياس مجلة (المجلة) التي تعد واحدة من أهم المجلات الثقافية الصادرة في الموصل في أواخر الثلاثينات، ونشر فيها شعره وقصصه ومقالاته النقدية، ويعد عبدالحق فاضل رائداً للنقد الأدبي في الموصل. وانتقل إلى السلك الدبلوماسي عام ١٩٣٩ وشغل وظائف عدة في السفارات العراقية في الخارج: تبريز ودمشق والقاهرة وروما، وعين وكيلاً لوزارة الخارجية عام ١٩٥٨، وعُين سفيراً للعراق في الصين عام ١٩٦٠ وبقي في منصبه هذا حتى استقال من الخدمة عام ١٩٦٣، واستقر في مراكش مشرفاً على مجلة (اللسان العربي) التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية حتى عام ١٩٩٢ وأصيب في حادث طريق وعاد إلى العراق ليموت في وطنه.

عبدالحق فاضل: ثورة الخَيّام

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

حُلْوَتي! أنتِ حياتي، أنتِ أرضي وسمائي!
قد دخلنا جنّةَ الحُبِّ برغم الخفراء!
ونهلنا من أفاويق شقاءٍ وهناءٍ!
فهل استعذبتِ يا ليلايَ حُبَّ الشعراء؟!

قد تزوَّجنا زواجَ الرُّوح في دنيا الترابِ
عَقَدَ الحبُّ لنا العهد على شرعٍ عُجابِ
فإليكِ الآن أُهدي، يا منى النفس، كتابي
وهو ذِكرٌ، وهو شكرٌ عن نعيمي وعذابي!

عبدالحق

تقديم

بقلم العلامة الجليل الدكتور أحمد أمين بك

عُرض على «لجنة التأليف والترجمة والنشر» طبع كتاب «ثورة الخيّام» للأستاذ عبدالحق فاضل، وقد قرأته واستحسنت نظمه. ورباعيات الخيّام غنية عن التعريف فقد ترجمت إلى لغات كثيرة، بعضها ترجمات حرفية وبعضها ترجمات استوحى فيها المترجمون روح الخيّام ولم يتقيدوا بمعناه، كما فعل فتزجرالد. وقد أقبل عليها المعاصرون إقبالاً كبيراً لأنها تتفق وروح العصر من حيث الملل من الحياة والاستعانة على هذا الملل بالانغماس في اللذات. وقديماً سلك الناس مسلكين متناقضين لمحاربة هذا الملل، أحدهما الزهد فيها كما فعل أبو العتاهية وأبو العلاء، والثاني الانغماس في لذاتها كما فعل أبو نواس والخيّام. وقد ترجمت هذه الرباعيات إلى اللغة العربية مراراً وتقبلها الناس قبولاً حسناً، لما فيها من شذوذ أحياناً ودعوة إلى الإمعان في اللذة أحياناً. وأنا لا أوافقه على هذه الدعوة ولا على هذا الشذوذ لأنه كما قال الفيلسوف كَنْتْ «إذا أردت أن تعرف شيئاً أصحيح هو أم فاسد فعممه»، ونحن لو عممنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحيين متلذذين بوهيميين لا يأبهون لشيء إلا للخمر

والنساء، ولو تصورنا مجتمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطاً يسرع إليه الفناء. فكل مجتمع إنما يبقى بتحمل أعبائه وبمقدار ما فيه من حياة الجد مشوبة بقليل من اللذائذ، لا بحياة لذيذة ليس فيها شيء من الجد. على أنه هو نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحيَ الحياة التي دعا إليها بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات مخترعاً فيها، وهذا كله جد لا لهو. والمؤمن إيماناً تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه، أما أن يكون عمله في جانب ودعوته في جانب فإن دلّ على شيء فإنما يدل على عدم الإخلاص التام في أحدهما.

لقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين وللسماء ولعله في ذلك مقلد لأبي العلاء المعري في لزومياته، ولكنا اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم: «ناقل الكفر ليس بكافر»، واعتقدنا أن هذه النزعات سواء من الخيّام أو من أبي العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول، وأنهما إن كفر لسانهما أحياناً فإن قلبهما لا يفارقه الإيمان، كالذي قيل عن «هيغل» الفيلسوف الألماني الشهير أنه كفر عقله وآمن قلبه. ونحن في حياتنا اليومية المشاهَدَة كثيرة ما نرى أفراداً ممتازين يؤمنون كل الإيمان ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم أو نزول مصيبة فادحة في أموالهم أو أنفسهم أو نحو ذلك فيجانبهم الإيمان في تلك اللحظة ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم. فلعل الخيّام كان من هذا القبيل، وجد الحياة كلها بؤساً وغماً، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً، ووجد عاقلاً بائساً وأحمق غنياً، فلم يجد مخرجاً له إلا الزندقة أحياناً ثم تهدأ ثورته فيعود إلى

دينه. لقد صدق عمرو بن العاص إذ قال: «ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير، إنما العاقل من عرف الخير والشر، ثم تجنب الشر». فلا بأس أن يُعرض على أنظارنا خير وشرّ، بل لا بأس أن يعرض على أنظارنا خير كثير وشر كثير، فنفعل الخير عن علم ونتجنب الشر عن علم.

على هذا الأساس أقدمنا على طبع هذا الكتاب لنضع بين يدي القارئ خيراً كثيراً وشراً كثيراً، ثم يأخذ كلٌّ ما يرشده إليه عقله وطبيعته كما يأخذ الحنظل والورد، فكلٌّ يجد في الأرض غذاءه الصالح له. فننشر رباعيات الخيّام على وضعها هذا خدمة للمجتمع، وخدمة للتاريخ، وخدمة للأدب العربي. ولناقلها على هذا الوضع أيضاً الشكر الجزيل، فليس يعرف ما لاقى من عناء إلا من حاول أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة، مجتهداً أن يحافظ على معاني المنقول منها إلى المنقول إليها، وعلى روحها وحسن وقعها وتنغيمها. فالله يجزل أجره ويُعْظِم مثوبته.

١٩٥١/١٠/٢٩

أحمد أمين

مقدمة الطبعة الفارسية

مترجمة عن كلمة للعالم المحقق الإيراني
آقاي سعيد نفيسي

مهما بلغ امرؤٌ مثلي من إنكار القضاء والقدر، وعدَّ كلَّ أمرٍ نتيجةً للهمة والتوثب، فهو يجد بين حين وحين نماذجَ عجيبةً تجعله يجنح إلى الحظ والإقبال ويؤمن بالمقدور من خير وشرّ، أراد أم لم يرد. وإن أحد شؤون الدنيا العجيبة هذه لهو الحظ الذي أصابته رباعيات الإمام حجة الحق غياث الدين أبي الفتح عمر بن إبراهيم الخيّام النيسابوري، الحكيم النحرير، والعلامة الإيراني الإسلامي الكبير. كان البلغاء في الدنيا كثيرين، وطفقت أقوالهم تشعّ نوراً في قلوب بني آدم، وتجيش حماسةً وغبطة مدى قرون. وكثيراً ما حام حولهم الرواة والمترجمون ونقلوا أقوالهم المحيية إلى اللغات الأخرى، ولكن قلما اتفق لمترجم أن أدّى إلى اللغة الثانية ما للقول في لغة الأصل من فصاحة وروعة وبلاغة. حتى أن أكثر المترجمين، مهما أوتوا من مقدرة وتسلط، لم يستطيعوا أن يؤدوا فكرة ذلك القائل حق الأداء. لهذا لا يزال من يريد أن يدرك قيمة طرفة فنية ونفاستها، مضطراً في

كثير من الأحوال إلى تعلم لغة الأصل وتفهم جمالاتها، لكي يستطيع أن يستمتع بها ويفوز بمأربه منها كاملاً.

إن القوالة الوحيد الذي أعرفه من بين كل هؤلاء البلغاء، والذي هيَّأَ له سعدُ طالعه مترجماً بالغ التفوق مَرَّتين، فخرقًا هذه القاعدة الكلية، هو خيامنا النيسابوري. أولاهما أن إدوارد فتزجرالد الإنكليزي، وهو في لغته شاعر فذّ، كان قد استهوته أقوال هذا الحكيم الرياضي السموية ومنطقه الرائع قبل خمسة وتسعين عاماً، فصاغ بعضاً من الرباعيات المنسوبة إليه شعراً بالإنكليزية. ولقد لقي عمله هذا من الاستحسان ما أصبح معه الخيّام أشهر شعراء آسيا في العالم المتمدن، وطُبعت ترجمات رباعياته بالإنكليزية أكثر مما طبع أيٌّ من كتب هذه اللغة، وتُرجمت بلغات الشرق والغرب أكثر مما ترجم أيّ أثر أدبي آخر. وفي هذا العام، في عاصمة وطن الخيّام أيضاً، حظي بهذا الجدّ الرفيع فتصدَّى أديبٌ متمرّس ساحر، لترجمة رباعياته بلغة العرب.

في صيف هذا العام، لما سرّني الشاعر المفلق آقاي عبدالحق فاضل قنصل العراق في طهران[١] برؤيته، وتلا عليّ بعض رباعيات الخيّام التي ترجمها حديثاً باللغة العربية بمقدرة بالغة وحذق يبعث الدهشة، عاودت ذهني نفس الفكرة، وهي أن هذا الحكيم النيسابورى الكبير أسعد شعراء الدنيا حظاً في الحقيقة إذ يتاح له مثل هؤلاء المترجمين والمعرّفين الأفذاذ، في مختلف اللغات.

---

(١) الآن في القاهرة.

إني من ذلك اليوم الذي عرفت فيه غرّيد أرض العراق الكبير، وأدركت هذه المهمة الشاقة التي وفّاها حقها بكل هذه البراعة - أصبحتُ وكلي أمل وانتظار لذلك اليوم الذي يُطبع فيه هذا الأثر الخطير، عاجلاً ما أمكن، وينتفع به هواة الأدب ويدركون لبانتهم منه.

كان المؤلف المحترم قد استودعني كتابه «ثورة الخيّام» قبل طبعه، وقد قرأته قراءة إمعان. لم يبلغ أحد حتى هذا المنحى وهذه الدرجة من الكمال في تحليل نفس الخيّام واكتناهها، وتمحيص أفكاره. لقد استهواني هذا الكتاب إلى حدّ صرت معه أترصد بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي أقرأ فيه نسخته المطبوعة أيضاً مراراً عديدة أخرى. وإني لا أعرض هذه الأمنية جاداً كل الجدّ بلسان القلم وحسب، وإنما أنا أشكر كذلك آقاي عبدالحق فاضل عن كل الإيرانيين وعن كل عشاق آثار الخيّام أن هيّأ مثل هذا السفر الخطير، وعرَّف الحكيم الإيراني الكبير، بكل هذه المقدرة والبصيرة الثاقبة، إلى أبناء الدنيا.

طهران ٢ ديماه ١٣٢٩

٢٣/ ١٢/ ١٩٥٠

سعيد نفيسي

أستاذ تاريخ الأدب وتاريخ التصوف وتاريخ التمدن

في جامعة طهران العضو الدائم في المجمع العلمي الإيراني

الباب الأول

الخيّــام

توطئة

وُلِدَ عمر الخيّام في نيسابور ووُلِدتُ في بغداد، وعاشَ في القرن الخامس الهجريّ، وعشتُ في القرن الرّابع عشر، وهو آرِيٌّ فارسيٌّ، وأنا ساميٌّ عربيٌّ ـ ولكني بالرغم من هذا البَوْن الشّاسع في المكان والزمان والأُرُمية، أجد كأن بيننا عاطفة من الود والتعارف. وأحسُّ لطول ما صحبتُه في رباعياته على الأخصّ ـ كأنه لا يزال حيّاً يعيش في مكان ما، وأتصوره أحياناً في الغرفة المجاورة، يقرض الرباعيات حتى لأكاد أسمع صرير قلمه، وغمغمة صوته؛ أو يُلقي محاضرةً على تلاميذه في الفلك أو الفقه، أو في الطبيعات.

ولعل هذا قد أعانني على فهمه.

وقد آثرتُ الإيجاز في هذا البحث فلم أتطرق الى الشائع المعروف من أخباره وسيرة حياته مما تجده في سائر الكتب، وإنما اقتصرت على ما كان لي فيه رأيٌ جديد، أو نظرت فيه من زاوية جديدة، أو خالفت فيه جمهرة الخيّاميين ـ إلا ما اقتضاه سياق الموضوع من استطراد أو استشهاد.

الترجمة

يضمُّ هذا الكتاب بين دفتيه أكبر عدد من رباعيات الخيّام تُرجم إلى العربية قطّ، نظماً أو نثراً. وليست العبرة بالعدد بطبيعة الحال، ولكني اعتمدت في الترجمة ستَّ نسخٍ فارسية، في كلٍّ منها من الرباعيات ما ليس في الأخريات. فجعلت أتعقَّب في أنحائها كل رباعية شرود، شأنَ الصيَّاد، فكلما وقعت عيني على واحدة تمثل جانباً من جوانب تفكير الخيّام أو فلسفته اقتنصتُها ووضعتها لك في قفص من العروض. فوقعتْ في هذه المجموعة رباعيات لم يسبق ترجمتها إلى العربية، هي من خيرة ما جادت به قريحة الحكيم الفارسي، ومنها ما لم يكن معروفاً منذ بضع سنوات أنه للخيام، مما كشف عنه الباحثون أخيراً.

وقد توخَّيت في ترجمتي كلَّ دقةٍ ممكنة، حتى جاءت بمطابقتها الأصل الفارسيَّ وكأنها ترجمة لفظية. وحرصت على أن يكون المبنى وعاءً للمعنى وحسب، فهو سهل واضح لم أجنَحْ فيه إلى تعقّد ولا تنطّع، ولا تكلّفت من البلاغة إلا اجتناب الركاكة، ولا استسلمت إلى تلك الشوائب اللغوية التي يُسمُّونها ضرورات الشعر ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فإن كنتُ لم أبلغ من ذلك ما يرضيك ويرضيني، فعزائي أنه ما من ديوان في العربية يخلو من حشو أو ركاكة، مع ما للشاعر المفصح عن خوالج نفسه من حرية في تصريف معانيه وألفاظه، خلافاً للمترجم عن أفكار غيره. ولست أريد بهذا اعتذاراً لنفسي فإني

لا أعذر فنّاناً على التهاون في فنّه والتقصير في تجويده واتقانه. ولكني إنما أريد تذكير القارئ بما في ترجمة الشعر من لغة إلى شعرٍ في لغةٍ أخرى من مشقة بالغة، ولا سيما إذا أراد المترجم أن يكون أميناً في نقل المعنى، دقيقاً في أدائه. ويعلم الذين زاولوا ترجمة الأدب اللباب ـ ولو من نثر إلى نثر ـ ما في توخّي الدقة من إرهاق ومتاعب، فأما توخّيها في ترجمة الشعر شعراً فضربٌ من الأهوال أُوثر أن أُعفيَ القارئ من وصفه.

على أن نقل المعنى من لسان إلى لسان لا يُغني وحده عن الأصل شيئاً، فيا ربَّ معنى يتناوله شاعرٌ فيهزّك ويطربك، ثم تقرأ نفس المعنى لشاعر آخر، فإذا هو جامدٌ ميّت لا يبعث فيك حسّاً ولا يهيج شيئاً. فلهذا حاولت أن أنقل مع المعنى روحه وملاحته.

ولكل رباعية صورة ذهنية لها ألوانها. فلعلّي ما أضعفت لها لوناً، ولكني اجتهدت أن أُقوّيها وأُوضحها ـ حيثما استطعت. وما فَوَّتُّ نكتة، ولا قدّمت وأخّرت، ولا حوّرت ـ حيثما يكون في ذلك إفسادٌ لمعنى، أو تشويه لصورة، أو إغفال للفتةٍ ذهنية. وإنما سعيت جهدي أن أنقل لك الخيّام بأسلوبه وطلاوته مع تشابيهه واستعاراته كما هي. فإذا هو شبَّه القدَّ بالسَّرْوَة لم أذكر البان، وإذا قال «ثقبوا دُرَّ المعاني» لم أقل «ابتكروا المعاني، أو سبقوا إليها، أو افتضوا أبكارها»، فأنا إذن لم انقل هذه الرباعيات الفارسيّة إلى الذوق العربيّ، وإنما حاولت أن أنقل الذوق الفارسيّ والأسلوب الخيّاميّ إلى قرّاء العربية.

وإن كنت قد أبَحْت لنفسي شيئاً من التصرف، فإنما هي ضرورة

الوزن والقافية، تقتضيني كلمةً أضيفها أو أحذفها، فلا تضير المعنى إضافتها ولا يفسده حذفها، حتى لا تكاد تحسّ بها في الحالين. وقد اضطر الخيّام نفسه إلى النزول على أحكام هذه الضرورات في لغته، فأَوْجَز بعض معانيه كلَّ إيجاز، ومطَّ بعضها كلَّ مطّ. ولا بدّ للمترجم من اختزال هذه وإيضاح تلك ـ وقد فعلت من ذلك ما واتاني.

ولكنّ الخيّام يكثر من ذكر الخدّ والطُّرَّة من محاسن الملاح، فذكرت معهما ما تيسَّرَ من مفاتن أخريات، دفعاً للتكرار، وحبّاً بالتنويع.

هذا إلى أنّ بعض الرباعيات يختلف نصُّها الفارسيّ باختلاف الروايات، وقد وازنتُ بينها وتخيَّرت منها ما بدا لي أنه أقْوَم وأجمل.

وثمَّة رباعية قبيحة يجعلنا ما فيها من فاحش القول نعتقد أنها ليست للخيام، وقد هذّبتها. وإليك ترجمة الشطرين الثالث والرابع منها:

«أنا لا جرم لي خلافاً للشرع، يا أهل الصلاح»،

«سوى الغذر واللواطة والزنا...».

وقد ترجمتها هكذا:

أنــا يــا أهــل الـتُّـقَـى لـم أرتـكـب فـي الـشـرع إثـمـاً

طــول عــمــري، غــيــر كــفــران، وســكــر، وزنــا

وهذا بالخيّام أجمل، وإلى طراز تفكيره أقرب. وحسبي أن نبّهتُ القارئ إلى أن هذه الرباعية قد لا تكون للخيام أصلاً.

وأمثال هذا التحوير في هذه الترجمة نادر على كل حال.

التكرار

وآفة هذه الرباعيات هذا التكرار الملعون الذي ضقتُ به ذرعاً، وعسى ألا يضيق به القارئ. فإن بعضها مُعَادٌ بنصّه تقريباً، وبعضها نجد جانباً من معناه في رباعيات أخرى.

والغالب أن يكون نصف الرباعية مقدمة ونصفها نتيجة، وكثيراً ما تتكرر المقدمة وحدها هنا والنتيجة وحدها هناك، لتؤدّي كلٌّ منهما وظيفة أخرى في أداء معنى آخر. ذلك بأن الخيّام نظم رباعياته في أوقات متباعدة، فإذا عاوده نفس المعنى أفرغه في قوالب شتى، أو تناوله من نواحٍ متباينة. فصار يكرر نفسه شكلاً أو استعارةً او تشبيهاً أو موضوعاً أو مغزى ـ مع شيء من الاختلاف قليل أو كثير.

ولم أجد علاجاً للأمر غير الحذف، ولكن التكرار لا يزال موجوداً بالرغم من كثرة ما حذفت. ولو قد نبذت كل رباعية تكرر بعض معناها لِمَ بَقِيَ منها إلا القليل، ولو حذفت من كل رباعية ما تكرر من معناها لما بقي من بعضها غير شطر واحد.

وقد أطّرحتُ كذلك رباعيات أخريات لتفاهتها، أو لثبوت بطلان نسبتها إلى الخيّام، مما ينسجم مع نفسيته وتفكيره، كهذه الرباعيّة:

إن نكن جئنا إلى المسجد نمشي خاشعين

فلعمري لم نجِئ كيما نصلّي طائعين!

إنما كنّا سرقنا من هنا سجّادةً

ولقد رثّتْ فجئنا بسواها طامعين!

وكهذه الرباعية:

عـــنــدمــا تــاقَ فــؤادي لــصــلاةِ وصـيــامِ
قـلـتُ: هـا قـد تـمَّ لـي مـا كـنـت أرجـو مـن مـرامِ
ضـلَّـةٌ لـي، فـوضـوئـي نـقـضـتـه نـسـمـةٍ
وصـيـامـي أبـطـلـتـه رشَـفـاتٌ مـن مـدامِ!

وما إلى ذلك من رباعيات كثيرة شائعة على ألسنة قرّاء الخيّام وهي ليست له. وقد بلغ ما حذفت نحواً من خمسين رباعية، بعد أن عانيت ما عانيت في نظمها. ولم تَجُدْ نفسي بأن أطرح منها أكثر من هذا، فإن شاء القارئ فليشطب بالقلم ما لا يعجبه منها.

تمحيص الرباعيات

تكتُّم الخيّام

وأخال أن الذي زعمتُ من دقّة ترجمتي ومطابقتها الأصل الفارسي خليقٌ بأن يسوّل للباحث العربيّ أن يعتمد هذه المجموعة في درس فلسفة حكيمنا الشاعر وبحث آرائه في الكون والحياة والممات. فمن الحقّ عليَّ إذاً أن أنبّهه إلى أمرٍ قد لا يروقه أبداً، وهو أني لست على يقينٍ من أن هذه الرباعيات التي يقرأ هي رباعيات الخيّام حقاً. فما من محقق خياميّ يسعه أن يجزم بأنَّ معشار تلك الرباعيات التي تُعَدّ بالألوف والتي تكتظّ بها النسخ المختلفة ـ للخيام حقاً، كما يسعك ان تقطع بأن:

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّم شادي

لأبي العلاء المعري، وأنَّ:

مغاني الشِّعبِ طِيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

لأبي الطيب المتنبي.

ذلك بأن عمر الخيّام، فيما يبدو، لم يجمع رباعياته في حياته كما جمع أبو الطيب ديوانه، وكما جمع أبو العلاء لزومياته، وسقط

زنده. ولعل الخيّام قد جمع رباعياته، بيد أنه لم يستطع أن يُظْهِرَ الناسَ عليها إلا خاصة أصدقائه ومريديه، من الذاهبين مذهبه في التفكير. وأنا أكاد أجزم أنه كان كَتَمها عن أهل زمانه خيفةً على نفسه من مغبَّة ما فيها من خروجٍ على الدين، وثورة.

قال في إحدى رباعياته:

فُصِّلَتْ أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاترْ
قد طويناها، ففي النَّشر وبالٌ ومَخاطرْ
لم نَجِدْ في الناس من يعقلُ من أهل البصائر
فغدَا يُعجِزنا إظهارُ ما تُخْفي الضمائرْ

وقد اتَّهموه بالكفر حتى خشي أن يفتكوا به، بل قد أخبرنا في رباعيةٍ له طريفةٍ أن القوم اتهموه كذلك بالفلسفة:

يتظنَّى الشانئ الواهمُ أني فيلسوف
علم اللّهُ بأني لا كما قال السخيفُ
بيد أني وأنا في وكرِ أتراحٍ وبؤسِ
لا أقلَّ الآن أن أعرف فيه كُنْهَ نفسي!

فهو يتنصَّل من التهمة ويُشهِد اللّهَ على براءته منها مدّعياً أنه أراد أن يعرف نفسه ليس إلا. وذلك دفاع فيه مكر كثير، لأن معرفة النفس هي باب الفلسفة في مذهب سقراط ومشايعيه. ولكن يظهر أن عمر الخيّام كان يعتمد على جهل متهميه.

ووجهُ الاتهام بالفلسفة والتنصّل منها هو أنها كانت توأم الزندقة في عرف القوم. وقديماً قالوا: من تمنطق تزندق!

فرجلٌ هذه حاله، في جيل من الناس كذلك الجيل المتمسك بأهداب الدين، يسوسه المتعصبون من رجاله الذين كان يكفِّر بعضهم بعضاً ويُفتِي بقتله لخلافٍ يسير في الرأي، ما كان يسعه ان يعلن على الملأ رباعياتٍ له حريفةَ الطعم، لاذعةَ التهكم، فيها مروقٌ عن الدين، وتنديد بالمرائين من رجاله، وفلسفة.

ونحن ما زلنا في هذا القرن العشرين، نشهد في بلادنا العربية مفكرين لا يجدون مناصاً من كتمان آراء لهم في الدين أو الاجتماع أو السياسة، مخافة غضبة مضريّة تحل نقمتها عليهم من رجعية أو جهالة أو حكومة... وكثيراً ما حلّت.

على أن الخيّام كان بالرغم من هذا، وأحياناً بسبب هذا، ينظم الرباعيات اللاذعة (ولعل ألذعها وأوجعها ما نظمه أيام تكفيره) ويتلوها حين تتاح له الفرصة على من يأمن جانبه من خاصة صحابته والمعجبين به من أهل طريقته. فكان بعضهم ولا شك يحفظها، وبعضهم ينسخها ويتلوها بدوره على أصدقائه.

فلما توفي الشيخ الحكيم كانت رباعياته متفرقة في بطون الدفاتر وعلى أفواه الرواة. وإذا كان هو قد ترك نسخة في منزله أو نسخاً لدى رواته وتلاميذه تضمُّ رباعياته كاملة، فأمرٌ لا نعلم عنه شيئاً. ولكن بعضهم قد حاول من غير شك أن تكون له نسخة كاملة، ولعل بعض مريديه قد نسخ ما ليس لديه منها عن بعضهم، فتمَّ لهم من ذلك ما أرادوا، أو لم يتمّ لهم من ذلك ما أرادوا.

اختلاط الرباعيات

وقد جهد الباحثون من المتأخرين أن يظفروا بإحدى هذه النسخ القديمة فأخفقوا. وكان أقدم ما وقعت عليه أيديهم هي النسخة المعروفة بنسخة بودلين Bodleian المحفوظة في أكسفورد. وقد كتبت سنة ٨٦٥ هـ، أي بعد وفاة الخيّام بثلاثة قرون ونصف قرن. ونحن بعدُ لا نعرف المصدر الذي أخذ عنه جامعُ هذه النسخة، ولا مبلغ ما يحقّ لنا أن ننيط بها وبه من ثقة. وقد وردت فيها رباعيات ثبت أنها منسوبة دخيلة.

ولا تحتوى نسخة بودلين هذي إلا على ١٥٨ رباعية، أما النسخ التي تليها تاريخاً، فهي كلما كانت أحدث عهداً كان ما تحتويه من الرباعيات أكبر عدداً، حتى أن نسخة طبعت في طهران تضمّ نحواً من ألف رباعية. ويُخمَّن مجموع ما يعزَى من الرباعيات إلى الخيّام في مختلف النسخ الرائجة بنحو خمسة آلاف رباعية[١].

إن الذي لدينا من أخبار الخيّام نفسه وأطوار حياته جدُّ قليل، وما نعرف أن أحداً من معاصريه ـ على قلة من كتب عنه منهم ـ قد أشار بكلمة إلى الرباعيات. وأما الذين أشاروا إليها وذكروها فكلهم قوم لم تقع أعينهم على الخيّام، فاعتمدوا على السماع بعد آماد طويلة لا يوثق معه بالسماع وحده.

---

(١) المستشرق الألماني الدكتور فردريك روزن ـ مقدمة (رباعيات حكيم عمر خيام) وهي النسخة التي وقف على طبعها بالفارسية في مطبعة (كاويانى) ببرلين سنة ١٣٠٤ شمسية، أي ١٩٢٥م. وقدم لها بمقدمة ضمنها نتيجة بحوثه في الخيّام ورباعياته.

ومهما يكن من الأمر، فإني أحسب أن المعجبين بالخيّام طفقوا بعد وفاته ينسخون الرباعيات بعضهم عن بعض، حتى خرجت من أيدي خاصة الخيّام إلى أيدي عامة الناس. وكانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة في التعبير، وإفصاح عن خوالج الكثيرين من مثقفي ذلك العصر المتلاطم الآراء، المتباين النزعات ـ باعثاً للشعراء ممن أولعوا بالخيّام على أن ينسجوا على منواله في نظم الرباعيات، حتى كثر ما نُظِم منها على طريقته كثرة عظيمة. وإذا بالخيّام يغدو إمام مدرسة في الشعر والفكر.

ولم يشتهر أحد من هؤلاء المقلديه. ولعلهم كانوا يكتمون أمرهم مثله، بل لعل بعضهم كان يعزو بعض رباعياته إلى الخيّام تنصّلاً من تبعتها. فانضافت رباعيات هؤلاء إلى رباعياته.

ولم يقتصر نظم الرباعيات على هؤلاء الخيّاميين المفلسفين الذين ظلوا يتساءلون عن أسرار الكون وغاية الحياة والموت، يناقشون مسائل الدين والكلام مناقشةً أقرب إلى الإنكار أحياناً، وهي الإنكار بعينه أحياناً، غير قانعين بما يجدونه لدى الدين من أجوبة عليها. وإنما كان للأتقياء المؤمنين كذلك رباعياتهم يذبُّون بها عن حياض الدين ويردُّون ريب المرتابين وكفر الكافرين، فيها وعظ وفيها تذكير، وفيها قنوت وخشوع.

وكان للمُجّان كذلك رباعياتهم، فيها خمر وفيها صبابة وفيها خلاعة. يتغنّون بها في الحانات، على أنغام المزاهر ورنّات الأقداح.

وكان للمتصوفة رباعياتهم يترنّمون بها في حلقات أذكارهم، فيها

غزل ونسيب، وفيها مناجاة و(شطحات). بل إنهم كثيراً ما ترنموا برباعيات الخيّام، أو برباعيات الماجنين الخلعاء، من باب الوجد والشطح!

وكان للزهاد رباعياتهم يعبّرون بها عن عزوفهم عن عرض الحياة الدنيا وأطماعها، في ذلك العصر الذي كثرت فيه الفتن وفشا التكالب على الجاه والسلطان، فكان طبيعياً أن يفشو فيه الزهد والانزواء.

وقد اختلطت هذه الرباعيات كلها برباعيات الخيّام، اختلاطاً أصبح يتعذر علينا معه أن نميّز بينها ونرد كلاًّ منها إلى صاحبها، ولا سيما أن أصحابها مجهولون لم يسجّل التاريخ اسماً لأكثرهم. والمعروفون منهم لم يشتهر أحدهم شهرة الخيّام، فأصبحت كل رباعية متشردة لا صاحب لها تنتمي إليه.

وكانت الرغبة في استكمال الرباعيات وعدم تفويت شيء منها يجعلان النُسّاخ يضيفون إلى نسخهم كل ما تقع عليه أعينهم من رباعيات يقال لهم إنها للخيام، فيلحقونها بها ـ يضمّونها إلى آخرها أو يدسُّونها في أثنائها. وهو عين ما تفعله أنت وأفعله أنا، إذا أراد احدنا استكمال نسخته. فهكذا أصبحت رباعيات الخيّام أشبه بكرة الثلج، تكبر حجماً كلما زادت تدحرجاً. وهكذا حملوا الكثير مما وجدوا من رباعيات الشعراء على الخيّام، كما حملت العرب الكثير من الخمريات وشعر المجون على أبي نواس، وكما أضافت الفرس الكثير من نوادر الأذكياء والبلهاء إلى ملاّ نصر الدين.

تحريف الرباعيات

ويبدو أن طائفة من الصلحاء تعمَّدوا أن يَعزُوا إلى الخيّام من الرباعيات التي تحضّ على التوبة والتقوى ما لا علم له به، وحوروا رباعياتٍ له فرووها على غير وجهها، تخفيفاً لما فيها من تطاول على الشرع.

وإليك من أمثلة التحوير هذه الرباعية:

كَــويــنـد مــراكــه دوزخــي بــاشــد مــســت
قــولــيــســت دروغ دل در آن نــتــوان بــســت
كــر عــاشــق ومــســت دوزخــي خــواهــد بــود
فــردا بــبــنــي بــهــشــت را جــون كــف دســت

وترجمتها:

«يقولون إن السكران مصيره النار».

«قولٌ كَذبٌ لا يستطيع القلب أن يعلق به».

«إذا كان مصير العاشق والسكران إلى النار».

«فغداً ترى الجنَّة كراحة الكفّ».

فقد استبدلوا في بعض الروايات كلمة (دروغ) أي (كذب) من الشطر الثاني بكلمة (وليك) أي (ولكن). فصار المعنى هكذا:

«إنه قول، ولكن لا يمكن أن يعلق به القلب».

وربما استقام المعنى على هذا الوجه، ولكنه على كل حال أضعف من الوجه الأول. ولو كان في الكتابة شبه بين الكلمتين

الفارسيتين (وليك) و(دروغ) لقلنا: لعلها من أخطاء النساخين المشهورة. فالظاهر إذاً أن أحد الأتقياء أراد أن يهوّن من وقع المعنى، فنَفى الكذب عن الدِّين القائل بأن الشارب الخمرة مصيره إلى النار. ولكنه نسي أن الرباعية قائمٌ كيانها كله على محاولة إثبات هذا الكذب، وأنه لهذا لم يكد يصنع شيئاً بهذا التحوير.

وإليك مثالٌ آخر:

أيها القالي الحميّا، لا تندّدْ بالسُّكارى
لا تشيِّد بالأساطير وبالتدجيل دارا
إن تحرّجتَ من الخمر فلِمْ تُزهَى اغترارا؟
كم فَعَالٍ لك تَخْزَى الخمرُ منه وتَوَارى!

فقد ورد الشطر الثاني في بعض النسخ هكذا:

«وأنا إن تسنّى لي تبتُ إلى اللّه».

على حين أن موضوع الرباعية يدور بأجمعه على المخاطب لا المتكلم. كما أن المعنى في الرواية الأولى أكثر انسجاماً مع بقية الأشطر، ولا سيما الأخير.

هذا وأمثاله ينبئك بما أصاب رباعيات الخيّام من تحريف مقصود بالإضافة إلى ما مُنِيَتْ به من الآفة الشائعة التي لم يكد يسلم منها كتاب قديم، وهي تصحيف النساخين وأخطاؤهم.

الرباعيات الجوالة

وقف الباحثون حيال ركام ضخم من الرباعيات المتباينة

الأغراض، المتناقضة المعاني، موقف الحيرة والتهيّب. وحاولوا بما أوتوا من صبر وفطنة أن يمحّصوها ويستخلصوا منها رباعيات حكيمنا الفلكي مما خالطها من رباعيات سواه، فتقدموا في هذا السبيل متدرجين، يفيد لاحقهم من خطأ سابقهم وصوابه، شأنهم شأن العلماء في كشف حقائق العلم وارتياد مجاهل الأرض والسماء.

جاء المستشرق الروسي جوكوفسكي بنظرية «الرباعيات الجوالة» حين لحظ أن بعض الرباعيات يجول في دواوين الشعراء الفرس، فافترض أنها منسوبة إلى الخيّام. إلا أنه اعترف أن مجرد وجود الرباعية في دواوين بعض الشعراء ليس بالدليل القاطع على أنها لهم دون الخيّام، فقد اتضح أن بعض هذه الرباعيات موجودٌ في نسخٍ من رباعيات الخيّام أقدم عهداً من الشعراء الذين وردت في دواوينهم، فكان هذا دليلاً على أن بعض رباعيات الخيّام قد سافر إلى دواوين الشعراء كما هاجر بعض رباعياتهم إلى ديوانه ـ على حدّ تعبيرِ فردريك روزن.

أنظر مثلاً إلى هذه الرباعية التي وردت في بعض النسخ من ديون حافظ الشيرازي:

يا لَجمشيدَ وقصرٍ كان فيه يشربُ
وَلَدَت فيه ظباءٌ، واستكنَّ الثعلبُ
يا لَبهرامَ الذي كان يصيد العَيْرَ عمراً
أرأيت القبر كيف اصطاده لا يَرهَبُ؟

يقول فردريك روزن وهو مصيب: «إن هذه الرباعية قد تكون للخيام وقد لا تكون، إلا أنها لا يمكن بحال أن تكون لحافظ. ذلك بأن الفرق بعيد بين دنيا الشاعرين».

ومهما يكن فإن نظرية «الرباعيات الجوّالة» طريقة في البحث سلبية، لم يكن يُنتظَر منها أن تفضِيَ إلى نتيجة إيجابية. فلو افترضنا أن كل الرباعيات الجوالة محمولٌ على الخيّام لكان قصارانا أن ننبذها، ولبقيتْ لدينا بعد ذلك كومة مركومة من الرباعيات نحتاج إلى التحقيق في أمرها.

الرباعيات الموسومة

وجاء الأستاذ كريستنسن بطريقة أخرى. فكان منه أن جمع كلَّ رباعية ورد فيها لقب «الخيّام»، وقال يحتمل أن تكون أصيلة غير دخيلة. ولكن هذه الطريقة وإن تكن إيجابية، فإن عدد هذه الرباعيات لا يتجاوز الاثنتي عشرة. فلو صحَّت نسبتها إليه كلها لكانت مع ذلك قليلة. على أن الأستاذ جامعها يعترف، مثل اعتراف جوكوفسكي، أنها طريقة لا يعوَّل عليها. وأثبت ذلك برباعية ورد فيها اسم الخيّام موضوعاً مكان اسم صاحبها.

وقد نفى فردريك روزن ستاً من هذه الرباعيات الاثنتي عشرة. أما ثلاثٌ من هاته الستّ فيبدو أنه لا ريب في كونها محمولة على الخيّام، وأما الثلاث الأخريات فلستُ أستطيع أن أجزم مع المستشرق الألماني بنفيها. إحداها مثلاً هذه الرباعية:

خاطَ للحكمة خيامٌ خياماً وارتحلْ!
مذ هوَى المسكينُ في أتّون حزنٍ واشتعل!
قطَعتْ أطنابَ دنياه مقاريضُ الأجلْ!
ورخيصاً باعه في السُّوق دلالُ الأملْ!

فهو يقول: «وأكبر الظنّ أنها كتبت بعد وفاة الخيّام». وقد تابعه على ذلك العلاّمة فروغي[1] حيث يقول: «ويقينٌ أن شخصاً آخر قالها عن الخيّام، كما لحظ الدكتور روزن» ولستُ أعرف لذلك سبباً، لأنهما لا يذكران سبباً، فإن كان حديث الرباعية عن الخيّام بضمير الغائب هو الذي جعلهما يظنان أن قائلها غيره، فالحقّ أن الخيّام يتحدث عن نفسه في الرباعيات الاثنتي عشرة كلها ـ الصحيح منها والمنسوب! ـ بضمير الغائب طوراً والمخاطب طوراً، وليس بينها واحدة يتحدث فيها عن نفسه بضمير المتكلم. وإن كان حديثها عن موت الخيّام بصيغة الماضي هو الذي جعلهما يتوهمان ما توهما فما أكثر ما يتحدث الشعراء الفرس خاصة، عن الموت المستقبل بصيغة الماضي، وما أكثر ذلك في رباعيات الخيّام نفسه. وما أكثر ما قال فيها: «هلكنا، ورحلنا» وهو يقصد «سنهلك، وسنرحل».

وقد وردت هذه الرباعية في النسخة التي وقف على طبعها الدكتور روزن. وإذا راجعت جدول الرباعيات الجوالة تبين لك أنها ليست منها، فليس لها إذاً غير الخيّام صاحب معروف. وصحيحٌ أن هذا ليس بالدليل القاطع على صحة نسبتها، إلا أنه لا داعي إلى نبذ

---

(١) الرباعية ٣٩ في هذه المجموعة.

رباعية موسومة باسم الخيّام خاصة، لمجرد أنها تتحدث عن موته على نحو مألوف في الشعر الفارسيّ. وأنا أستطيع أن آتيك بعشر قصائد، أو مائة إن شئت، لغير الخيّام - يتحدَّث فيها أصحابها عن أنفسهم بضمير الغائب وهم يعنون المتكلم، ويذكرون موتهم بصيغة الماضي وهم يقصدون المستقبل. ويقول الخيّام:

يا خليليّ، تعبنا عبثاً حتى بَلِينا
ورمانَا منجلُ الدهر شمالاً ويمينا
لهف نفسي، لهف نفسي، لم نكد نفتح عيناً
في حياةٍ لم تكن وفق المنى حتى فنِينا

فإذا تمسكنا بمنطق الدكتور روزن لم يبقَ لنا إلا أن نفترض أن الخيّام نظم هذه الرباعية بعد وفاته!

وإذا رجعنا إلى الرباعية الأولى - التي أنكرها الخيّاميان الإيراني والألماني - وجدنا أن ظاهر معناها لا يدلّ على أن غير الخيّام قد تحدث فيها عنه. فإنَّ مفادها لو كان قالها سواه، لهو التشفّي. ولكن هذا التشفّي لا يتفق مع الثناء عليه بالقول إنه خاط خياماً للحكمة، في الشطر الأول، كما فعل في بعض رباعياته، وفي بعض أبياتٍ له عربية، ثم هو يأسف في بقية أشطر الرباعية على نفسه وحكمته تذهبان هدراً. وما أكثر ما أسف في رباعيات أخريات.

فالرأي عندي أن هذه الرباعية إنما ينبغي أن يكون قائلها الخيّام. فإن كانت من صنيع امرئ سواه فإنما أراد أن يقولها على لسان الخيّام ويُنحِله إياها، لا أن يتحدث فيها عنه.

أما المرحوم فروغي فالحقّ أنه ينكر هذه الرباعيات الاثنتي عشرة برمتها، بالرغم من ورود اسم الخيّام فيها، بل لورود اسم الخيّام فيها! ذلك بأنه يشك في «أن حكيم نيسابور قد سَمَّى نفسه بالخيّام أصلاً». ويسترسل فيقول: «وإنما يبدو للنظر أن لقب الخيّام يخصُّ أباه، فإننا لم نَرَ من معاصريه والقريبين من عهده من دعا الحكيم بالخيّام، وإنما هم كلما ذكروا اسمه جاؤوا بلقب الخيّام أو الخيّامي بعد اسم أبيه، أو دعوه ابن الخيّام. فيمكن الاعتقاد بأنهم لم يسمُّوا الحكيم خياماً في عصره، بل صار يعرف بالخيّام بعد ذلك نسبة إلى أبيه على سبيل التجوّز»[1].

وهذه ملاحظة جديرة بالتقدير والتسجيل، لو كانت صائبة. وهي تدهشني حقاً لما فيها من تسرع في الحكم على غير تمحيص وتثبّت، ما كنت أتوقع مثله من مثل العلامة المرحوم. ذلك إن العروضيّ السمرقندي[2] كان معاصراً للخيام وصديقاً، وقد سمّاه «خواجه إمام عمر خيامي» دون ذكر لاسم أبيه إبراهيم. فهذا دليل دامغ على خطأ البحاثة الجليل.

وقد بعث الإمام القاضي أبو النصر محمد بن عبدالرحيم النسوي مقطوعة إلى حكيمنا النيسابوري مطلعها:

---

(١) المرحوم آقاي محمد على فروغي، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والأدب في إيران، توفى منذ بضع سنوات أثناء الحرب العالمية الأخيرة [الأولى]. وله تصانيف في الأدب الفارسي منها مجموعة لرباعيات الخيّام طبعها باسم «رباعيات حكيم خيام نيشابورى» وقدم لها ببحث قيم ممتع على إيجازه، وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه. طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية، أي ١٩٤٢م.

(٢) رباعيات حكيم خيام نيشابورى، ص ٣١.

إن كنتِ ترعَيْنَ يا ريح الصَّبا ذِمَمِي		فاقرِي السّلام على العلاّمة الخِيَمِي

دون ذكر لاسم أبيه أيضاً.

فلقب الخيّام، أو الخيّامي، أو الخِيَمِي كان معروفاً إذاً للخواجه الإمام عمر بين معاصريه. والظاهر أن القاضي أبا النصر دعاه بالخيمي بدلاً من الخيّام أو الخيّامي نزولاً على ضرورة الشعر، ولكن ذلك يدلّ على كل حال أن الإمام الحكيم كان يلقّب بشيء له صلة بالخيمة. وقد سمّاه البيهقي[1] الذي لقيه في صباه «الدستور الفيلسوف حجة الحق عمر ابن إبراهيم الخيّام». فربما كان أبوه إبراهيم يصنع الخيم كما يستنتج الباحثون فلقّب بالخيّام، ولعلّ ابنه الدستور الفيلسوف صار يلقب بالخيّام تارةً تبعاً لأبيه، وبالخيّامي تارة أخرى من باب النسبة. والإيرانيون ميّالون إلى إضافة ياء النسبة إلى الألقاب وأواخر الأسماء، حتى ليسمّينى بعضهم «آقايى فاضليى)! ولعل بعض معاصري الخيّام فعلوا ذلك بلقبه فسمّوه بالخيّامي. ويبدو أنه آثر هو الأفصح والأسهل في قرض الشعر فسمى نفسه في رباعياته بالخيّام.

والخلاصة أني أرى أن ذكر اسم الخيّام في الرباعية إن لم يكن دليلاً على صحة نسبتها إليه، ما هو بالدليل على صواب نفيها عنه، ما لم تقم على ذلك البينة القاطعة من رواية صحيحة أو سند مقبول[2].

ولا يستغربنّ القارئ إطالتي في الردّ على المرحوم فروغي هنا،

---

(١) أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي في كتابه «جهار مقاله» أي المقالات الأربع.

(٢) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي «تتمة صوان الحكمة» تم تأليفه ما بين سنتي ٥٥٣ و٥٦٥هـ.

فإنَّ محو بضع رباعيات أو إثباتها لأمرٌ جَلَلٌ في مثل بحثنا. وإن رباعية يتيمةً واحدة يصحُّ عندنا في هذه الفوضى أنها للخيام لأثمن عند الخيّاميّين من الدرّة اليتيمة. وفروغي بحّاثة له مقامه في الأدب الفارسي، فإذا هو أرتأى رأياً فأصاب أو أخطأ تبعه الكثيرون على خطأه أو صوابه؛ ولهذا أجدني أكترث لرأيه.

مقارنة الرباعيات

وللمستشرق الروسي جوكوفسكي طريقة أخرى إيجابية، غير نظرية «الرباعيات الجوالة» السلبية. ذلك أنه وجد في بعض كتب الأقدمين بضع رباعيات ذكروها للخيام من باب الاستشهاد، فهي أخلق أن تكون من نتاج قريحته، لأن رواتها أقرب إليه عهداً، وروايتهم أوثق مما في أيدينا من نسخ لا نعرف الذين جمعوها؟ ولا مِن أين جمعوها. منها مثلاً رباعيتان رواهما الرّازي[1] في «مرصاد العباد» واستشهد بهما على ضلال الخيّام. فالمستشرق الروسي يرى أنهما لورودهما في «مرصاد العباد» ولوجودهما كذلك في النسخ القديمة من الرباعيات كان لنا أن نطمئن شيئاً إلى صحتهما[2].

وقَفَّى الباحثون على أثر جوكوفسكي فجعلوا يضيفون إلى الرباعيات الصحيحة رباعيات جديدة كلما عثروا على شيء منها في

---

(١) في هذه المجموعة ثمانٍ من الرباعيات الموسومة باسم الخيّام، هي الرباعيات: ٤٤، ٤٨، ٧٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٨٨، ٣٣٠ و ٣٣٣.

(٢) نجم الدين أبو بكر الرازي «مرصاد العباد» تأليف سنة ٦٢٠ هـ، أي بعد وفاة الخيّام بنحو قرن واحد.

كتاب قديم، حتى وُفّق المرحوم فروغي أخيراً إلى جمع ٧٤ رباعية نقَلَها عن ثماني روايات قديمة مختلفة، منها بضع رباعيات ذكرها رواتها من باب الاستشهاد، ومعظمها من باب الاختيار والاستحسان. وإذا أخرجنا منها ثمانيَ رباعيات تكرر ذكرها في بعض هذه الروايات بقي لدينا ستّ وستون رباعية رواها قوم كلهم أقدم عهداً من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات الرباعيات، فهي من أجل ذلك أحقّ بالركون إليها والاطمئنان إلى صحتها. وقد اتخذها فروغي وسواه مثالاً يقيسون عليها سائر الرباعيات، فما كان بها شبيهاً عدّوه للخيام، وما كان لها مغايراً عدّوه لسواه. فلنسمِّها إذاً الرباعيات المعتمدة.

مناقشة الرباعيات المعتمدة

ولكني أجدني أتساءل: عن أيّ المصادر أخذ القدامى هاته الرباعيات الست والستين، وأقدم كتبهم دُوِّن بعد وفاة الخيّام بما لا يقل عن قرن من الزمن؟ ولكن ما العمل؟ فلنفترض أنهم قد أخذوها عن.. مكانٍ ما، ونسلِّم موقتاً بصحتها.

يقول فروغي: «متى وضعنا نصب أعيننا هذه الرباعيات الستّ والستين التي يحتمل احتمالاً قوياً، بل يصحّ الاعتقاد، أنها للخيام، ووزنَّا خصائص كلام الحكيم، كان الشيء الذي يواجهنا أنها جدّ بسيطة، عارية من التزويق، بريئة من التصنّع والتكلف. بل إنها مجرّدة حتى من الأخيلة الشعرية، حتى ليمكن القول إنها ليس فيها من الشعر غير الوزن والقافية. ولكنها على غاية الفصاحة والبلاغة، صحيحة موجزة محكمة، كل ألفاظها قالبٌ للمعنى، لا نقصان فيها ولا زيادة،

ولا عيب ولا شائبة. وأوضح أن قائلها لم يقصد إلى تنميق الألفاظ والتفاصح، فكلها مقيَّدٌ بأداء المعنى. وأما المعاني فمن اللطف والدقة والإبداع بحيث تسمو على كل تخيّل واصطناع، فهي جدٌّ لا هزل فيها. وهو يبدي أحياناً بعض الطيبة، كثير الدقة والظرف، وكلامه ناعم لا وخز فيه، ومضامين الرباعيات كلها نتاج طبع حكيم متفكر مستطلع... الخ».

وأنا لا أكره للخيام أن يكون كذلك، ولكنّ بين هذه الرباعيات المعتمدة ما ليس كذلك. فإليك هذه الرباعية:

«ما دام تركيب الطبائع وفق مرامك لحظة،

فاذهب وعش سعيداً، ولو كنت تسام الضيم!

وكن مع أهل العقل، فإن أصل جسمك؛

غبار ونسيم وشرار وريح!».

فأنت تلحظ السخف ولا شك في الشطرين الأخيرين خاصة، حيث ينصحك صاحب الرباعية أن تكون مع أهل العقل.. لماذا؟ لأن أصل جسمك كذا وكذا! إن من عادة الخيّام ـ كما سترى عند قراءة رباعياته ـ أن ينصح المرء بالاستمتاع بمباهج الحياة لأنه سيموت، فأما إذا نصحك أن تكون مع العقلاء فلأسباب أوجه من كون أصل جسمك غباراً ونسيماً وشراراً وريحاً! وقد استرعى انتباهك من غير شك أيضاً أن المقصود بالنسيم والريح شيء واحد هو الهواء، وأنه كان عليه أن يذكر الماء بدلاً من أحدهما، لتتمّ العناصر الأربعة التي

كانوا يعتقدون أنه لا عناصر غيرها. وهذا أبعد ما يكون عن الدقة التي اتّصف بها الخيّام، وذكرها له فروغي.

وإليك هذه الرباعية:

«أنا لا أتحاشى شرب الخمر لضيق ذات اليد،
ولا لهمِّ الفضيحة والسكر،
وإنما كنت أشرب الخمرة للسرور.
أما الآن وقد جلستَ على قلبي فلا أشرب!»

فهذا كلام غثٌّ لا يصدر مثله عن مثل الخيّام. وحسبك أنه ـ أي قائل الرباعية المجهول ـ يزعم أنه لا يشرب الخمرة لأنك.. (أي حبيبه) قد جلست على قلبه! وما سمعنا أن سكيراً أقلع عن المدام لأنه أحبّ، وإنما العكس هو المشهور. وفي هذه المجموعة رباعية تُؤَدّي نقيض هذا المعنى، جاء فيها:

صادَ لي عشقُكَ شَيْبي في أحابيل الدلالِ
يا أخا الحسن، وإلاّ ما لصهباءَ وما لي؟

وقد لا تكون هذه الرباعية للخيام، ولكن معناها هو المعقول المقبول.

فأيُّ «حكمة أو تفكُّر أو استطلاع» في هاتين الرباعيتين، وأمثالهما بين الرباعيات السّت والستين غير نادر؟ وغريبٌ أن يقول فروغي إن كلامه ناعم لا وخز فيه، فأي وخز أوجع من قوله:

إن مَنْ صاروا محيطَ العلم بين العالمين
وغدَوْا في الفضل مصباحَ الهُدى للمهتدين

لــم يَـشُــقُّــوا مــن دُجَــى الــشـكّ طـريــقـاً لــيـقــيــن
إنـــمـــا قـــصُّـــوا أســـاطـــيـــرَ، ونـــامـــوا بـــعـــد حـــيـــن!

أو قوله:

أبـــدعَ الـــصـــانـــعُ تـــركـــيـــبَ طـــبـــاعِ الـــبـــشـــر
فـــلـــمـــاذا شَـــانَـــهَـــا بـــالـــنـــقـــص أو بـــالـــوضَـــرِ؟
إن تـــكُـــنْ جـــاءت مـــلاحـــاً، فـــلـــمـــاذا خَـــرْبُـــهـــا؟
أو تـــكـــن جـــاءت قـــبـــاحـــاً، فـــعـــلـــى مَـــنْ عَـــيْـــبُـــهـــا؟

وأمثال هاتين الرباعيتين ـ بين الستّ والستين ـ كثير؟

على أني لست أريد إلى انتقاد فروغي هنا وتفنيد رأيه في خصائص الخيّام، ففي وسعك بعد قراءة الرباعيات أن ترى رأيك فيها، وفي رأيه فيها. فلنعُدْ إلى ما في بعض هذه الرباعيات المعتمدة التي يرويها المتقدمون من غثاثة وسخف، فإن هذا يدلّ على أن بينها ما هو مدسوس محمول على شيخنا الحكيم. فالمتقدمون كالمحدثين عرضة للخطأ، وقد طالما لفّقوا الأحاديث وزيّفوا الأخبار، وقد طالما أخطأوا في النقل والرواية عن حسن نية أيضاً.. كالمتأخرين سواء بسواء.

لهذا أرى أن الرباعيات الست والستين لا يصحُّ اتخاذها مقياساً دقيقاً لرباعيات الخيّام، وإن كان يصح اتخاذها مقياساً غير دقيق، ومحكّاً غير منزَّهٍ عن الخطأ. فإنما هي أمثلة استشهد بها بعضهم، أو مختارات انتقاها آخرون وفق أذواقهم، فلم يقصدوا إلى الإحاطة والشمول، فيها الأصيل والدخيل. ولعل ثمة جوانب من فلسفة الخيّام

أو شاعريته لم تعجب منهم أحداً فأهملوها ولم يذكروا منها رباعية واحدة. وليس بعيداً أن يكون له رباعيات في المجون أو الهجاء أو أيِّ ضربٍ من ضروب القول نظنه بعيداً عن الخيّام وأمثاله، ولكلِّ شاعرٍ نزوات وبدوات. ولعلنا لو ظفرنا بمجموعة الرباعيات الأصلية لاختار منها فروغي ولاخترت منها أنا غير ما اختار القوم.

وما دام الحدس والذوق هما كل سندنا في القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها، فلا معدَى لنا عن أن نلصق بالخيّام كل رباعية تشبهه من رباعيات غيره من الشعراء ما دمنا لا نعرف لها صاحباً سواه، وأن نجرِّده من كل رباعية له ما دامت لا تشاكل الرباعيات المعتمدة ولو كنا لا نعرف لها صاحباً سواه. فهذا عين الخطل، وهذا الخطل لا محيص لنا من ركوبه إلى أن نهتدي إلى طريقة أمثل منه.

إن هذه الحيرة لا ينتشلنا منها إلا نسخة قديمة يجدها أحد الباحثين تجمع رباعيات حكيمنا الشاعر كلها، ويسعنا الركون إلى صحتها. وهذا لعمرك أمل يبدو كأنه بعيد..

عدد الرباعيات

إن هذا يحدو بي إلى ألاَّ أتشدَّد في اختيار الرباعيات تشدُّد المرحوم فروغي الذي اكتفى بانتقاء ١٧٨ رباعية فقط ـ بما فيها المعتمدة ـ رغبةً منه في جعلها أقرب إلى الصحة، وتجنّباً لخطأ الأخذ

بما ليس للخيام من رباعيات. لأني أرى أن خطأ المرء في نبذ رباعيات للخيام لا يقلّ سوءً عن خطأه في الأخذ برباعيات غيره.

والوقاع أن البحاثة الجليل فروغي يشايع سواه من الخيّاميين في ميلهم إلى الإقلال من عدد الرباعيات؛ فبعضهم يرى أن ما للخيام منها لا يربو على الثلاثمائة، وبعضهم يرى أنه دون المائتين. وقد قال لي الخيّاميّ التركي المشهور رضا توفيق في حديث جرى لي معه في استانبول إنه يعتقد أن الرباعيات الأصيلة لا تتجاوز المائة. قلت له إننا نعلم أن الخيّام قد نيّف على السبعين، ولعله شارف الثمانين أو جاوزها، بل إننا لا يسعنا أن نقطع بأنه لم يبلغ المائة مثلاً، فليس لدينا على ذلك دليل من رواية أو قرينة[1]. فإذا افترضنا أنه لم ينظم سوى رباعية واحدة (أي بيتين وحسب) كل شهر، وأنه لم يعش أكثر من سبعين عاماً، وأنه لم يمارس نظم الرباعيات قبل أن يبلغ الثلاثين ـ يكون على ذلك قد تعاطى نظمها أربعين سنة، ويكون مجموع ما نظمه منها ٤٨٠ رباعية!

والخطأ في هذه الفرضية، إن كان فيها خطأ، أنه ليس محالاً أن ينصرم العام والعامان ولا ينظم الخيّام رباعية واحدة، فما كان بالشاعر المحترف ولا المتفرغ للقريض. ولكن هذا مجرد احتمال، وقد يكون احتمالاً ضعيفاً. ومن المحتمل أن يكون لقاء ذلك قد نظم أحياناً عدة رباعيات في يوم واحد.

---

(١) هما الرباعيتان ٧٤ و٩٥ من هذه المجموعة.

أما دليل فروغي على قلة الرباعيات فهو هذا التكرار في معاني الكثير منها ومبانيه. وهو يستبعد أن يكرر الخيّام نفسه إلى هذا الحد، وأنا أستبعد ذلك معه. ولا أنكر، ولا ينكر أحد أن الكثير من الرباعيات قد نظمه مقلدو الخيّام وأتباع طريقته.

ولكني أعتقد أن للتكرار بالإضافة إلى هذا سبباً آخر، هو أن الخيّام نفسه قد أعاد نفسه بنفسه وكرر بعض معانيه. ذلك أنه لم ينظم رباعياته في وقت واحد ليعالج موضوعاً خاصاً فيربط بين أجزائه، ويهذّب فصوله، ويشذّب زوائده. وإنما هي خطرات عابرات، كلما سنحت له واحدة منها أفرغها في رباعية قد تشبه رباعيةً له سبقتها، وقد يكون بينها وبينها عشرات الرباعيات في معانٍ أخرى، وعشرات الشهور. وسنرى عند قراءة الرباعيات أن خطرات معينة قد شغلت عقله فانحصر فيها تفكيره، من ذلك كثرة ذكره الموت حتى في معرض الدعوة إلى اللهو والحضّ عليه، ومن ذلك مسألة الجبر والاختيار. فكلما جاش في نفسه أحد هذه المعاني وألحَّ على ذهنه أطلقها رباعية مجلجلة يفرّج بها عن نفسه. وما دامت هذه الأفكار تعاوده بعينها دائماً فلا جَرَمَ أن يعالجها من شتَّى نواحيها، ويفصح عنها بشتَّى التعابير. بل لا جرم أن يكررها بعينها، إذا تقادم العهد، وهو لا يدري. ومَنْ مِنَ الكتاب أو الشعراء أو الفلاسفة لا يعيد نفسه على هذا النحو، ويعرض بعض أفكاره مراراً متعددة في قوالب مختلفة ـ من حيث يريد ومن حيث لا يريد؟

وهذا شوقي مثلاً، ما أكثر ما ساءل الموتى في مراثيه عما لديهم

من أسرار الفناء، وهو ناسٍ أنه فعل ذلك وكرره مراراً في مراثٍ سالفات. ولو قرأتَ لزوميات المعرّي ورأيت ما فيها من التكرار «لهالك الأمرُ واستهوتك أحزانُ»!

بل لقد كرر الخيّام بعض معانيه في نفس هذه الرباعيات السِّتّ والستين التي اقتنع فروغي بصحتها. أفلم يلحظ ذلك؟

فليس حتماً إذاً أن تكون لغير الخيّام واحدةٌ من كلّ رباعيتين مكررتين.

وعندي على كثرة الرباعيات دليلٌ آخرُ إن لم تجده قاطعاً فهو على كلّ حال جديرٌ بالاعتبار. ذلك أنّ الرباعيات الأربع والسبعين التي جمعها المرحوم فروغي من ثمانية مصادر، لم يتكرر منها سوى ثماني رباعيات وحسب؛ فبقي لنا منها ستٌّ وستون، كما رأينا قبل. فلو كانت رباعيات الخيّام الأصيلة من القلة بحيث يتوهّم المتوهمون لتكرر منها الكثير.

ولأضربْ مثلاً: فلنفترض جدلاً أن رباعيات الخيّام لا تربو على المائتين؛ فخذ لقاءها مائتي بيت من ديوان المتنبي، ثم سَلْ ثمانية أشخاص أن يختاروا منها أربعة وسبعين بيتاً تُوزِّعُ عددها عليهم بنسبة ما ورد من الرباعيات في الكتب الثمانية الآنفة الذكر. أفتظنُّ مهما اختلفتْ أذواقهم أنه لن يتكرر اتفاق أي اثنين منهم في اختيار أية رباعية أكثر من ثماني مرات؟.

إني لأرى أنّ في تكرار ثماني رباعيات فقط من تلك الروايات الثماني لدليلاً على أن أصحابها قد اغترفوا من بحر واسع فلم يلتقوا

إلا قليلاً. ولكن لا تسلني كم عدد رباعيات الخيّام. فأنا لا أستطيع أن أحدّد لها عدداً، ولو تخميناً. فخمِّن أنت إن استطعت.

مدرسة الخيّام

أما التمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها ـ على أساس القياس ـ فلكلٍ من الباحثين مذهب فيه. وإنك لتجد كل واحد منهم يقول هذه الرباعيةُ للخيام، وتلك ليست للخيام لِعِلّةٍ لا أعرفها. وما وجدت اثنين من المحققين يتفقان على ما يختاران منها، بل وجدت أن ما يعدّه أحدهم رباعية صحيحة لا غبار عليها، يعدّهُ سواه رباعية مدخولة عليها غبار كثير.

أما أنا فأعترف بعجزي عن تمييز رباعيات الخيّام مما عداها تمييزاً تطمئن إليه نفسي، لهذا أنفض يدي من هذه المهمة التي تبدو أقرب إلى المحال. وقد جمعتُ في هذا الكتاب ما استحسنت من جمهرة الرباعيات؛ فإلاّ تكن كلها للخيام فلا بد أن الكثير منها له. وما أحسب أن ما فيها يخالف رأيه، ولا أخاله يستاء لو عاد إلى الحياة وقرأ هذه المجموعة فوجد فيها ما ليس له من رباعيات قد عُزِي إليه، بل لعله يؤسفه إغفالي بعض رباعيات له أهملتها لتكرارها ولإسفافها ظنّاً مني أنها محمولة عليه. ومهما يكن من الأمر فإن مجموعتي هذه جامعة أكثر منها مانعة، ولا بد أن يكون فيها رباعيات ليست للخيام.

وإنما هي في مذهبي رباعيات «مدرسة الخيّام» تمثّل أفكار الخيّام وطائفة من مثقّفي عصره وما تلاه من عصور في فارس، كما كانت

رسائل «إخوان الصفاء» مثلاً تصور أفكارا طائفة أخرى في بلاد العرب.

وأما الرباعيات الستّ والستون فقد ترجمتُ منها سبعاً وأربعين، أشرت إليها بجانب أرقامها بهذه العلامة (*) تمييزاً لها، لكي يتبينها القارئ ويتخذ منها مثالاً يقيس عليه بقية الرباعيات، إذا هو شاء القياس. وأما الرباعيات الأخريات التسع عشرة التي أهملتها فإنما أهملتها لغثاثة معناها أو تكرره في رباعيات أقوى منهن أو أدق، مما تخيّرته من مختلف النسخ.

على أنني لا أريد أن أقول إنَّ لنا ملء الحرية في أخذ كل ما يقع في أيدينا من رباعيات بحجة أنها من رباعيات «مدرسة الخيّام» ولا أن أنكر كل فائدة للقياس على هذه الرباعيات الست والستين، ولكني إنما أردت أن أقول إِن هذه الرباعيات الستَّ والستين ليست كل رباعيات الخيّام فهي ليست جامعة، وإن فيها ما ليس للخيام فهي ليست مانعة. وقد أسقط المرحوم فروغي نفسه اثنتين منها فلم يذكرها في مجموعته[(١)].

شعره العربي

وما دمنا نريد أن نقيس مضطرين ما لا نعرفه على ما نتوهم أننا

---

(١) لاحظ المرحوم فروغي أن الخيّام كان في عداد المشهورين من الفلكيين سنة ٤٦٧ هـ. حين اشترك في وضع التقويم الجلالي، فلا بد أن يكون عندئذ قد بلغ الثلاثين أو الأربعين من عمره. وقد توفي على المشهور سنة ٥١٧ هـ. أي بعد وضع التقويم بخمسين عاماً، فيكون قد عاش ثمانين عاماً على أقل التقديرين.

نعرفه، فقد خلص إلينا شعر عربي للخيام لم يطعن أحد في صحته فيما أعلم، والرأي أن نضيفه إلى الرباعيات المعتمدة التي نفترض صحة معظمها، فذلك أعْوَن لنا على القياس. وهو على كل حال قليل أُثبِتُه فيما يلي:

١

تَدِين لِيَ الدنيا، بل السبعةُ العُلَى
بل الأفُقُ الأعلَى، إذا جاش خاطري!
أصومُ عن الفحشاء، جهراً وخفيةً
عفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عصبةٍ ضلَّتْ عن الحقِّ فاهتدَتْ
بطُرْقِ الهدَى من فيضِيَ المتقاطرِ
فإنَّ صراطي المستقيمَ بصائرٌ
نُصِبْنَ على وادي العمَى كالقناطر!

٢

إذا قنعَتْ نفسي بميسورِ بُلْغَةٍ
تحصّلها بالكدِّ كفّي وساعدي
أمنْتُ تصاريفَ الحوادث كلَّها
فكن يا زماني مُوعِدِي أو مُوَاعدي!
ولي فوق هام النيِّرَيْنِ منازلٌ
وفوق مناط الفرقدَيْنِ مساعدي

أليس قضى الأفلاك[1] في حكمها بأنْ
تعيدَ إلى نحسٍ جميع المَسَاعدِ؟

فيا نفس صبراً في مقيلك، إنما
تخرُّ ذُرَاه بانقضاض القواعد

متى ما دنت دنياك كانت بعيدةً
فوا عجباً من ذا القريب المباعد!

إذا كان محصول الحياة منيّةً
فسيَّانِ حالا كلِّ ساعٍ وقاعد!

٣

سبقتُ العالمين إلى المعالي
بثاقبِ فكرةٍ وعلوِّ همَّةْ

فلاحَ بحكمتي نورُ الهدى في
ليالٍ للضَّلالة مدلهِمَّةْ

يريد الجاحدون ليطفئوهُ
ويأبى اللّهُ إلا أن يتمَّه!

٤

ألعقل يعجبُ في تصرُّفِه
ممَّن على الأيَّام يتَّكِلُ

(١) ربما كان الأصح: أما قضت الأفلاك. وقد وردت في شعره العربي بعض أخطاء صححناها بمقابلة مختلف الروايات.

فــنــوالــهــا كــالــرّيــح مــنــقــلِــبٌ
ونــعــيــمــهــا كــالــظــلّ مــنــتــقــل!

٥

زجّــيــتُ دهــراً طــويــلاً فــي الــتــمــاس أَخٍ
يــــرعَــــى ودادي إذا ذو خــــلّــــةٍ خــــانــــا
فــكــم أَلــفِــتُ وكــم آخــيــتُ غــيــرَ أَخٍ
وكــم تــبــدَّلــتُ بــالإخــوان إخــوانــا
وقــلــتُ لــلــنــفــس لــمــا عــزَّ مــطــلــبُــهــا
بــالــلّــهِ لا تــألــفــي مــا عــشــتِ إنــســانــا

وإنا ليسعنا أن نطمئنّ إلى صحة نسبة هذه الأبيات، فأسلوبها كما يرى القارئ أشبه بالعلماء منه بالشعراء. وإن ما فيها من استعارات وتشابيه، وذكر للأفلاك، والمناحس والمساعد، وانقضاض القواعد، وانقلاب الرّيح، وانتقال الظل - يشير إلى أن قائلها من المشتغلين بالطبيعة والأفلاك. فهي من هذه الناحية أدلُّ على الخيّام حتى من رباعياته الفارسية. على أن معانيها، باستثناء الفخر، تطابق معاني الرباعيات مطابقة ممتعة. بل إن الفخر ليؤيد لنا بعض التأييد صحة الرباعية التي نفاها عنه روزن وفروغي، فيما تقدَّم بنا من البحث. والفخر وإن كان شائعاً في شعره العربيّ، قليل في رباعياته الفارسية. ولا أدري لماذا أفرغ معظم خيلائه ومباهاته في هذه الأبيات العربية على قلَّتها، فلعله كلما انتابته نزوة من العجب بنفسه وحكمته لجأ إلى لغة الضاد، لشيوع الفخر في شعر العرب.

وإذا اتخذنا هذه المقطوعات العربية محكاً للرباعيات وجدنا أن قوله:

تـــــديـــــنُ لـــــيَ الــــدنـــــيـــــا...

أشبه بقوله في إحدى رباعياته:

فُـصِّــلــت أسـرارُ دنـيـاكـم لـديـنـا فـي الـدفـاتـر

وأن قوله في نفس البيت:

... بــــل الـــــســـبـــعـــةُ الـــعُـــلَـــى

بـــل الأفُـــقُ الأعـــلَـــى، إذا جـــاش خـــاطـــري

يذكّرنا برباعيته:

قـد حـلـلـنـا مـعـضـلاتِ الـكـون طـرًّا لـلـمِـلَـلْ

مـن حـضـيـض الأرض تـالـلّـه إلـى أوجِ زُحَـلْ

ووثـبـنـا مـن أحـابـيـلِ خـداعٍ وحِـيَـلْ

فـــفـــضـــحـــنـــا كـــلَّ ســـرّ...

وأما قوله:

إذا قـنـعـت نـفـسـي بـمـيـسـور بـلـغـةٍ

تـحـصِّـلـهـا بـالـكـدّ كـفِّـي وسـاعـدي

أمـنـتُ تـصـاريـف الـحـوادث كـلـهّـا

فـكـن يـا زمـانـي مـوعـدي أو مـواعـدي

وقوله:

ألـيـس قـضـى الأفـلاك فـي حـكـمـهـا بـأن

تـعـيـد إلـى نـحـسٍ جـمـيـعَ الـمَـسَـاعـد؟

فما أكثر ما ينطبق عليه من رباعيات. وأما قوله:

إذا ما دنت دنياك كانت بعيدةً

فواعجبًا من ذا القريب المباعد

فيذكّرنا بهذه الرباعية التي يَعْرِض فيها لأمثال هذه المتناقضات:

كلما باعدتُ نفسي زدتُ من نفسي دُنُوًّا!

وأراني أتدلّى كلما رمتُ عُلُوًّا!

يا لها خمرٍ وجودٍ أحتسيها، بيد أني

كلما زدت بها سكرًا أراني زدتُ صحوًا!

وأما قوله:

فكم ألِفتُ وكم آخيت غير أخٍ

وكم تبدّلت بالإخوان إخوانا

وقلت للنفس لما عزَّ مطلبُها

باللّه لا تألفي ما عشت إنسانا

فأشبه بهذه الرباعية:

صاحِ أقلِلْ ما تمكّنت عديد الأصدقاء

واصطحب إن شئتَ أهل الدهر لكن من بعيدِ

إن من تركنُ في الدنيا إليه بالولاءِ

ليس في باصرة العقل سوى خصمٍ لدودِ!

وأما قوله:

إذا كان محصول الحياة منيّةً

فسيّانِ حالا كلِّ ساعٍ وقاعد

فشبيه برباعيته:

إن مــن فــكّــر فــي الــدنــيــا ابــتــداءً وانــتــهــاءَ
وجــد الأفــراح والأتــراح فــي الــدنــيــا ســواءَ
ومــصــيــر الــطــيــب والــخــبــيــث إذا كــان الــفــنــاءَ
فــلــتــكــن إن شــئــت داءً كــلــهــا، أو فــدواءَ!

وليس معنى هذا أن كل رباعية يتفق معناها مع شيء من شعره العربيّ فهي له، ولكنها إن لم تكن له كانت تتفق مع أفكاره، وكان لنا أن نختارها، حتى يثبت لنا أنها لسواه.

عقليتـه

الخيّام العالم

ما نكاد نجد في تاريخ الثقافة الإسلامية كله عقلاً ممتازاً كعقل الخيّام أحاط بكل ما كان معروفاً في عصره من العلوم وألف بين متناقضاتها. فلقد جمع الفلك إلى الفقه، والطب إلى قراءات القرآن والفلسفة إلى علوم اللغة، والشعر إلى الكيمياء، واللاهوت إلى الرياضيات...

وكان في هذه المواضيع كلها مبرّزاً، معدوداً في الطبقة الأولى من أحبارها المتوفرين عليها. يناظرهم في فنونهم، ويباريهم في ميادينهم فيظفر منهم بالإعجاب والإكبار. ولكن عقله آثر من كل هذه العلوم أعسرها وأصعبها تحصيلاً في ذلك العصر، فنفذ إلى صميم العلم الخالص والفكر المطلق، فتخصّص في الفلك والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره، ورائد جيله.

كان أحد أعضاء اللجنة التي وضعت التقويم الجلالي على عهد السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقي، فجعلت يوم النيروز مبدأ

السنة، أي أول نقطة من الحمل على اصطلاح المتقدمين[1]. ويعدُّ هذا التقويم أصح من التقويم الجولياني، وقريباً في دقته من التقويم الغريغوري، ويفضّله بعضهم على هذا الأخير أيضاً.

ولم يذكر لنا المؤرخون صفة الخيّام في هذه اللجنة ومكانته بين أعضائها، ولكن الأرجح أنه كان رئيسها. يدلّ على هذا ما حكاه القزويني حيث قال: «وكان ـ أي الخيّام ـ في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي، سلّم إليه مالاً كثيراً ليشترِيَ به آلات الرصد ويتخذ رصد الكواكب، فمات السلطان وما تمّ ذلك[2] وكان هذا سنة ٤٦٧ هـ أي نفس السنة التي اجتمعت فيها اللجنة لوضع التقويم. فلو لم يكن أعلم القوم في الفلك لما آثره السلطان بمهمة إنشاء الرصد. والواقع أن بعض الرواة يقول إن السلطان عهد بإنشاء الرصد إلى جماعة من الفلكيين منهم شاعرنا الخيّام. ولكن الظاهر أنه كان أرجحهم، فإنَّ تفوقه أمرٌ ذكره غير واحد من الرواة القدامى.

أما في الرياضة فقد بقي لنا كتابه القيّم «الجبر والمقابلة) الذي حلّ فيه بعض ما كان مستعصياً على متقدميه من مسائل الجبر والهندسة، فأضاف بذلك ثروة جديدة إلى ثروة العلم[3].

---

(١) ما زال النيروز رأس السنة في إيران، وهو أول أيام الربيع (٢١ آذار) الذي يتساوى فيه الليل والنهار، وأكبر الاعياد لدى الايرانيين شعباً وحكومة، من قديم الزمان. فهو عيد الطبيعة ورأس السنة حقاً

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، «آثار البلاد وأخبار العباد» تأليف سنة ٦٧٤ هـ.

(٣) حلّ في هذا الكتاب المعادلة ذات الدرجة الثالثة بطريقة هندسية. وقد ألفه بالعربية كأكثر كتبه. طبع بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨٥١ م.

وكان فوق هذا طبيباً نطاسياً، بلغ من حذقه وبعد صيته أن دُعِيَ لمعالجة السلطان سنجر حين أصابه الجدري في صباه.

وكان مبرزاً في علوم الطبيعة فعدُّوه «تلو أبي عليّ - أي ابن سينا - في أجزاء علوم الحكمة»[1].

وأما التاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة وعلوم الدين فقد بلغ فيها ما بلغ أصحابها المنقطعون لها، وقد تأدّى إلينا في هذا خبر طريف رواه البيهقيّ[2] حيث قال: «... وقيل دخل الإمام عمر يوماً على شهاب الإسلام الوزير.. وكان عنده إمام القرّاء أبو الحسن الغزّال، وكانا يتكلمان في اختلاف القرّاء في آية؛ فقال شهاب الإسلام: على الخبير سقطنا! فسأل الإمام عمر عن ذلك فذكر وجوه اختلاف القرّاء، وعلّل كل واحد، وذكر الشواذ وعلّلها، وفضّل وجهاً واحداً على سائر الوجوه. فقال إمام القرّاء أبو الحسن الغزّال: كثّر الله في العلماء أمثالك! اجعلنا من أدمة أهلك وارض عنى، فإني ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه، فضلاً عن واحد من الحكماء!...».

فإذا كان هذا مبلغ علمه في مثل هذا الفنّ الخاصّ الذي قلّ من يطلبه، فما بالك بالعلوم الشائعة الأخرى من فقه وتفسير وحديث وكلام؟

وقد كان الأقدمون يعرفون له هذا التفوق ويشيدون به، فما

---

(١) و(٢) «تتمة صوان الحكمة»، وقد مرّت الإشارة إليه في الحاشية.

وقعت عيني على اسمه في إحدى الروايات إلا مقروناً بالتبجيل. ولئن طعن بعضهم في دينه فما طعن أحد منهم في عمله أبداً. حتى الشيخ الرازي[1] الذي استشهد على ضلال الخيّام برباعيتين ذَكَرهُما، أغدق عليه ما شاء من صفات المديح قبل أن ينعته بالضلال، فقال: «.. حتى أن أحد الفضلاء المشهور لديهم بالفضل والحكمة والكياسة والمعرفة، وهو عمر الخيّام، قال من فرط الحيرة والضلالة...»، ثم يذكر الرباعيتين[2].

إلا أنه كان قليل التأليف، فلم يترك لنا من الكتب إلا «الجبر والمقابلة» الذي سلفت الإشارة إليه، وإلا عدداً قليلاً من الرسائل في شتّى أصناف علوم الطبيعة. والحق أن المتقدمين ذكروا له هذا الإقلال أيضاً وعابوه عليه، فعدَّه بعضهم من باب البخل بالمعرفة.

الخيّام الفنان

كان عبقرينا الفلكيّ بالإضافة إلى كل علمه هذا أديباً شاعراً، يذوق الأدب ويحفظ الشعر، ويقرضه بالعربية على قلّة طوراً، وبالفارسية أطواراً. وقد خلّف لنا هذه الرباعيات الباهرة المتألقة في سماء الأدب الفارسي خاصة، والأدب الشرقي عامة، تألق النجم الوهاج. وهي من أنفس ما أنتجته الثقافة الإسلامية في كل عصورها، وأشهر كتاب شرقي على الإطلاق في الشرق والغرب، والغرب على

(١) مر ذكره في الحاشية.
(٢) هما الرباعيتان ٧٤ و٩٥ من هذه المجموعة

الأخص. وما من لغة حيّة إلا وقد ترجمت إليها الرباعيات أكثر من مرة، فما ينازعها من تراث الشرق في ذيوعها في العالم اليوم إلا «ألف ليلة وليلة» وهو كتاب لا يعزَى الفضل في تأليفه إلى احد، فقد اشتركت فيه أجيال ومؤلفون.

عقيدته

من المؤمنين طائفة لا يحبّون أن ينسبوا أحداً إلى الكفر. فهم من باب التقوى، يصِفون بالإيمان حتى من كان كفره صراحاً لا مرية فيه، ولا سيما بعد وفاته، على سنّة: «اذكروا موتاكم بالخير». وهؤلاء على طيب قلوبهم وكرم نفوسهم لا يصلحون لتمحيص التاريخ على أساس علمي. ومن هذه الفئة من عزا إلى النبيّ العربي أحاديث أرادوا بها إلى الإصلاح فأفسدوا، فحكى بعضهم عن الرسول مثلاً أنّ من قرأ سورة الضُحى صباحاً كان له أجر سبعين ألف ملك، لكل ملك سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف لسان، كل لسان يسبّح اللّه بسبعين ألف لغة.. وأمثال ذلك من الأحاديث الموضوعة كثير. أرادوا أن يصلحوا بترغيب الناس في تلاوة القرآن مثلاً فأفسدوا الدين وشحنوه بالخرافات، كأنما توهموا أن النبي كان عاجزاً عن قول ما قالوا، أو أنهم أوحِيَ إليهم من أمور الدين ما لم يُوحَ إليه! ونسوا أن الحقيقة ضالة المؤمن، وأن في وصف أحد الزنادقة بالإيمان لضرراً بالغاً بالدين، إذ يتوّهم سواد الناس أن ما قال ذلك الزنديق ليس زندقة ولا كفراً، فيحذون حذوه ويقولون قوله. وليت شعري ما يربح الدين من الزعم بأن بشار بن برد مثلاً مؤمن تقيٌّ، وهو لا مؤمن ولا تقيّ؟ حتى

المعرّي والخيّام ما الفائدة من ستر زندقتهما، وقد كانا زنديقين، وشعراهما الحافل بالزندقة ملء الأفواه.؟

إن الباحث الحقّ يجب أن يكون كالطبيب، يشرّح ويتحرَّى الحقائق الباردة بلا تستّر ولا تحرّج. الأعضاء عنده كلها سواء لا حرمة لبعضها دون بعض، ولا فضل لبعضها على بعض إلا بالعافية. وإذا كان «لا حَيَاءَ في الدين» فلا مداجاة في العلم والتاريخ.

ولا أعلم هل كان المرحوم فروغي من هؤلاء الأبرار المفسدين حين نفى الإلحاد عن الخيّام بالرغم مما في رباعياته من صريح الإلحاد. فهو يدافع عنه ويتأوّل بعض رباعياته، كأنما يدافع عن قريب له أمام المحكمة لينقذه من حبل المشنقة، ثم هو يتغافل عن رباعيات له إلحاديّةٍ لا تقبل التأوُّل، كأنه لا يراها. وكان الخيّام يكتم إلحاده في حياته خيفةً على حياته، أما اليوم وقد تصرّمت عليه طوال القرون فقد أنجاه الموت من خيفة الموت.

وما كان الخيّام وحيداً في إلحاده، في عصره ولا فيما سبقه أو تلاه من عصور. وقد كان عصره على الأخص يمور كالبحر الهائج، تضطرب فيه العقائد وتتمرّد، وتتلاطم ـ بعد أن حرَّك ساكنَها انتشارُ الفلسفة اليونانية وذيوعُ زندقة الفرق الباطنية. فكان في ذلك وفي فساد سيرة الكثيرين من رجال الدين، ما عاون على فشوّ الإلحاد بين عامة الناس كخاصتهم، وجهلتهم كمثقفيهم.

وحجة المرحوم فروغي في الدفاع عن الخيّام هي أنه إنما كان يتساءل عن حكمة الله في أمور لم يدركها عقله ولا عقل سواه، وأن

التساؤل ليس كفراً. «فالذي يلوم الخيّام إذاً بسبب إظهار حيرته في شؤون الدنيا لم يفطن إلى أنه هو أيضاً لم يفقه شيئاً وأنه جاهل مركّب، وأن معنى كلامه هو أن الحقيقة لي، فسلّم بالطاعة ودع عنك الفضول، واطّرِح عقلك الذي أعطاكه اللّه لتنشد الحقيقة. وهذا هو الكفر في شرع الحكمة والمعرفة»[1].

الحق أنه لا مجال للإنكار أن بعض الرباعيات يمكن عدُّه من باب التساؤل وإظهار الحيرة في شؤون الدنيا، على حد تعبير المرحوم فروغي. لكن ثمة بعضاً آخر لا يأتيه الشك ولا يمكن عدّه إلا من باب الجحود وإظهار الكفران.

تأمّل هذه الرباعيات:

إنّ قرآناً دعَوْهُ في الورى خير البيانِ
ليس يُتْلَى دائماً، بل بين آنٍ وأوانِ
وعلى الأقداح خُطَّتْ آيةٌ بيّنةٌ
أبداً تُقرأُ، في كلِّ زمانٍ ومكانِ!

قيل لي: ما أطيبَ الجنّاتِ بالحور الحسانِ
بيد أني قلتُ: ما أطيبها بنت الدنانِ!
فدع القرض، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقي، إن صوتَ الطَّبل يحلو من بعيد!

---

(1) رباعيات حكيم خيام نيشابوري، ص ١٣.

أبـدع الـصـانـعُ تـركـيـبَ طـبـاعِ الـبَـشَـرِ
فـلـمـاذا شـأنَـهـا بـالـنَّـقْـص أو بـالـوضَـرِ؟
إن تـكـن جـاءت مـلاحـاً، فـلـمـاذا خَـرْبُـهَـا؟
أو تـكـن جـاءت قـبـاحـاً، فـعَـلَـى مَـن عـيْـبُـهـا؟

حـارَ قـومٌ بـيـن شـكٍّ ويـقـيـنٍ، يـا صـديـقُ
وأطـال الـفـكْـرَ فـي الـمـذهـب والـديـن فـريـقُ
أنـا أخـشـى أن يُـنَـادَى ذات يـومٍ: أن أفـيـقـوا
أيـهـا الـجـهَّـال، لا هـذا ولا ذاك الـطـريـقُ!

أفهذا مقال من يتحرى حكمة اللّه؟ وإن لم يكن هذا كُفراً، فالكفر كيف يكون؟ إنّ هذه الرباعيات موجودةٌ كلُّها في مجموعة فروغي، والأخيرتان منها من الرباعيات المعتمدة. وفي مجموعة فروغي من أمثالها ما يربو على العشرين!

الإلحادُ الرياضيّ

كان عقل الخيّام رياضّياً قبل كل شيء، فهو أخو أعدادٍ مضبوطة، وأشكال هندسية منتظمة. يحسبها بالمنطق الرياضيّ الدقيق الذي لا يقبل زيادةً ولا نقصاً، ويقيسها بالأدلة الهندسية الموزونة التي لا تقبل تأوُّلاً ولا نقضاً. فالرياضة لا مذاهب فيها ولا جدَلَ ولا أحزاب ـ كما في الدين والاجتماع والسياسة.

بهذه العقلية الرياضية نظر الخيّام إلى الدين، وناقش مسائله مناقشة مسائل الجبر والهندسة، فما انتهى إلى نتيجة رياضية لا تقبل الجدل. وكيف يمكن ان يكون الدين كذلك، وليس في التاريخ ما أثار الجدلَ واختلاف الآراء كالدين؟

إننا نعلم أن المسلمين انقسموا إلى نحو سبعين فرقة، لكل منها كُتبها وأحبارها وعقائدها، وقعت بينها إلى جانب المناظرات والمهاترات حروبٌ سُفكت فيها الدماء، ولم يمنع ذلك أن يكونوا كلهم مسلمين. فأما مسائل الرياضة فلا فِرقَ فيها ولا حروب، يتّفق فيها الناسُ على اختلاف مللهم وأجناسهم. فإذا عرضتَ مسألة رياضية على مسلم في الحجاز وكنفوشيوسيٍّ في الصّين كان جوابهما واحداً. فإذا اختلفا فلا بد أن يكون أحدهما، على الأقل، مخطئاً؛ ولا مفرّ له من التسليم بخطأه إذا أرشدته إليه. وأما إذا اختلف اثنان في مسألة مذهبيّة، ولو كانا من دين واحد، فالأمل جدٌّ ضعيفٍ في وصولهما إلى نتيجة يتّفقان عليها. ذلك بأن الدين أمرٌ روحانيّ إلهاميّ، لا ماديّ ولا حسابيّ.

ومعلومٌ أنه لا بدّ لذي الدِّين من الإيمان بأمور فوق إدراك عقله، وعلى هذا الإيمان يبني إيمانه بما يدخل في متناول عقله. فإذا عَرَضَت له قضية لا يفقهها سلّم بأن عقله أصغر من أن يدركها. أما محاكمة كل مسألة على هذا النحو الرياضيّ فخليقٌ بأن ينتهي بالمرء إلى مثل ما انتهى إليه بالخيّام من حيرة وإنكار.

انظر إلى هذه المسألة الحسابية:

قيل في الجنّة حُورٌ قاصراتُ الطَّرْفِ عِينْ
وخمورٌ جارياتٌ في نهورٍ وعُيونْ
أيّ ضَيْرٍ إن طلبنا الحُورَ والخمرَ هنا؟
إنّ هذا هو عقبَى الأمر فيما يذكرون!

فهو يأتيك أولاً (بالفرضية)، ثم يأتيك (بالبرهان الرياضيّ).

وانظر إلى المعادلتين التاليتين:

أنت يا ربّي كريمٌ، أنت ذو لطفٍ ومَنّْ
فلماذا تطرد العاصيَ عن جنّة عَدْنِ؟
ليس جوداً منك أن تعطيَني عن حسناتي
إنما جودك أن تُؤتِيَني عن سيئاتي!

وتأمّل هذه المناقشة الغريبة:

يعلَمُ اللّهُ بشربي هذه الصهباء، قِدْما
فإذا لم أحسُها لم يك عِلمُ اللّه عِلما

واقرأ هذا الاستنتاج الطريف:

قال من صارت لهم في العلم والتّقوَى الإمامَةْ:
«يُحْشَرُ المرءُ على ما كان إذ لاقى حِمَامه»
فلنلازم ويحك الحسناء دَوْماً والمُدَامَةْ
فعسانا هكذا نُحْشَرُ في يوم القيامة!

لقد كان يدرك من غير شك ما في هذا الاستنباط الأخير من مغالطة، ولكنه فيما يبدو أعجبته النكتة في منطقها الظاهريّ وسترى الكثير في رباعياته من أمثال هذه المناقشات والمغالطات.

وشغلت فكره قضيةُ الثواب والعقاب باعتبارها ثمرة الائتمار بأوامر الدين والانتهاء عن نواهيه، ولكن عقله لم يهدِهِ إلا إلى الإنكار.

يا فؤادي، لم يَرَ الجنّة والنار بشَرْ
أم أتَى من ذلك العَالَمِ آتٍ بخبَر؟
إنَّ ما نخشىَ وما نرجو مَنُوطان بشيءٍ
ليس يبدو منه إلا اسْمٌ ووصفٌ للنظر!

ثم يُفضي به طول التفكير في الموضوع إلى هذه النتيجة:

كرَّ بي الفكرُ إلى أول يومٍ في الخليقه
ناشداً في اللَّوح والجنّةِ والنار الحقيقه
وإذا العقل ينادي قائلاً: ما أضيعك
ويك إنّ اللوحَ والجنةَ والنار معك!

ومن أهمّ ما يستغرق تفكيرَه كذلك مسألةُ القضاء والجبر تلك المسألة العويصة التي شغلت أذهان المفكرين في كل زمان ومكان، من ملاحدة ومؤمنين. وقد انتهى منها الخيّام كما انتهى الكثيرون من ملاحدة ومؤمنين، إلى أنّ الإنسان مسيَّرٌ لا خيرة له في شيء، من يوم خُلِقَ إلى يوم يموت. فكان ذلك من جملة الأسباب التي أدّت به إلى إنكار الثواب والعقاب، والكفران بذات اللّه.

قــلَــمُ الــمــقــدار أجــرَوْهُ بــأمــري دون أمــري!
فــلــمــاذا ســاءلــونــي مــنــه عــن خــيــرٍ وشــرٍّ؟

ذهــبَ الأمــسُ بــدونــي، وأتــى الــيــومُ بــدونــي
فــغــداً بــالــلّــه مــا حــجَّــتُــهــم إن حــاســبــونــي؟

وقد عمد إلى علم الكلام فجعل يناقش صفات الخالق في رباعيات له وافرة العدد، على طريقته الجدلية الرياضية. منها:

قــيــل لــي: ثَــمَّ حــســابٌ وعــقــابٌ يــومَ حــشــرِ
يــوم يــشــتَــدُّ الــحــبــيــب الــمــرتــجَــى فــي كــلِّ أمــرِ
لــيــس عــنــد الــخــيِّــر الــمــحــض ســوى الــخــيــر لــعــمــري
فــاغــتــبــط ويــك فــعــقــبَــى الأمــر لــيــســت غــيــر خــيــر

إنــنــي يــا ربِّ عــبــدٌ مــذنــبٌ، أيــن رضــاؤك؟
وفــؤادي كــالــدَّيــاجــي مــظــلــمٌ، أيــن ضــيــاؤك؟
وإذا أعــطــيــتــنــا الــجــنّــة بــالــطــاعــة مــنــا
كــان هــذا مــنــك بــيــعــاً، أيــن يــا ربِّ عــطــاؤك؟

يــا إلــهــي، أنــا مــن قــد بــرأتــنــي قــدرتُــك
وتــرعــرعــتُ عــزيــزاً، دلّــلــتــنــي نــعــمــتُــك
ســوف أمــضِــي فــي الــمــعــاصــي جــاهــداً ســبــعــيــن عــامــاً
لأرى مــعــصــيــتــي أوســعُ أم مــغــفــرتُــك

مقارنة بين زنديقين

أبو العلاء المعرّي أيضاً أنكر الدين وكفر، ولكنّه وقف عند حدّ، أما الخيّام فقد مضى في كفرانه إلى النهاية.

ثار المعرّي على المجتمع وانتقد أخلاق بنيه وكذلك فعل من بعده الخيّام، وثار على المشعبذين من رجال الدين وحمل عليهم، وكذلك فعل الخيّام، وثار على الدّين كذلك وكذلك فعل الخيّام، ثم قَرَّ عند هذه المرحلة وأقام.

قال المعرّي في إنكار دين الإسلام وكلّ دين:

هفَتِ الحنيفةُ والنَّصارى ما اهتدَتْ
ويهودُ هامت والمجوسُ مضلَّلَهْ
اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا
دينٍ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ لَهْ!

ولكنه تحيّر في أمر البعث بعد الموت، فأنكره مرة، وآمن به مرة، وتردَّد فيه طويلاً. فمن إنكاره قوله:

تحطِّمنا الأيامُ حتى كأننا
زجاجٌ، ولكن لا يُعَادُ له سبْكُ

ومن إيمانه قوله:

قال المنجِّم والطبيبُ كلاهُما:
لا تُحشَرُ الأجسام. قلتُ: إليكما
إن صحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ
أو صحَّ قولي فالخَسارُ عليكما!

وكأنه نظر في هذا إلى الخيّام نفسه، فقد كان منجِّماً وطبيباً، فكان بذلك على صلة وثقًى بأسرار الكون وعجائبه؛ يُرِيه الفلكُ عظمة الأجرام الضّخمة ومسافاتها الشاسعة لا يدركها الكفر، ويُظهِر الطبُّ على أسرار جسم الإنسان وهو أعجب جهاز وأدقّه على سطح هذه الكرة الشريدة التائهة. ناهيك بما يقترن بهذا الجرم الصغير، الذي انطوى فيه العالم الأكبر، من نفسٍ زاخرة بالأحاسيس وعقلٍ حافلٍ بالأخيلة والأفكار ـ مما يكاد يجعله على ضآلته أضخم من الأفلاك وأفسح أبعاداً.

ومن عادة المؤمنين إذا أرادوا إثبات وجود الخالق أن يتفكروا في خلق السموات والأرض كالفلكيين، أو في خلق أنفسهم كالأطباء ـ فيستدلّون بالصنيع على الصانع. ولكن يظهر أن المنجم والطبيب كانا مضرب المثل في الكفر في ذلك الزمان فقرنهما المعرّي.

ولست أعلم هل كان شيخ المعرة جادّاً أم هازلاً حين ردَّ على الطبيب والمنجم إنكارهما المَعَاد، وأثبت إيمانه هو على هذا النحو الصيرفيّ، في حسبان الربح والخسارة. ولكني أذكر أني مذ وقعَت عيناي على هذين البيتين، في صغري، وقع في نفسي أنه يتهكّم.

على أن له أقوالاً غير هذا لا تهكّم فيها، أدلّ على إيمانه بالحشر، ومنها:

إذا ما أعظُمي كانت هباءً ... فإنّ اللّه لا يُغيِيه جمعي

ولكنه وقد آمن بحشر الجسد هنا، نجده يقول في مكان آخر:

أما الجسوم فللتراب مآلها ... وعييتُ بالأرواح أنّى تسلكُ!

ثم يعود فيقول في مكان آخر:

وإن صــدئــت أرواحُــنــا فــي جــســومــنــا

فــيــوشــك يــومــاً أن يــعــاوِدَهــا الــصــقــلُ!

ثم هو يقول متردِّداً متحيِّراً:

إن يــصــحــب الــروحَ عــقــلــي بــعــد مــظــعــنــهــا

لــلــمــوت عــنــي، فــأجــدِرْ أن تــرى عــجــبــا!

وإن مــضــت فــي الــهــواء الــرَّحــب هــالــكــةً

هــلاكَ جــســمِــيَ فــي تــربــي، فــواشــجــبــا!

فمن العبث إذاً أن نحاول تحديد عقيدة المعرى في الحشر تحديداً دقيقاً وهو نفسه حائر في أمره، عاجز عن تحديد عقيدة نفسه في الجسم والروح، وفي رأيه في خلودهما أو فنائهما.

وأما الخيّام فقد أنكر الحشر بجملته، فلم يذكر جسماً ولا روحاً:

أيّــهــذا الــغــافــل الــجــاهــلُ مــا أنــت نــضــارٌ

فــيــواروه الــثــرى كــي يــنــشــروه بــعــد طــيٍّ

هذا إلى أنه ليس في رباعيات الخيّام ما يجحد به الروح، بل إن ما يدل على إيمانه بوجوده مع الجسم، فالمفهوم من نكرانه البعث إذاً أنه يعتقد بفنائه مع الجسم.

ولكنّ المعرّي آمن باللّه بعد أن كفر بالدين وشكّ في المعاد، أما الخيّام فقد كفر باللّه أيضاً.

قال المعرى:

أثبتُ لي خالقاً حكيماً ولستُ من معشرٍ نُفاةِ

وقال الخيّام:

قال لي القلبُ: هو العلْمُ اللدنّيُّ خَيالُ
فإذا استطعتَ فعلّمنِيَ منه ما يُقالُ!
قلتُ فاسمعْ، أَلِفٌ. قال: تمهّلْ ويكَ يكفي
إن يكن في الدار من يُسْمَى فحسي فَرْدُ حرفِ!

تناسخ الأرواح

وتوهَّم بعضُ المتوّهمين أن الخيّام كان يعتقد بتناسخ الأرواح، استناداً إلى رواية تزعم أنه لما كان أستاذاً في مدرسة نيسابور شاهد مع تلاميذه حماراً كان ينقل الآجرّ لترميم المدرسة، حَرَنَ ووقف بالباب فلم يدخل. فتبسم الخيّام ودنا من الحمار وأنشد في أُذنه هذه الرباعية على البديهة:

أيها الذاهب، ها قد عُدتَ حيواناً أضلاً
ويك ضاع اسمك من بين الأسامي واضمحلاّ
إن أظفارك صارت حافراً مجتمعاً
وغدت لحيتك الشمطاء في عجزك ذيلا!

فدخل الحمار. فلما سئل الخيّام عن ذلك قال لهم إن هذا الحمار كان أستاذاً في هذه المدرسة، فلما مات تقمّصت روحُه جسمَ حمار،

فاستحَى أن يدخل. غير أنه لما وجد أصحابه قد عرفوه لم يجد مناصاً من الدخول[١].

فإن كان لهذه الحكاية من الحقيقة نصيب، فلقد حدثت لأحد ما، فلما ذاعت عُزِيتْ إلى الخيّام لشهرته، فعفَّى الزمان على اسم صاحبها. وإن تكن وقعت للخيام فلا بدّ أنه قال هذه الرباعية سخريةً بالبشر، وتهكماً بالأستاذية. وله في الأستاذية مثلاً هذه الرباعية:

قد لزِمْنَا في صبانا مجلسَ الأستاذ حينا
ودُعِينا بعدُ أستاذاً ففزنا ورضينا
فاستمع آخرة الأمر إلى أين انتهينا:
من ثرى الأرض خرجنا، ومع الريح مضينا

وأيّاً كان قائل هذه الرباعية الحماريّة فإن أسلوبها لا يدلّ على أن صاحبها يؤمن بتناسخ الأرواح، فإنّ ما فيها من مزاحٍ قاسٍ وسخرية تثير الضحك يوجب علينا أن نستنتج أن قائلها ـ سواء أكان الخيّام أم سواه ـ يكفر بتناسخ الأرواح، ويهزأ به وبمن يعتقد به. وقد سخر فيلسوف المعرّة كذلك من هذه العقيدة حيث روى في رسالة الغفران على لسان بعض النصيريّة هذين البيتين[٢]:

إغجَبي أُمَّنا لصرفِ الليالي جعلَتْ أختَنا سكينة فارة!

---

(١) أحمد بن نصر الله التّتوي السندي المعروف بأكبر شاه الهندى: «التاريخ الألفى» تأليف سنة ١٠٠٠ هـ. ولا نعلم المصدر الذي أخذ عنه هذه الرواية، فهي لم يذكرها مَن تقدمه من الرواة فيما يظهر.

(٢) الدكتور طه حسين، (تجديد ذكرى أبي العلاء».

فازجري هذه السنانير عنها   وأتركيها وما تضمُّ الغراره!

وإنما تنبئ رباعيات الخيّام أنه كان يؤمن بـ«بتناسخ الأجساد» إن صحَّ التعبير. تستحيل تراباً بعد موت أصحابها، ثم تكون أجساماً لسواهم، ثم تعود تراباً، ثم تصير أجساداً..

كان من قبلك في الدنيا رجالٌ ونساءُ
زيَّنوا الآفاق، كالأنجم لاحوا وأضاؤوا
سوف يغدو جسمُك المختالُ طيناً، فهو طينٌ
كان جسماً لألوف الناس من قبلك جاءوا

إلحادٌ وتقيَّة

ومن عجائب المرحوم فروغي وقد أثبت إيمان الخيّام وسلامة عقيدته ـ أن نفَى عنه كل رباعية فيها تديُّن وإيمان، بحجّة أنّ هذه الرباعيات الدينية على العموم ضعيفة المعنى، لا إبداع فيها ولا عمق تفكير. والحق أن فروغي ليس وحيداً في نبذ هذه الرباعيات، فإن المتأخرين من الباحثين، ولا سيما الغربيون، كلهم على هذا الرأي، وما كان من فروغي إلا أن شايعهم.

أما أنا الذي قلت بإلحاد الخيّام على العكس من فروغي، فأعتقد على العكس منه أيضاً، أن للخيام رباعياتٍ دينية كأمثال رباعيات المؤمنين الأبرار. وتعليل ذلك يسير، فقد قالها تمويهاً وتقيةً. يدرأ بها عن نفسه مقالة السوء وتهمة الكفر، تلك التهمة الخطيرة التي كثيراً ما أدَّت بأصحابها إلى القتل حرقاً بالنار أو رجماً بالحجارة أو ضرباً بالسيف. وأمثال ابن المقفّع والحلاج ليسوا بالقليلين.

فليس ببعيد إذاً يتّقي الخيّام القتل ببضع رباعيات ينظمها إيهاماً للناس. وأخاله قد هيّأ عدداً منها في جيب ذاكرته، فإذا سأله أحد الشانئين عن رباعياته يريد بذلك إحراجه في مجلس من رجال الدين مثلاً - تلا عليه الخيّام بعض الرُّقى من هذه الرباعيات الدينية يتخلص بها من مأزقه. فهي سلاحٌ أشبه بسلاح سامّ أبرص، إذا دهمه عدوٌّ ترك له ذيله يتلوّى بين يديه ويشغله، ونجا هو بنفسه.

وعندي على ذلك أكثر من دليل. وإليك أولاً مقطوعته العربية هذه، وما أحسبك نسيتها:

تدينُ لِيَ الدنيا بل السبعةُ العُلىَ	بل الأُفُقُ الأعلى، إذا جاشَ خاطري
أصوم عن الفحشاء، جهراً وخفيةً	عفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري!
وكم عصبةً ضلَّت عن الحقِّ فاهتدت	بطُرق الهدى من فيضِيَ المتقاطر
فإنّ صراطي المستقيمَ بصائرٌ	نُصِبْنَ على وادي العمى كالقناطر

فكفره في البيت الأول صراح لا لَبْسَ فيه. فما اكتفى بأن تدين له الدنيا ثم السبعة العلى، وإنما تطاول إلى الأفق الأعلى أيضاً. وكلا الاصطلاحين «السبعة العلى» و «الأفق الأعلى» تعبير قرآني. وكأنَّ هذا المعنى ظل يجيش في نفسه فلم يطق إلا أن ينفثه في هذا البيت ويستريح، على الرغم من خشيته مغبَّةَ هذا التجديف. ولكن الخشية دفعته إلى أن يدسّ البيت الثاني:

أصوم عن الفحشاء، جهراً وخفيةً	عفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري!

تمويهاً وتضليلاً. وإنَّ وضع هذا البيت بعد سابقه مباشرة ليبعث الابتسام من هذه المحاولة الماكرة. ومن الطبيعي أن يكون هذا البيت -

الذي قاله مكرهاً ليعبِّر فيه عن نقيض عقيدته ـ متكلّفاً، ضعيف المعنى، مزوَّق الألفاظ. ثلاث صفات ينفيها فروغي عن شعر الخيّام، في أكثر من مكان من مقدمته.

وأحسب أن الخيّام نظم في أول الأمر ثلاثة أبيات، ثم صنع هذا البيت فحشره مخالسةً بعد البيت الأول عسى أن يخفف من وقعه. وقد غيّر هذا البيت معنى البيتين اللذين يليانه كل التغيير، فإن شئت أن تعرف قصد الخيّام فاحذفه واقرأ الأبيات الثلاثة من جديد. وكأنك به يقول عندئذ إنه في الإلحاد إمام مجتهد، له أتباع مقلدون، يقودهم إلى سواء السبيل، في وادي العمى، الذي يقصد به «الإيمان» فيما يبدو.

والتقيّة معروفٌ أمرها في تلك العصور. ولقد أباح الشرع للمسلم اجتراح المحرمات عند الضرورة وخشية الهلاك، من شربٍ للخمر وأكل للحم الخنزير وكذب. فلئن اقترف المؤمن المحرمات اضطراراً، فقد أباح الملحدون لأنفسهم التظاهر بالتقوى، اضطراراً أيضاً. وناهيك بفيلسوف العرب المعرّي واستقامته في حياته وصبره على مكاره الدنيا، وهو الذي أخذ نفسه بعمل كل ما كان يعتقد أنه خير، وترك كل ما كان يعتقد أنه شرّ، حتى لقد انزوى في بيته وقنع ببلغة العيش بعد أن عزف عن متع الحياة وطيِّباتها من مالٍ وجاهٍ ومرأةٍ وخمرةٍ ولحمٍ. ولكنه مع هذا لم يجد مناصاً من التقية دفعاً للهلكة.

قال:

أُصدُقْ إلى أن تظنّ الصدق مهلكةً　　وبعد ذلك فاقعد كاذباً وقُمِ!

وقال:

لا تخبرنَّ بكُنْهِ دينك معشراً ... شُطُراً، فإن تفعل فأنت مغرّرُ
وأضمُتْ فإنَّ الصمتَ يكفي أهلَهُ ... والنطق يُظْهِرُ كامناً ويقرّرُ

وقال:

ما لي رأيت دُعاةَ الشرّ ناطقةً ... والرشدُ يصمت خوف القتل داعوه؟

وقال:

إذا قلت المحالُ رفعتُ صوتي ... وإن قلتُ اليقين أطلْتُ همسي!

ويقرب من هذا قول الخيّام:

فُصِّلتْ أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاتر
قد طويناها، ففي النشر وَبالٌ ومَخاطِر
لم نَجِدْ في الناس من يعقل من أهل البصائر
فغدَا يُعْجِزُنَا إظهارُ ما تُخْفِي الضمائر

ويحكي لنا القفطيّ أن الخيّام حجَّ البيت الحرام خوفاً على دمه «وأمسك من عنان لسانه وقلمه» وجعل بعد عودته إلى بلده يغدو إلى المساجد ـ تظاهراً بالإيمان. أفمَنْ يتجشَّم السفر من نيسابور إلى مكة في ذلك العهد الذي كان فيه «السفر قطعةً من سقَر» لا يُجشِّم نفسه تزجية بضع رباعيات سقيمة متكلفة المعنى والمبنى ينجو بها بحياته، في ذلك العهد الذي ساد فيه التعصب، في نيسابور خاصة، لسوء حظ الخيّام؟

ويذكر فردريك روزن رسالة للخيام في مجموعة «روضة القلوب»[1] يريد ليستنبط منها عقيدة الخيّام فيقول: «ولا يمكن فهم أفكاره الفلسفية فهماً كاملاً من هذه النسخة أيضاً، ولا يمكن حمل تضادُ أفكار عمر الخيّام ـ كالاعتقاد باللّه ورحمته من جهة، وجور الخالق في التقدير وغيره من جهة أخرى ـ إلا على سَعَة أفكاره وتنوّع نظرياته»[2].

وأنا أستبعد أن تبلغ سعة أفكار الخيّام وتنوع نظرياته من الخلط والتناقض هذا المبلغ الرائع، وهو الرياضي الفذّ، الدقيق الفكر. فالواضح أن حكيمنا الشيخ يضلّل ويراوغ، فيقول أولاً ما يعتقد ثم يعود فيموّهه ويضيّع أثره بنقيضه ليستر إلحاده.

ولو قد فطن الدكتور فردريك روزن إلى نبوّ البيت في مكانه من المقطوعة العربية، وإلى حجّ الخيّام «متاقاةٍ لا تقية» على حد تعبير القفطي، وإلى رباعياته التي يشكو فيها الناس لأنهم يحولون بينه وبين إعلان آرائه والإفصاح عن أسرار عقله ـ لغيَّر رأيه في «سعة الأفكار وتنوع النظريات».

---

(١) رسالة خطية موجزة كتبها الخيّام لابن نظام الملك الوزير.
(٢) رباعيات حكيم عمر خيام، ص ٤٧.

الصهباء والحسناء

الصهباء

ما ترَدَّدت كلمةٌ على لسان الخيّام في رباعياته تردّد الخمرة، حتى لتخاله في إدمانها والعكوف عليها قريع أبي نؤاس، على حين أننا نجهل أنه قد ذاقها في حياته قط. ولقد حدا هذا ببعضهم أن يتوهم أنه قصد بها الخمرة الإلهية، وواضحٌ من تأمل رباعياته أنه لم يذق الخمرة الإلهية أبداً. فما كان الخيّام صوفياً، ولا كان له من الصوفية نصيب غير القناعة الأبيّة، والعزوف عن زخارف الحياة، واجتناب فتن السياسة، إيثاراً للعافية، وتفرغاً للعلم والتأمل. ولكنه كثيراً ما حمل على المتصوفة في رباعياته وسمّاهم الزاهدين المنافقين، كما فعل أبو العلاء. فإذا وجدتَ في هذه المجموعة أو في أي مكان، رباعيةً فيها تشبيبٌ بالخمرة ووجد بالحبيب، واقتنعتَ أنها صوفية المغزى فاقتنع من فورك أنها ليست للخيام.

وإن كان أراد بالخمرة شيئاً غير بنت العنب فإنما كنّى بها عن عموم المعصية في بعض الأحيان، فاتّخذها رمزاً لما نهى عنه الدين من محرمات. كمثل قوله:

عـلِـمَ الـلّـهُ بـشـربـي هـذه الـصـهـبـاء، قِـدمـا
فـإذا لـم أخـشُـهـا لـم يـك عـلـم الـلّـه عـلـمـا

فهذا ينطبق على شرب الخمر وعلى كل معصية يرتكبها عمر الخيّام.

ولكن أتراه شربها قط؟

عند استعراض رباعياته نجده إذا أخذت بخناقه الهموم دعا بالصهباء:

إسـقـنـي الـجـريـال شـقـراءَ بـلـون الأرجـوان
أيـهـا الـسـاقـي، فـإنـي ضـاق بـالـهـمّ جَـنَـانـي
إسـقـنـيـهـا تُـذهِـب الـعـقـلَ ولـو بـعـض أوان
عـلّـنـي أذهـل عـن نـفـسـي وأحـداث الـزمـان!

وإذا ذكر الموت وأراد أن يغتنم فرصة الحياة دعا بالصهباء:

آتـنـي كـأسـاً ودعـنـا الـيـوم نـغـنَـمْ كـلَّ أُنـسِ
فـغـداً نـصـبـح آجـرًّا لـقـصـرٍ أو لـرمـسِ

وإذا اشتهى أن يعتزل الدنيا مع الحبيب فالخبز والصهباء، ثم الصهباء:

أنـا إن فـزتُ مـن الـقـمـح الـمـنـقّـى بـرغـيـفِ
ومـن الـخـمـر بـزقٍّ مـعـه فَـخْـذ خـروفِ
ثـم أحـيـا وحـبـيـب الـقـلـب فـي عـرضٍ تَـنُـوفِ
فـهـي الـعـيـشـة، مـا تـاحـتْ لـذي الـمـلـك الـمـنـيـفِ

وإذا رأيته اشتهى فخذ الخروف هنا، فإنما هو نُقْلٌ من ملحقات الصهباء!

إن رباعيات الخيّام مكتَّظة بذكر الخمرة، يلهج باسمها أبداً هنا وهناك. فهل من المعقول أنه لم يشربها؟

أما الذين يُؤثرون أن ينزِّهوا الخيّام عن معاقرتها فيستدلُّون على ذلك بأننا لا نجد بين الروايات التي أيدينا ما ينبئ بأنه كان يشربها. فهذا أضعف دليل. وقد رأينا أن معاصريه لم يكتب لنا عنه منهم إلا الأقلون، وأن هؤلاء الأقلين، لم يذكروا لنا شيئاً فيه غناء. والواقع أن كل من كتب عنه من القدامى، حتى الذين تلوه بقرون ثلاثة أو أربعة وكتبوا ما كتبوا على السماع والإشاعة ـ لم يخبرونا عنه إلا باليسير الذي لا يكاد يشفي غليلاً.

أنهم مثلاً لم يخبرونا بشيء عن صباه، فهل لنا أن نستنتج أنه لم يكن صبياً في حياته، وأنه إنما ولد كهلاً عالماً قد أخذ من كل العلوم بطرف؟ وهم لم يخبرونا كذلك بشيء عن امه، فهل يدلُّ ذلك على أن أباه إبراهيم قد ولده لغير أمّ؟

وما دامت المسألة مسألة استنتاج فإنما يحق لنا أن نستنتج أنه شرب الطلا، ولو على قلة، لأنه هو أقرَّ بشربها في الكثير من رباعياته.

وحجةٌ أخرى يذكرها فروغي، هي أن غيره من شعراء الفرس مثل سعدي وحافظ وجلال الدين قد ذكروا الخمر مع أن عفّتهم وزهدهم

لا ترقى إليهما الرِّيَب. وهذا قول لا يخلو من وجاهة، وقد ينطبق على مثل هذه الرباعية:

عسعسَ الليلُ فقم باللّهِ، يا كنزَ الدلالِ
إحتسِ الراحَ وناغِ العودَ، حالاً بعد حالِ
فالمقيمون مقيمون إلى غير مطالِ
والذين ارتحلوا لن يرجعوا بعد ارتحالِ

ولكنه لا ينطبق على هذه الرباعية:

إنها الخمر، حياةُ الخلدِ أو خلدُ الحياةْ
إنها حظُّك من عهد الصِّبا، وهي مناةْ
ذا أوان الورد والخمرة، والصَّحبُ نَشَاوَى
فاغنم الصَّفْوَ، فإن العيش هذا لا سواهْ

ولا هذه الرباعية:

إن آجرَّ سِدَادِ الدَّنِّ خيرٌ من عُلاَ جَمْ
وشذا الأقداح أشهَى نكهةً من رزق مرْيَمْ
رُبَّ آهٍ يرسلُ الخمَّارُ في جوف الدُّجى
هي أحلَى من تسابيح أبي سعدِ وأدهَمْ[1]

ولا هذه:

قيل لي: ثَمَّة جنّاتٌ بها حُورٌ وكوثَرْ
وبها أنهار خمرٍ، وبها شُهْدٌ وسكَّرْ!

---

(١) في الأصل الفارسي «بو سعيد وأدهم» وهما صوفيان معروفان أما (جم) فاختصار لاسم جمشيد، وهو ملك فارسي قديم.

فـعـلـى ذكـر الـحـمـيـا هـاتِ كـأسـاً وتـعـجَّـلْ
إنَّ نـقـداً فـي يـدي أفـضـلُ مـن ألـفِ مـؤجَّـلْ!

ولا هذه:

إن أُتِـيـحَـتْ لـي مـن الـحُـورِ كَـعَـابٌ فـي الـربـيـعِ
أتـحـسَّـى مـن يـديـهـا الـراحَ فـي الـمـرج الـمَـريـعِ
صاحِ مـهـمـا اشـتـدَّ قـولـي فـي الـورى قـبـحـاً وهُـجْـنَـهْ
فـأنـا أدنَـى مـن الـكـلـب إذا اسـتـذكـرتُ جـنَّـهْ!

وهذه الرباعيات كلُّها موجودةٌ في مجموعة فروغي، وأمثالها كثير.

فإذا كان في مقدور فروغي أو غيره من أساطين الأدب والتحقيق أن يثبت لنا أن الخيّام قصد في هذه الرباعيات بالخمرة شيئاً غير الخمرة، التي تُصَبُّ في الأقداح، وتؤخذ باليد، وتُشرَب بالفم، وتَلعب بالرؤوس ـ كان في مقدوره أيضاً أن يبرهن لنا على أن كرة الأرض مكعبٌ قائم على قرن ذبابة لا قرون لها! والحقُّ أن ثمة من فحول التأويل والتفسير مَنْ استطاع أن يثبت ما هو أروع من هذا من حقائق باطلة!

وإذا رجعنا إلى ما في أيدينا من روايات قليلة ألفينا أن الخمر كانت شائعة في عصر الخيّام، وأنه كان يجالس الملوك وينادم العِلْيَة، وقد كان لهؤلاء مجالس شرابهم ولهوهم، فليس ببعيد على من ينادمهم أن يشاركهم.

وقد لحظتَ من غير شك أنني لم أجزم بأن الخيّام كان يشرب الخمرة، ولكني لا اتّفق مع من يجزم بأنه لم يشربها.

إنى لأتصوره أحياناً عائداً الى بيته، متأبطاً بعض كتبه وأوراقه، وقد دسّ محبرته ومقلمته في نطاقه، وهو كئيب النفس ضيق الصدر لما لاقَى من عَنَتِ البيئة ومزعجات الزمان، أو لما انتابه من فكر في الموت أو تبرُّمٍ بالحياة. فإذا هو أراد أن يكتب ويؤلف عكرت عليه الأشجان صَفْوَ قريحته، فيتناول كتاباً ليقرأ فيركبه الغمّ ويستعصي عليه الفهم، فيلجأ إلى إبريق الصهباء يشرب من دمه القاني حتى يثمل وينام.

إشــرب الــراحَ، فــإنّ الــعــمــر يــتــلــوه الــحِــمَــامْ
لــخــلــيــقٌ أن تــقــضّــيــه بــكــســرٍ أو مــنــامْ!

الحسناء

هذا شأنه مع الصهباء، فما شأنه مع الحسناء؟

إن دَوْرَ المرأة في حياة الخيّام لأَخْفى وأعقد. فإنّ ذكره لها في رباعياته لكثير، وإن يكن أقل من ذكر الخمرة. والحق أن مجال التأويل هنا أوسع، فما أكثر مَنْ تغزَّل من الشعراء وتدلّه بلحاظ الحبيب ونهوده وأردافه وسائر مفاتنه. وهو ليس لديه من حبيب ولا نهود ولا أرداف ولا مفاتن. وإن كان عمر الخيّام قد تزوج فالظاهر أنه لم يكن موفقاً في زيجته:

أنــمــا الــراحــة فــي الــدنــيــا، ولــذات الــصــفــاءِ

خُلِقتْ للمطلق الضّارب في كل فضاء!
فإذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد بُدِّل من راحته أيَّ عناء!

ولكن أتراه لم يعشق أبداً؟

هذا أيضاً سؤال تصعب الإجابة عليه. وإن كانت الخمرة فضولاً لا ضرورة لها، فإن المرأة ضرورة موجودة في دم الرجل كامنة في شعوره. فلا بدّ أن يكون لها شأنها في حياة الخيّام، حتى لو لم يكن قد ذكرها في رباعياته.

وأخاله قد أحبّ، مرّة أو مرّات. فما من شاعر في الدنيا لم يعشق، مهما كانت بيئته وظروف حياته. وأما نصيبه من وصال من أحبَّ فأمر آخر.

كانت ظروف البيئة وتقاليد المجتمع تحُول بينه وبين المرأة عن غير طريق الزواج. وأما حُبُّ السُّوق فكان عسير المنال على من كان مثله مكانة وَوَجاهة. فهل أتيح له أن تتصل أسبابه بإحدى الحرائر على الرغم من تعنُّت الرقباء وشدّة نكير العذّال؟ ليس هذا مستحيلاً.

ولو كان عاش في أوروبا لقلنا إنه كان في حياته فسحة للمخادنة واتخاذ العشيقات. ولكن الشرق وسَّع على العزّاب والمحرومين بنظام الرّق والتسرّي الذي كان جارياً في زمانه. فهل كانت له جارية أو جوارٍ مما ملكت يمينه؟ هذا أيضاً أمرٌ نجهله كل الجهل. ولكنني أرجح نفيه، لفقره وعجزه عن شراء الإماء وإعالتهن.

إن الموضوع بكرٌ لم يتصدَّ له أحد من الباحثين الخيّاميين فيما

أعلم، ولعل البحث سيكشف فيه عن جديد. ومهما يكن من الأمر فإني أخال حياته الجنسية لم تكن طبيعية راوية، وإنما كان يغلب عليها الحرمان. وقد أثَّر ذلك من غير مراءٍ في نفسه وأطواره على نحو ما. فلا غرابة أن يكون ضيّق العطن سوداويَّ المزاج، كما يروي الرواة.

وهو يذكر الحبيب في رباعياته تارة بأسلوب يُفهم منه أنه يعني حبيباً بذاته قد تامَ فؤاده، ويذكر الحسناء تاراتٍ بلهجة توحي أنه يقصد أيّ حسناء يجود بها القدر عليه ويلقيها بين يديه. ولعل هذا آية من آيات الحرمان ومظهر من مظاهره.

* * *

ولكن هناك نقطة جديرة بالملاحظة، وهي أنّ معظم ذكر الخيّام للصهباء والحسناء إنما كان في سياق الإفصاح عن فلسفةٍ أو الإعراب عن فكرة. وقد لحظ هذه النقطة كلُّ الذين أرادوا تبرئة الخيّام من تهمة الغرام ومعاقرة المدام. ولكني وقد افترضت أنه ربما شرب الرّاح، وجزمت أنه لم يسلم من عشق الملاح، أُسائل نفسي: بأيّ حق نحرِّم على الخيّام أن يقول بضع رباعيات يفصح بها عن محض شعوره في الحُب أو الشُّرب؟ لقد كان شديد الحسّ، شاعريّ النفس، مفتوناً بألوان الحُسْن - يهيم بالجدول المترقرق، ويشغف بالزهر المتألق. أفيُعقل ألاّ يذهب بصوابه سحر الثغور، وفتنة الجفون، وتمايل القدود، خصوصاً وهو محروم؟ وهل يعقل أن يعبّر عن ذلك كله في سياق الفلسفة، دون أن يقول رباعية واحدة خالصة لوجه الجمال؟

حتى الرباعيات التي سمّيناها معتمدة وردت فيها رباعيات لا فلسفة فيها، خالصة للغرام والمدام. ودَعْك من تلك الرباعية السقيمة التي عددناها مدسوسة على الخيّام، والتي زعم قائلها أنه أقلع عن الصهباء لأن حبيبته قعدت على قلبه.

في هذه المجموعة غزليات خالصة لوجه الجمال تحت عنوان «نخب الحبيب»، وخمريات صرف لذات السلاف تحت عنوان «نخب الأنخاب» ـ تخيَّرتها من بين رباعيات كثيرة من أمثالها. فإن لم تكن للخيام حقاً فاقرأها على أنها ترفيهٌ للخاطر من عناء ما سبقها من فلسفته، وإراحة للأعصاب من وطأة تشاؤمه القاسي.

كهانة وتنجيم

من سوء حظنا وحظ الخيّام أنَّ أقرب الرواة إليه من معاصريه الذين وصلتنا روايتهم عنه هو أحمد بن عمر بن عليّ النظاميّ العروضيّ السمرقندي. وقد كان له تلميذاً وبه معجباً، فأصبحت روايته من أجل هذا تُعَدُّ عند الخيّاميين أوثق الروايات طرًّا. إلا أنه بدلاً من أن يزوّدنا بشيء فيه غناء عن رباعيات أستاذه وعلمه، ومؤلفاته، وأطواره، والخطير من أحداث حياته مما نفتقر إليه أشدّ الافتقار ـ نقل لنا في كتابه «المقالات الأربع» خبرين زعم في أحدهما أن الخيّام تنبأَ بالغيب، وفي الثاني أنه تكهن بالتنجيم!

حكايتان عجيبتان تدعوان إلى الحيرة، فلا تعلم أتكذّبهما أم تصدقهما. وما كان الخيّام..

ولكن إليك الحكايتان أولاً:

الحكاية الأولى ـ «في سنة ستٍ وخمسمائة كان الخواجة (أي السيّد) الإمام محمد الخيّامي والسيد الإمام مظفر الاسفزاري قد نزلا مدينة بلخ في حيّ النخّاسين، في قصر الأمير (بو سعد جره) وكنت متصلاً بتلك الخدمة. وفي أثناء مجلس الصحبة سمعت من حجة الحق الإمام عمر أنه قال: ليكن قبري في موضعٍ تنثر الشَّمالُ عليَّ فيه

الزهر كل ربيع. فبدا لى كلامه هذا محالاً، وعلمت أن مثله لا يقول جزافاً. فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين كان ذلك الكبير قد حجب وجهه بنقاب التراب منذ بضع سنين، وأَصبح منه العالم السفليّ يتيماً. وكان له عليّ حقّ الاستاذية فذهبت لزيارته ذات جمعة واحتملت معي من يدلني على ثراه. فخرج بي إلى مقبرة الحيرة وعرجت يساراً، فشاهدت ثراه تحت حائط بستان، وقد مدَّت أشجارُ الكمثرى والمشمش أغصانها من ذلك البستان، ونثرت من أوراق النَّوْر على ثراه ما غطى ثراه بالزهر. وذكرت تلك الحكاية التي كنت سمعتها منه في مدينة بلخ، فغلبني البكاء، فما كنت رأيت في مكان من بسيط العالم وأقطار الربع المسكون نظيراً له قط. أنزله اللّه تبارك وتعالى الجنان بمنّه وكرمه».

الحكاية الثانية ـ «إني وإن كنت رأيت حكم حجة الحق عمر إلا أني ما رأيته قطّ يعتقد بأحكام النجوم. وما رأيت ولا سمعت من العظماء أحداً قطّ يعتقد بالأحكام. في شتاء سنة ثمانٍ وخمسمائة أرسل السلطانُ في مدينة مرو شخصاً إلى السيد الإمام عمر أن يعمل اختياراً لنذهب إلى الصيد بحيث لا ينزل في بضعة الأيام تلك ثلج ومطر.

وكان السيد الإمام عمر في صحبة السيد وقد نزل في قصره. فأرسل السيّد من استدعاه وأخبره بالأمر. فانصرف واشتغل بذلك يومين وصنع اختياراً حسناً، وذهب بنفسه وأركب السلطان بالاختيار. فلما ركب السلطان وذهب مدى صيحة في الأرض انعقد السحاب

وهبّت الريح وقام الثلج والضباب فضحكوا، وأراد السلطان أن يعود. فقال له السيد الإمام: لتطمئنَّ نفس الملك، فإن السحاب سينقشع الساعة، وفي هذه الأيام الخمسة لن يكون بللٌ قط.

فانطلق السلطان، وانقشع السحاب، ولم يكن في تلك الأيام الخمسة بلل قط، ولم ير أحد سحاباً. إن أحكام النجوم وإن تكن صناعة معروفة إلا أنه لا ينبغي الاعتماد عليها اعتماداً بعيداً، ويجب على المنجّم أن يحيل على القضاء كل حكم يصدره».

ولا بد أنك لحظت السذاجة والغرابة في تعابير راويتنا السمرقندي وتفكك بعض جمله وضعف الصلة بينها ـ في قالبها العربي، ولعلها في نصّها الفارسيّ أسوأ، فقد عُنِيتُ بالوضوح والدقة في ترجمتها لكيلا يفوت القارئ شيء من معناها. وإني أتخذ من هذا أول دليل على سذاجة عقل الراوية وغرابته، وضعف الصلة بين أفكاره، ومن ثم على ضعف روايته. فأنا كما ترى لا أكذّبه، ولكني أكذب روايته فحسب.

زعم لنا في الحكاية الأولى أن أستاذه الخيّام قد تنبّأ بأنه سيُدفَن في موضع كذا صفته. وما أعرف أنّ أحداً من الباحثين حاول أن يفنّد الخبر. أما أنا فلا يستطيع عقلي أن يتقبّل شيئاً من التنبؤ، وأنا يكفيني هذا دليلاً. ولكن لا بدّ من إقناع القارئ أيضاً..

ما كان الخيّام من العرافين، ولا الأولياء ولا الأنبياء. وما عرف الغيب بشر، حتى ولا هؤلاء. وقد جاء في الآية ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان، الآية

٣٤]. وجاء في آية أخرى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٨٨]، وما أبدعها كلمة. فمن كان مسلماً فحسبه هذا!

ولو استطاع عقل الخيّام أن يؤمن بشيء من التنبُّؤ والغيب لكان أحرى به أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر.

ويخيل لي أن الخيّام إنما أراد بكلمته أن يفصح عن مجرد رغبته في أن يكون قبره في موضِع كذا وكذا، فتوهم صاحبنا السمرقندي أنه تنبّأ بذلك. وتقوم خرافته فيما أرى على كلمة واحدة فارسية هي «بَاشَدْ». فهي تعني «فليكن» قياساً، وقد تعني أحياناً «سيكون» على خلاف القياس، وهو الوجه الذي أخذ به الراوية. وإيضاحاً للأمر أحبُّ أن أنقل لك الفقرة الأولى من مقالة الخيّام، بنصّها الفارسي، وتحت كلٍّ كلمة منها ترجمتها العربية:

كَـــور مـــن در مـــوضـــعـــي بـــاشـــد كـــه هـــر

قـــبـــر..ي فـــي مـــوضـــع فـــلـــيـــكـــن بـــحـــيـــث كـــلّ

بـــــــهَـــــــارى.. إلـــــــخ

ربيـــــع..

فإذا أخذنا بالقياس، وهو الأصحّ في الفارسية لغةً، وفي كل اللغات عقلاً ـ «ليكنْ قبري..» فالرجل إنما اشتهى أو طلب أن يكون قبره في موضِع كذا وكذا. فالجملة إذاً إنشائية لا خبرية، وما في الإنشاء تنبُّؤ. ولكن الراوية ظنَّ المعنى: «سيكون قبرى..».

وما أدَّعِي أني أعلم بالفارسية من الخواجة العروضيّ السمرقنديّ،

ولكن ادّعائي أني أعرف منه بالخيّام، ليس إلا. فهو يعتقد أن أستاذه رجل دينٍ وتقوى، فيما يظهر. بهره منه ولا شك من التفقّه في الدين وعلوم القرآن ما بهر شيخَ القرّاء أبا الحسن الغزّال من تفقهِ في القراءات حتى لقال له: «كثر اللّه في العلماء أمثالك! اجعلني من أدمة أهلك وارضَ عنى..» مما تقدّم بنا حديثه. فمن أجل ذلك وما ماثله توهّم الخواجة السمرقندي أنه من الأولياء أرباب الكرامات، فطفق يسمّيه الإمام طوراً وحجّة الحق طوراً. بينا أعرف أنا، ويعرف معي القارئ أن الخيّام كان ملحداً، ويكتم إلحاده عن السمرقندي وعن الكثيرين من أمثاله من تلاميذه وغيرهم من المؤمنين. فهو إنما يعرف من شخصية أستاذه المزدوجة ظاهِرَها، كأكثر عارفيه. ولولا أن العروضيّ قد أغفل كلّ شيء عن الخيّام عدا هاتين الحكايتين، لقلت إن في إغفاله ذكر الرباعيات لدليلاً على جهله بها وبحقيقة أستاذه.

فبعد هذا لا يدهشني أنْ حَمَلَ قالة حجة الحق الإمام عمر محمل الخبر وهي إنشاء. فلما زار ثراه وَوَجده على تلك الصفة لم يعد يخامره الريب في حدوث المعجزة. فبكى، وروَى لنا الخبر!

أما دفن الخيّام في ذلك الموضع فإن لم يكن إحدى الصدف، فأكبر الظن أنه كان بناء على وصيّته. أو لعل بعض أصدقائه أحبّ له بعد وفاته تلبية هذه الأمنية الشعرية التي لعله كرّر ذكرها في مجالس أخرى، فكثر بذلك عارفوها من محبّيه، وحققوها له.

ولولا تعقيب السمرقندي على كلمة الخيّام بقوله: «فبدا لي كلامه هذا محالاً، وعلمت أن مثله لا يقول جزافاً» لكانت الحكاية معقولة

طريفة، نمرّ بها مرّ الكرام، ونشكره على نقلها لنا. ولكان معناها عند راويها كمعناها عندنا: «أمنية شاعر يحبّ الزهور والربيع.. تحققت بالصدفة أو بنحوٍ ما»، ولحمدنا للراوي بكاءه على مثوى أستاذه العظيم. والحق أن وفاءه هذا أجمل ما في حكايته ـ على شريطة ألاّ يكون بكاؤه من باب الخشوع لتوهمه حدوث المعجزة!

ولا أكتم القارئ أن نفراً من الإيرانيين لم يوافقوني على رأيي في تأويل هذا الحديث، وإن كان بعض أدبائهم قد فعل. وقد تراءى لي أن سلطان الرواية ومكانة الراوية هما علّة تردُّد الكثيرين في مشاركتي الرأي، فعمدت إلى الحيلة وجعلت أُهيِّئ عبارةً فارسية تشبه عبارة الخيّام ثم أسأل مَن أسأل أن يخبرني عن مذهبه في فهمها لو وجدها في كتاب قديم، كهذه العبارة:

منزل من در ميان درختان باشد كه
داري في بين الأشجار فلتكن بحيث
در تابستان زير سايه بماند.
في الصيف تحت الظل تبقى.

فكلهم أجاب: «فلتكن داري بين الأشجار... الخ». فإذا أنا أطلعتهم على رواية العروضي السمرقندي، وعرضت لهم رأيي فيها وافقني بعضهم، وخالفني بعضهم منساقين مع الراوية الفارسيّ.

فإذا كنتُ واهماً في تأويلي هذا لم يبقَ لي إلا أن أقول إن صديقنا السمرقنديَّ كاذب. وهذا أمر أستبعده كثيراً، ولهذا أجدني أستبعد كثيراً أن أكون واهماً..

وسواء أصحّ مذهبي في تأويل الخبر أم أخطأ، فأنا لا أصدّق حكاية تنبؤ الخيّام، وهذا كلّ ما في الأمر. ولا على القارئ أن يصدقها إذا هو شاء.

* * *

وأما الحكاية الثانية فهي تنقض نفسها بنفسها، لأن أولها يكذّب آخرها. فقد اعترف راويها أنه لم يَرَ ولم يسمع أن الخيّام ولا أحداً من العظماء آمن بأحكام النجوم. وتعجبني نصيحة السمرقندي التي يختم بها حكايته إذ يقول إن على المنجمين ألاّ يعتمدوا على أحكام النجوم كل الاعتماد، وأن يحيلوا أحكامهم على القضاء. فهو يسمح لهم فيما يبدو بشيء من الاعتماد عليها فقط.

وأنا إلى تصديق الخيّام وعظماء زمانه أمْيَلُ منى إلى تصديق هذا العروضي السمرقندي الذي بكى على ضريح شيخه ظناً منه أن في دفنه تحت حائط البستان معجزةً كبرى.

هذا إلى أنه لم يخبرنا بالمصدر الذي أخذ عنه روايته، فلعله مصدر كأحكام النجوم لا ينبغي الاعتماد عليه كثيراً. وأحسب أنه كان أجدر به أن يحيله على القضاء، بدلاً من توريط نفسه بنقله لنا، وتحييرنا في أمره.

على أن الحكاية إن صحّت لا تدخل في باب التنجيم، وإنما هو ما يسمونه اليوم بعلم «الأنوار الجوية» يتعرّف به الخبراء ما ستكون عليه حالة الجو في المستقبل القريب. ولكن عقل صديقنا العروضيّ السمرقندي، وهو عقل خرافيّ كما يتضح من بعض حكاياته في

مقالاته الأربع، لم يستطع أن يدرك أن علم أستاذه في الفلك والرياضة والطبيعة، قد يجدي نفعاً في التنبؤ بحال الجو، فعزا الأمر إلى «التنجيم» و «الاختيار»، بالرغم من أنه لم ير ولم يسمع أن الخيّام أو سواه من عظماء الزمان كان يؤمن بالتنجيم قط!

ولعل بعضهم قد زعم أن الخيّام تنبأ بصحو الجو لخمسين يوماً مقبلة بدلاً من خمسة، ولكن السمرقندي لم تصله روايتهم فلم يأخذ بها مع الأسف. ولو قد فعل لقلنا من فورنا إنه حديث خرافة، واسترحنا.

إني ترويت في الأمر طويلاً وترددت كثيراً. ذلك أني لم أجد بين الوسائل التي يستخدمها الخبراء اليوم في التنبؤ، من خرائط اتجاهات الريح، وإحصائيات الأنواء للسنوات الماضية، وأجهزة الرصد الحديثة، ما يمكّنهم ـ كلما أرادوا، أو أمرهم السلطان ـ من معرفة صحو الجو لخمسة أيام تأتي، على ذلك النحو الجازم الذي حدثنا به السمرقندي.

ولكن الذي لا شك فيه أن الملاحظة الدائبة قد علّمت الإنسان من قديم الزمان أن بعض حالات الجوّ لا بدّ أن تتلوها حالات أخرى معينة، على وتيرة لا تتبدل، كما يتلو الليل النهار، فإذا لاح أولها كان علامة على دنوّ تاليها. وإن في قصص العرب الأقدمين ما يدل على أنهم، على بداوتهم وجهالتهم قبل الإسلام، قد عرفوا من ذلك ما مكنهم من التنبؤ أحياناً وأفادهم في شؤون حياتهم. وما زال في الشرق اليوم فلاحون وملاحون، من الأميين الذين لا يخطُّون الألِف ولا

يعرفون التنجيم، يستطيعون متى رأوا بعض العلائم أن يتكهنوا بحال الجو ليوم أو يومين، بنظرة قصيرة يسرّحونها في أقطار الفضاء.

ظننت أول الأمر أن حكاية العروضي السمرقندي مبالغ فيها، وأن الخيّام إنما تنبأ بيوم أو يومين على أساس من الملاحظة أو العلم، ثم تزيَّدَ الرواة حتى أصبحت الأيام خمسةً حين بلغ الخبر السمرقندي.

ولكني غيّرت رأيي أخيراً، فقد اكتشفت على غير انتظار أن الخيّام كان خبيراً بعلم الأنواء. ذلك أني كنت أراجع قائمة مؤلفات الخيّام فوجدت بينها عنوان رسالة لم تكن تثير اهتمامي قبل، على خطورتها في هذا الباب وصلتها الوثيقة بحكاية السمرقندي. وهي رسالة «لوازم الأمكنة» ألّفها الخيّام ليشرح فيها تغيُّر الفصول وشرائط تقلبات الجو في مختلف الأمصار. وما ألّف الخيّام شيئاً ليعيد فيه ما عرفه سواه من العلماء وألف فيه، وإنما كان يؤلف حين يأتي بجديد في العلم أو الرأي. ولا بد أنه قد جاء أبناءَ جيله في هذه الرسالة بالطريف القيِّم. فهذا أيضاً يدل على أن شاعرنا الحكيم لم يكن ملمّاً بعلم الأجواء وحسب، وإنما كان متفوقاً فيه. فليس ببعيد إذاً أن يكون قد استطاع التنبؤ للسلطان بصحو الجو خمسة أيام.

ولكن كيف؟..

طفقتُ أتحرى وأسائل كل من صادفت من المشتغلين بالأنواء من شرقيين وغربيين فعجزوا عن تعليل الخبر. حتى اهتديت أخيراً إلى السرّ، وإذا بهذه المسألة العويصة ككل المسائل قبل معرفتها، شديدة البساطة ككل المسائل بعد العلم بها.

إن فترات الدفء في المناطق المعتدلة إذا أعقبتها موجة برد وإعصار دلّ ذلك على قدوم صحوٍ متصل رائق لا تشوبه شائبة، يدوم اياماً قد تبلغ الخمسة[١]. فهذا هو سرّ «تنجيم» الخيّام.

وقد اتفق أن وصل رسول السلطان قبل الصحو بيومين كما يظهر من رواية السمرقندي، فما كان من الخيّام إلا أن جعل يتربص انقضاء فترة البرد، فلما انقضت ذهب إلى السلطان وأشار عليه بالركوب، فتوهم العروضي السمرقندي أن الخيّام كان منهمكاً آناءَ هذين اليومين في التنجيم ورسم الرموز الغريبة الأشكال، وحلّ أسرار الأفلاك، فقال إنه «اشتغل بذلك يومين، وصنع اختياراً حسناً!» وإنه ليروى الحديث بسذاجة الأطفال، حتى ليكاد يوهمك أن الخيّام طفق يشتغل طوال هذين اليومين بما يشبه السحر إلى أن أرغم الطبيعة بتنجيمه واختياره على أن تصحو خمسة أيام كاملة، نزولاً على مشيئة السلطان واحتفالاً برغبته في الصيد. وما كاد يُتمُّ الحكاية حتى ملأه الذعر من هذا السحر، فاستعاذ بالله، ونصح المنجمين أن يحيلوا أحكامهم على القضاء، تخلصاً من شرها.

ولما ركب السلطان «فانعقد السحاب، وهبت الريح، وقام الثلج والضباب» ظن القوم أن الخيّام قد أخطأ حسابه فضحكوا، وهمَّ السلطان أن يعود. ولكن هذا الأمر الذي خيَّب رأيهم في صدق الخيّام هو الذي زاده ثقة بصحة حكمه، فأخبر السلطان بلهجة قاطعة أن

---

(١) توصلت إلى هذه الحقيقة بمعونة المصري السيد اميل فريد، المتنبئ الجوي في مطار فاروق بالقاهرة.

السحاب سينقشع الساعة، وأنه لن يكون في الخمسة الأيام التالية بلل قط. وهكذا كان..

وهكذا تنبأ الخيّام بصحو الجو على أساس من العلم لا تنجيم فيه ولا كهانة.

* * *

أما فردريك روزن فلم يشأ أن يكذّب إحدى الحكايتين. ولكنه بالإضافة إلى تصديقهما علّق عليهما بما يفهم منه أنه اتخذهما دليلاً على أن للخيام في هذا الميدان آيات أخريات.

«كان الخيّام يتنبأ بالغيب أيضاً. ولما كان هذا العلم (!) سابقاً في القرون والوسطى توأماً للهيئة فليس من كبير عجبٍ في إقدام شخص عمر على هذا الأمر. فقد كانت هذه الحال موجودة بعينها في بلاد الفرنجة كذلك، وقد اضطر كپلر الفلكيّ المشهور مثلاً إلى أن يقرأ طالع القائد المشهور ڤالنشتاين سنة ١٦٠٩م المصادفة ١٠١٨هـ، وينبئه بمستقبله. وبيدنا نبذتان صريحتان من تنبؤات الخيّام إحداهما أن السلطان..الخ» ويسرد النبذتين الصريحتين، وهما الحكايتان اللتان رويناهما للسمرقندي آنفاً[١].

ولست أدري كيف هضم عقل الدكتور روزن هذه الرواية العسيرة، ولا كيف قرأ كپلر طالع ڤالنشتاين، ولا في أيّ صفحة من صفحات السماء قرأه. ولو كان في (علم) التنجيم فائدة لما اندثر، بل

---

(١) رباعيات حكيم عمر خيام، ص ٦٠.

لكان ارتقى اليوم وازدهر. ولكن بما أن كلاً من الدكتور المستشرق والفلكي المتنبئ من بلاد الفرنجة، وهي بلاد العلم، فإني أتَهَيَّب مناقشتهما والردَّ عليهما. وأكتفي بأن أذكّر القارئ بأمر واحد، هو أن راويتنا قد نبّأنا بصراحة أيضاً لحسن الحظ أن الخيّام لم يكن يؤمن بالتنجيم. فأنا أظن أن «إقدام شخص عمر على هذا الأمر» بالرغم من عدم إيمانه به يدعو إلى «كبير العجب». ولو كان قد مارسه ونجح فيه هذا النجاح الباهر المزعوم لكان عدم إيمانه به يدعو إلى عجب أكبر!

شخصيته

قال الخيّام في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» الذي وضعه بالعربية، ما نصّه:

«... فإنّا قد مُنِينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلي العدد، كثيري المحن، همُّهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق، وإتقان علم. وأكثر المتشبهين بالعلماء في زماننا هذا يُلبسون الحق بالباطل ولا يتجاوزون حدّ التدليس والترائي بالمعرفة، ولا ينفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم إلا في أغراض بدنيّة خسيسة. وإن شاهدوا إنساناً معنياً بطلب الحق وإيثار الصدق، مجتهداً في رفض الباطل والزور، وترك المراياة والخداع استحمقوه وسخروا منه..».

وما زالت هذه الكلمة الموجزة تفصح حتى اليوم، في الشرق خاصة، عما يكابده العقل الممتاز الذي يطلب العلم لذات العلم، من محنٍ بين من يتشبهون بالعلماء، بما ينالون من شهادات مدرسية يدلّسون بها على الجمهور ويدجّلون، ويتخذونها ذريعة لجرّ المغنم، وتسنمّ المنصب، وإشباع الشهوة، ومكافحة الإصلاح والعلم.

كان الخيّام ذائع الصيت، محترم الجانب، مرموق المكانة، يدنيه

الأمراء والملوك إليهم ويقرّبون مجلسه، عرفاناً لعلمه وفضله. حتى لقد «كان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظّمه غاية التعظيم، يُجِلس الإمام معه على سريره»، كما يقول البيهقي. فكان في هذا المحل الأرفع قادراً على أن يتسنّم ما شاء من المناصب، ويحشد ما اشتهى من الأموال. ولكنه كان مؤثراً للعزلة والدرس، زاهداً في حطام الدنيا، مترفعاً عن خدمة الرؤساء والازدلاف إليهم.

كم تُذِلُّ النفسَ في خدمة أوغادٍ لئامِ؟
تَنتَجِي كلَّ طعامٍ، كالذّباب المترامي؟
كلْ رغيفاً كلَّ يومين، بلا مَنّ الأنامِ
فلأَنْ تطوِيَ خيرٌ لك من خبز الكرام!

إن أصابَ المرءُ في اليوم رغيفاً واحدا
واحتسَى من كوزه المكسورِ ماءً باردا
فلماذا يا ترى يخدمه مَنْ دونَهُ
ولماذا يا ترى يخدم نداً سائدا؟

ولقد مرّ بنا أنه بالرغم من غزارة معرفته في علوم ذلك الدهر آثر التخصص فيما هو أبعد ما يكون عن منفعة مادية، وأملٍ بالحظوة لدى عظماء الزمان، فانصرف إلى خالص العلم من رياضة وفلك. وما عرفنا أنه تكسب بشعره أو بعلمه. وحسبنا من رأيه في المتكسبين الذين سمّاهم «المتشبهين بالعلماء» ما تقدّم بنا من نصّ كلامه.

ويتّهمه بعض القدامى بالضنّة بالتأليف والبخل بنشر المعرفة. وقد دفع المرحوم فروغي هذا عنه دفعاً جميلاً حاراً، فقال: «الحقّ أن التصنيف ليس بالأمر الواجب، وليس التأليف والتصنيف من طبع كل عالم. وأهل العلم يأخذون بهذا الأمر أحياناً إذا دعت الضرورة، وكذلك الخيّام لما ظفر بمعلومات جديدة في فنّ الجبر والمقابلة صنّف كتاباً في هذا الباب، وهو معروف، وهو تراثه العلميّ. وله رسائل أخرى في موضوعات أخرى، كلها جدُّ صغير ومختصر. ويمكن التصديق على العموم أن الخيّام ما كان يحب الهذر، وهذه الصفة إن لم تكن حسنة فهي ليست عيباً. وهي على كل حال لا تدلُّ على بخلٍ وضنّة، إلا إذا افترضنا أن الذين وصموا الخيّام بهذا كانوا مطلعين شخصياً على هذه الصفة فيه»[١].

وليس لديّ ما أضيفه إلى هذه الكلمة الحصيفة سوى أمر واحد، وهو سببٌ آخر دعا الخيّامَ إلى الإقلال من التأليف، لا أدري لِمَ أغفله الخيّاميون وهو أحقُّ شيء بألاّ يغفلوه، لأنه سبب ذكره الخيّام بنفسه بلسان مبين، في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» هذا الذي طالما لهجوا بذكره.

قال الخيّام عند كلامه على المسائل الرياضية التي تصدّى لحلها في كتابه: «... وإني كنت ولم أزل[٢] شديد الحرص على تحقيق

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابوري، ص ٥.

(٢) النص: «وإني لم أزل كنت» وهو فيما يبدو من أخطاء النساخين، ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأصل.

جميع أصنافها، وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل صنفٍ ببراهين، لمعرفتي بأن الحاجة إليها في مشكلات المسائل ماسّة جداً. **ولم أتمكن من التجرّد لتحصيل هذا الخبر والمواظبة على الفكر فيه، لاعتراض ما كان يعوقني عنه من صروف الزمان.** فإنّا قد مُنِينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلي العدد، كثيري المحن، **همُّهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق، وإتقان علم**». إلى آخر ما تقدم بنا.

وإني في الحق لمفتون بلهجته العصرية هذه حين يتحدث عن العلم ويحلُّه هذا المحلَّ الكريم الجليل من نفسه وحياته.

ولسنا نعلم على التحقيق ما هي هذه المحن التي صرفته دهراً عن تأليف هذا الكتاب، ولكن في مقدورنا أن نستنتج من رباعياته وبعض أخباره أنه ابتُلي بالكثير من المتاعب حالت ولا شك بينه وبين تأليف الكثير من الكتب.

لعلّ من هذه المحن خيبته في إنشاء الرصد الذي عهد إليه السلطان ملكشاه بإنشائه، لموت السلطان قبل إتمامه على رواية، وبعد إتمامه على رواية أخرى، فوقف العمل فيه على كلا الحالين، وبقيت حسرته بلا مراء في نفس الفلكي العظيم. ومن كان من طبقة الخيّام نبوغاً وغراماً بالعلم كان الرّصد عنده أعزَّ من المال والولد ـ يرقب به النجوم ويكتشف مجاهل السماء. وإني لأشعر معه بالأسف والكآبة لخيبة هذه الأمنية الرائعة.

ومن محن الزمان كذلك انقراض أهل العلم في زمانه إلا عصابة

قليلة العدد، مع كثرة المشعبذين المتشبهين بالحكماء، ممن يستخفون به وبأمثاله من طالبي الحق ومؤثري الصدق، ويؤذونهم.

ومن محن الزمان أن اتّهمه القوم بالكفر، حتى بلغ الأمر حدّ الخطر فخاف على دمه. ويروي لنا القفطيّ هذا الخبر بأسلوبه المسجوع، حيث يقول: «ولما قدح أهل زمانه في دينه، وأظهروا ما أسرّه من مكنونه، خشي على دمه، وأمسك من عنان لسانه وقلمه. وهجّ متأقاةً لا تقية، وأبدى أسراراً من السّرائر غير نقية! ولما حصل ببغداد سعى إليه أهل طريقته في العلم القديم، فسَدَّ دونهم الباب سدَّ النادم لا سدَّ النديم! ورجع من حجّه إلى بلده يروح إلى محل العبادة ويغدو، ويكتم أسراره ولا بدّ أن تبدو! وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة، به يُضرَب المثل في هذه الأنواع.. لو رزق العصمة».[1]

وقد تعمّدت هنا إثبات الفقرة الأخيرة مع أنها لا صلة لها بسياق حديثنا، لأدل على ما سبق أن نوّهت به من أن القوم كانوا يقرُّون له جميعاً بالعلم والتفوق، حتى من خالفه منهم في الرأي والعقيدة. وهذا إنصاف وفضل نذكرهما لأسلافنا بالإعجاب والثناء، فهم بالرغم من فرط تعصبهم أكرم نفوساً من أبناء جيلنا ممن يجرّدون خصومهم، السياسيين مثلاً، من كل فضيلة ومكرمة.

لقد اضطر الخيّام إذاً إلى تجشم عناء السفر لكي يحجّ، وإلى

(١) القاضي أكرم جمال الدين القفطي، «تاريخ الحكماء» الذي تم تأليفه بين سنتي ٦٢٤ و٦٤٦ هـ.

الانقطاع عن صحابته الذين تألفهم نفسه ويحنُّ إلى مجالستهم ومحادثتم عقله. فكان الرجل في هذه الحقبة قلقاً مضطرباً، يعاني وحدة النفس وسجن العقل. وتهمة الزندقة في ذلك العصر أشبه بتهمة الشيوعية اليوم، في اسبانيا الفاشيّة مثلاً. فيا لها من محنة...

إن الخوف على حياته إن كان أزمة عابرة ابتلي بها حيناً من عمره، فإن الحجر على تفكيره والعجز عن إعلان رأيه، والاضطرار إلى تزييف شخصيته بالظهور بين الملأ على خلاف حقيقته، أمرٌ لازمه طيلة حياته العقلية. وهذا شديد على من كان مثل الخيّام حريةَ فكر ورهافةَ حس، فكان الأمر ولا شك يكرب صدره ويزعجه. وقد أفصح المعرّي عن نفسه وعن الخيّام، وعن أمثالهما من الكاتمين آراءهم عن أبناء جيلهم، بقوله:

أهوَى الحياة، وحسبي من معايبها ... أني أعيش بتمويهٍ وتدليسِ
اكتم حديثك لا يشعُرْ به أحدٌ ... من رهط جبريلَ أو من رهط إبليس!

ولعل الخيّام أراد أن يشكو هذه الحال حين قال:

رب سرٌ لستُ أستطيع له في الخلق فضحا
فاستمع موجَزَ قولي، ولا تسلني عنه شرحا
آه من حالٍ أراني عاجزاً عن وصفها
آه من سرٍ طواه القلب، لا يقبل بَوْحا

والحق أن له رباعيات كثيرة طافحة بالشكوى المرة، والتشاؤم القانط، والتبرم بالحياة.

هو عيشٌ يتولّى بعضُه في إثْرِ بعضِ
فتأمَّل كيف يمضي العمرُ بالحزن الممضّ
إنني لم أعرف الغبطةَ والراحة عمري
فسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتي وتمضي!

قد نزلنا هذه الدنيا بطاءً مذ نزلنا
وانحططنا عن عُلَى الإنسان فيها، وذللنا
وحياةٍ زوّدتنا غيرَ ما كنّا أمَلْنا
ليتها كانت تولَّتْ، فلعمري قد ملَلْنا!

أجِدُ العالَمَ غمّاً دائماً، والدهر غولا
وأرى الأفلاكَ آفات وظلماً وكُبُولا
كلما فكّرت في الدنيا أرى المرتاح فيها
ليس موجوداً، فإن كان فقد كان قليلا!

لكأنّ كل واحدة من هذه الرباعيات جمرة نار!

ويبدو أن الخيّام خُلِق بطبعه متّقد العصب حادَّ المزاج، فإلاّ يكن كذلك فقد كفلت له المصائب ذلك. ويبدو أيضاً أنه خلق بطبعه متشائماً كالكثير من العباقرة، فإلاّ يكن كذلك فيكفي ما عاناه في حياته من آلام نفسية أن يجعله واحداً من أشدّ الناس تشاؤماً.

وقد ذكره بعضهم بضيق العطن وسوء الخلق. فأما ضيق العطن فظاهرٌ أمره، وأما سوء الخلق فلم يذكروا لنا حادثة معيّنة نفقه منها

قصدهم به. ولا شك عندي أنهم لم يقصدوا لؤم الطوية وخسة النفس، وإنما هي حدة مزاج على الغالب لا بد أن تبدر منه مع البلداء المماحكين والسخفاء، وكثيرٌ ما هم. والمعرّي على سماحة خلقه ودماثة طبعه، وافتخاره بالترفع عن الهجاء، لم يتمالك نفسه من أن يهجو، يوم دخل عليه رجل يُدعَى أبو القاسم فتلا الآية ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٧٢]، فاستاء منه وهجاه. والظاهر أن الخيّام كان مبتَلَى بأمثال أبي القاسم هذا من ذوي القحة والبلادة. قال في إحدى رباعياته:

أفتبغي أنت أن تعرف ما نار الجحيم؟

هي في الدنيا لعمري صحبة الفَدْمِ اللئيم

وما في هذا المعنى جدة ولا طرافة، ولكنها نفثة مصدور.

والحق أن العباقرة على العموم يضيقون بالناس على العموم، ويؤثرون الإقلال من المعارف والأصدقاء ما استطاعوا. فإن كثرة الخلطة وتشابك العلائق يضيّع عليهم أوقاتهم التي يؤثرون إنفاقها في التأمل والدرس من جهة، ويخلق لهم من المشاكل ما هم في غنى عنه، ويعرضهم لسماع ما لا يحبون أن يسمعوا وقول ما لا يعجبهم أن يقولوا، وعمل ما قد يسوؤهم أن يعملوا، من جهة أخرى. ولا سيما من كان كالخيّام ذي مزاج خاصّ وآراء خاصة وتفوُّق في التفكير خاص، فنأى ذلك به عن ملاءمة الناس ومجاراتهم.

وقد كان مستطار الشهرة معروفاً في الآفاق حتى لقد اجتمع عليه أهل طريقته لما حلَّ ببغداد، كما ذكر القفطي، ولكنه كان عزوفاً عن

الشهرة محباً للعزلة. وليس غريباً أن يعتزل سائر الناس ما دامت ظروف البيئة اضطرته إلى اعتزال من يأنس إليهم من أصدقاء عقله.

ألسَّعيدُ الحقُّ من لم يكُ معروفَ المكانِ
لم يَصِرّ في فوطةٍ، أو جُبَّة، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء، قد طار عن الدارَيْن طرّاً
لم يكن مثليَ بُوماً بين أطلال الزمانِ!

وإن كان الخيّام قد ذاق الرفاهة شيئاً في بعض فترات من حياته فقد كان فقيراً قانعاً على الجملة.

إذا قنعت نفسي بميسور بلغة
تحصّلها بالكدُّ كفّي وساعدي
أمنتُ تصاريف الحوادث كلّها
فكن يا زماني مُوعِدي أو مُوَاعدي!

ولعل الفاقة ألحّت عليه أحياناً، فكان يعجز أن يحصّل بالكدّ حتى ميسور البلغة. ومن كان مثله أنفةَ كان خليقاً أن يعاني طول العوز والإدقاع. فكان من أجل هذا يتحسّر حيناً على المال، ويثور أحياناً على الدهر الجائر يغدق النِّعَم على الجهلة الأوغاد ويضطهد العلماء الأحرار.

ليست الفَضَّةُ في الدنيا بذخر الحكماءْ
بيد أنّ العادمي الفضَّةَ فيها سجناءْ!

* * *

يا زماناً بأفاعيل يدَيْه يعترفْ

وهـو فـي زاويـة الـجـور مـقـيـمٌ مـعـتـكـفْ
تـسـبـغ الـفـضـلَ عـلـى الـوغـد وتُـؤذِي مـن أَنِـفْ
أنـت لا تـخـلـو مـن اثـنـيـن : حـمـارٍ أو خَـرِفْ!

آه لـو كـنـتُ عـلـى الأفـلاك ربّـاً فـي سـمـائـي
لـمـحَـوْتُ الآن هـذا الـفـلـكَ الـضَّـخـمَ الـبـنـاءِ
ولأنـشـأتُ بـنـفـسـي مـن جـديـدٍ فـلـكـاً
يـدرك الأحـرارُ فـيـه مـا اشـتـهـوا، دون عـنـاء!

وكأنه أراد في هذه الرباعية الأخيرة أن يبنيَ المدينة الفاضلة وينشئ فيها المجتمع الأمثل. وليته كتب لنا بشيء من التفصيل عن هذا الفلك الفاضل الذي كان يودّ إنشاءه لنرى طريقته في بنائه بحيث يدرك الأحرار فيه ما يشتهون، بغير عناء ـ كما كتب بعض فلاسفة الشرق والغرب من عهد أفلاطون. وإخال أنه لولا خوفه نقمة رجال الدين والسياسة عليه لفعل.

❋ ❋ ❋

كان الخيّام عالماً كلّ عالم، فنّاناً أيَّ فنان، شاعراً، مرهف الحسّ. ومن كان على شاكلته من الرجال كان سريع الانفعال، كأنَّ في عصبه مكبّراً للحسّ مثل مكبّر الصوت، يضخّم له الهموم. ومن هنا كان الفنانون أقدر على التعبير من سواهم، لأن إحساسهم بمؤثرات الأشياء أعظم من سواهم.

فلا غرو أن تصرفه الأشجان المكبَّرة عن الدرس والتحقيق،

وتقعد به عن التأليف، حتى أصبح همّه كما يقول افتراص غفلات الزمان. ولا غرو أن يقول:

إسقني الجِريالَ شقراءَ بلون الأرجوان
أيها الساقي، فإني ضاق بالهمِّ جناني
إسقنيها تسلبُ العقلَ ولو بعضَ أوانِ
علّني أذهلُ عن نفسي وأحداثِ الزمانِ!

وكان لحسن حظه ذوّاقةً للجمال، مغرماً بالطبيعة من زهور وربيع ومياه. فكان له في متاعها عوضٌ عما زهد فيه من متاع الدنيا. وقد تمنّى كما رأينا أن يدفنوه في مكانٍ تنثر الشَّمالُ فيه الزهرَ على ثراه، كأنه لم يشبع من الزهر في حياته فأراد أن يستمتع به ولو من تحت التراب. وهذا كثير من الخيّام، وهو مَن نعلم إنكاراً للحشر وايماناً بفناء الروح.

والواقع أنه ما يفتأ يذكر من مفاتن الطبيعة هذه الأقانيم الثلاثة: «الماء والخضراء والوجه الحسن» بأسلوبه الخاص. وقد يضيف السمَّاع أحياناً وديوان الشعر حيناً. فهو مؤمن باللذة الإيجابية في دعوته إلى الاستمتاع بمسرات الحياة، وإن كان يُفهَم منه أحياناً أنه يَعدُّ اللذة متعة سلبيَّة هي مجرّد إسكات الألم، على المذهب الذي انتحاه المتشائم الألماني الكبير شوبنهاور ـ بعد الخيّام بقرون.

وقد جعله تشاؤمه المفرط ساخراً كبيراً، كما جعل شوبنهاور كذلك، فقد كان كلاهما يستخرج الفكاهة المضحكة القاسية من آلام نفسه، ويسخر.

فلسفته

فلسفة الخيّام هي بيت القصيد في هذا البحث، والزبدة من هذا الكتاب، لأنها موضوع هذه الرباعيات التي أُزجِي ترجمتها إليك. وهي مزاجٌ من الفلسفة اليونانية، ومن العقائد الباطنية القائمة على الجدلية الإلحادية، ومن نزعات القرن الخامس الهجري، ومن شخصية الخيّام. وما بى حاجة الى التوسّع في وصف عقلية ذلك العصر، فمن شاء فليرجع الى التاريخ لتفهّم ما راج فيه من تزلزل العقائد وتضارب المآرب والأفكار، في الإمبراطورية الإسلامية.

ولا شك في أنه تأثّر في الكثير من أفكاره بأبي العلاء المعرّي. فقد وُلِد حكيم نيسابور في شيخوخة حكيم المعرّة، الذي كان صيته يومذاك قد طبق الآفاق وأشعاره تسير بها الركبان، ومات بعده بنحو سبعين عاماً. وكان الخيّام يقرأ الأدب العربيّ، ويحفظه ويرويه، فلا يعقل أن يهمل منه أدب المعرّي وهو أقرب إلى روحه وطراز تفكيره. وإنّا لنجدُ بعض رباعياتٍ للخيام وكأنها ترجمة لبعض أشعار أبي العلاء[١].

---

(١) سنذكر في آخر الكتاب من شعر المعرّي بعض ما يشابه رباعيات الخيّام (المشار إليها بهذه العلامة ﴿﴾)، لكي تتاح للقارئ فرصة المقارنة بين تفكيري الفيلسوفين.

وليي على تأثُّر الخيّام بالمعرّي دليل غير دامغ، ولكنه لا يخلو من وجاهة، ولعلك لاحظته معي. وهو انتهاج الخيّام طريقة المعرّي حين التزم ما لا يلزم في قافية المقطوعتين الأوليين من شعره العربيّ الذي مرَّ بنا آنفاً. ومن يدري، لعله انتوى أن يؤلّف كالمعرّي ديواناً من اللزوميات، ثم أقلع.

وقد وجدتُ في اللزوميات مقطوعة للمعرّي مطلعها:

خـطـوبٌ تـألّـتْ لا يـزال مـعـذّبـاً
أخـوهـا، وحـلّـتْ كـلَّ كـفٍ وسـاعـدِ

وهي تتفق في الوزن والقافية مع مقطوعة الخيّام العربية التي مطلعها:

إذا قـنـعـتْ نـفـسـي بـمـيـسـور بُـلـغـةٍ
تـحـصّـلـهـا بـالـكـدِّ كـفّـي وسـاعـدي...

فأنت ترى أن الخيّام لم يكتَفِ في محاكاة المعرّي بالتزام حرفى العين والدال في مطلع مقطوعته كما فعل في سائر أبياتها، وإنما التزم فيه كلمتين. وقد يكون هذا من توارد الخواطر، وقد لا يكون. وليست هذه المقطوعة من خيرة شعر المعرّي لنقول إن الخيّام أُعجِب بها فاحتذاها، ولكنى لا أستبعد أن يكون جَرْسُ القافية قد علق بذهنه، فعارضها من حيث لا يدرى.

على أنى لا أقصد أن الخيّام سرق أفكاره من المعرّي أو اقتبسها منه، غير أنه من المعقول جداً أن يكون قد تأثّر به كما يتأثّر كلُّ مفكرٍ بمن يشاكله ممن سبقوه.

وكان كلّ من الشيخين يمتاز على صاحبه في ناحية ويتخلّف عنه في ناحية، فالخيّام أشعر والمعرّي أفكر. شعر المعرّي منطقٌ وتفكيرٌ يكاد يخلو من شعر وطلاوة، ومنطق الخيّام وتفكيره في رباعياته يكاد يسيل طلاوة وشعراً بالقياس إلى صاحبه. وأحسب السبب يرجع إلى الآفة التي ابتُلِيَ بها شيخ المعرّة منذ صباه، فقد كان ضريراً لا يرى إلا بعين عقله وخياله، فلم يلطّف سحرُ الطبيعة من أسلوبه ما لطّف من أسلوب الخيّام الذي كان جشع الذوق فما يشبع من مشاهد الجمال. يضاف إلى هذا أنّ حكيم العرب كان عازفاً عن المرأة والخمرة، وهما مع الطبيعة مدار الشعر والسحر في رباعيات حكيم الفرس.

انظر إلى قول المعرّي:

سِرْ إنِ استطَعتَ في الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ

وانظر إلى قول الخيّام في نفس المعنى:

يا لَزهرٍ مُونِقٍ رفَّ على شِطْءِ الغديرِ
أتراه قد نما فوق خدودٍ وثغورِ؟
فتيقَّظ، لا تَطَأْهُ باحتقارٍ وغرورِ
فلقد أينع من تربة وجهٍ كالزهورِ!

ولكن المعرّي كان أوسع آفاقاً في فلسفته وأكثر تفاصيل. والعلة فيما أرى نفس العلة الأولى، فقد كان الخيّام مشاركاً في كل العلوم، ومنها ما لا يقدر عليه إلا المبصرون، من فلكٍ ورياضةٍ وطبٍ وكيمياءٍ وغير ذلك من علوم الطبيعة. فكان نشاط عقله موزَّعاً لا يستطيع أن

يحبسه على الفلسفة وحدها. ومع هذا فلا شك أنه كان يعرف ويتناول في أحاديثه مع صحبه وفي محاضراته على تلاميذه من مواضيع الفلسفة ما لم يفصح عن شيءٍ منه في رباعياته. فالرباعيات ليست سجلّ فلسفته، وإنما هي كما قلنا قبلُ خطراتٌ عابراتٌ، قال فيها ما ضاقت به نفسه فلم يجد بدّاً من قوله مما يتّصل بنفسه اتصالاً مباشراً من الأفكار. فأما ما ترك ذكره منها فأكثر بلا مراء. وهو يقول إن خوفه نقمة الجهالة كان سبب الكتمان.

جَزِعَ الدهرُ علينا مذ رحلنا وقنطْ

أن ثقبنا دُرَّةً من مائةٍ فيه فقطْ!

لهف نفسي، كم أُلوفٍ من معانٍ في السَّفَطْ

حَالَ عن إعلانها بالناس جهلٌ وشططْ!

ولكن يلوح لي أنّ خوفه جهالة الناس لم يكن السبب الوحيد الذي حالَ دون إعلانه ألوف المعاني، لأنه أعلن في رباعياته في الواقع أشدَّها وقعاً على أبناء جيله وتحدِّياً لعقائدهم من كفره وتجديفه - لا لشيءٍ سوى أن هذه العقائد كانت تواجهه أنَّى ذهب، وتتحدّاه،. ولكنه إنما أغفل من مواضيع الفلسفة ما لا يمسّه ويضايقه. والظاهر أنه قصد بهذه الرباعية أنه لم يستطع تفصيل هذه المعاني في كتبه، وإنما نوّه بها إجمالاً في رباعيات سائرة تتناقلها الأفواه، ويسعه التنصل منها وإنكارها متى دعت الضرورة. ولا كذلك الكتب.

وأما المعرّي فقد كان حبيس الثلاثة من سجونه، يملك من الوقت فراغاً كبيراً لا يدري كيف يملأه. فكان من أجل هذا يتسلّى

بألفاظ اللغة يلعب بها، وبالتزام ما لا يلزم في قوافيه يروض به ذهنه[1]. وعلى هذا النحو الغريب القاسي جعل يكسب عصارة أفكاره وتأملاته وشتى ملاحظاته في قوالب العروض.

ومهما يكن فإننا إن أردنا استنباط فلسفة الخيّام والإحاطة بها لم نجد مصدراً نستمدّ منه غير هذه الرباعيات. فإن الذي كتبه نثراً لعامة القراء لا يعوَّل عليه، لأنه كان يراوغ فيه ويموِّه. وأما هذه الرباعيات فقد افترضنا أنه كان ينظمها لنفسه ويقرأها على من يطمئن إليه وحسب. فهي لذلك تمثل فلسفته وآراءه أصدق تمثيل.. وإن كانت ناقصة.

فكيف نستخلص هذه الفلسفة من هذه الرباعيات؟

وجدتُ بين يديَّ ركاماً منها مختلف الألوان متعدّد الأغراض، فبعضها يدعو إلى الزهد في الدنيا والعزوف عن زخارفها، وبعضها يدعو إلى الانغماس في لهوها واختطاف ملذاتها. وبعضها كفر، وبعضها غزل. وبعضها ذكرٌ للموت وتذكيرٌ به، وبعضها تناسٍ له ودعوةٌ إلى تناسيه. وبعضها ادِّعاءٌ بالمعرفة الشاملة، وبعضها إقرار بالجهل الشامل، وتقريع للمدعين بالمعرفة، وسخريّة منهم.

فما قوام فلسفته وجماع آرائه من هذا الخليط العجيب؟

كنت أقلّب وجوه الرأي وإذا بفكرة تومض في خاطري، فتراءت لي هذه الرباعيات المتنافرة وكأنها أوصال تمثالٍ رائعٍ قد تحطم

---

(١) كشف عن هذه الناحية الدكتور طه حسين باشا في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه».

وانتثرت شظاياه. فهذي كفٌّ تختلف عن الركبة، وذاك فمٌ يباين الأذن، وذلك أنفٌ لا يشاكلُ العنق. فلو جمعتُ شتات هذا التمثال على نظام، ووصلتُ بين أجزائه على نسق، فوضعتُ كل شيء منها في مكانه، لصنعت منها هيكلاً تامَّ الخلقة، منسجم الأعضاء، ففعلت.

وإذا بالرباعيات كتاب متَّسق التفكير، له مقدمة وله نتيجة. يتألف من فصول يتّصل كلُّها بما قبله ويؤدّي إلى ما بعده. وإذا بهذا التناقض الظاهري أشبه بما تجده في كتاب تُفَرّقُ صفحاته ثم تجمعها على غير ترتيب وتقرأ، فيختلط عليك الأمر.

وبديهيٌّ أن الخيّام لم يكتب رباعياته على هذا الترتيب الذي اصطنعته ولا على أيّ ترتيب سواه، ولكني وجدت تنسيقها على هذا النحو لا مناص منه لابراز فلسفته.

وقد لخَّصتُ هذه الفلسفة مستنبطةً من الرباعيات فيما سميته «فهرس الثورة» أوضحتُ فيه الصلة بين أجزاء الكتاب وفصوله.

فإلى الفهرس إذاً...

فهرس الثورة

١ ـ ثورة على المجتمع

كان الخيّام كسواه من المفكرين المتشائمين، ولا سيما ذوي الأمزجة الفنية الحادّة، ساخطاً على المجتمع. ينعى على أبنائه انحطاط مداركهم، وإنكارهم على العالِم أن يعلن عن آرائه مما لا تفقهه عقولهم. وكان يحتقر أخلاقهم ويضيق بصداقاتهم وبعشرة الأغبياء اللؤماء منهم خاصة. وكان ينقم على المجتمع سيئته القديمة الكبرى من الترفيه على كل جاهل أرعن من أبنائه وحمايته، والتقتير على كل عالم حرّ، وإيذائه. فأنِف من السعي إلى حشد المال صوناً لعزته، مؤثراً للقناعة بكفاف العيش. وترفَّع عن خدمة العظماء، وسخر من حرصهم ومتاعبهم التي يضيقون بها، ولكنهم مع ذلك يحتقرون من لم يكن حريصاً مثلهم. وتعجَّب للحاكمين لِمَ يستخدمون مَنْ دونهم، وللمحكومين لِمَ يخدمون أندادهم؟

فزوى وجهه عن الناس، وتقشف.. وثار على المجتمع.

٢ ـ ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

لقد ضلَّ الناس سواء السبيل ولا شك لأنهم لم يتّبعوا هداتهم ومرشديهم. وكان الهداة المرشدون في تلك العصور هم رجال الدين. فالقَى عليهم نظرة فاحصة، فألفى أكثرهم جهلةً دجّالين، يتّهمون بالكفر والفلسفة كل من تفكر في كنه نفسه أو تدبَّر في خلق السموات والأرض. وسخر من ضيق أذهانهم، يشاحنون من تأمّل في قدرة الصانع وصنعته من أهل النظر، وهم منهمكون في أحكام الحيض والنجاسات. ثم يتبجَّحون بالزهد وهم أشدّ تهالكاً على الحطام الفاني، وينهون عن شرب الكأس ثم هم يشربون دم الناس. ويلزمون المحراب رياءً وغروراً ثم يبيعون دينهم من وراء ستار الزهد والتقوى.. فثار على الدجالين من رجال الدين.

٣ ـ ثورة على الدين

إنهم ضلّوا وأضلوا. ولو قد اتّبعوا الدين الذي باسمه يعملون ما يعملون لاهتدوا وهدوا. فما هو الدين إذاً؟ نظر الخيّام إلى الدين نظرة رياضية صرفاً، وكأنه كتاب في الجبر والمقابلة. فجعل لا يأخذ إلا بالدليل، ولا يخرِّج إلا بالقياس. فرأى الدين يحرم العاصيَ من الجنة، وهو يعتقد أن الناس كلهم عصاةٌ[1]، فاستنتج أن الجنة ستظلّ خاويةً على عروشها. ووجد أنّ ثواب الطاعة هو الحور والخمور، فتساءل لِمَ نحرِّمها على أنفسنا هنا وهي العاقبة المرتجاة، ولعلنا لا

---

(١) الرباعية ٣٢.

نظفر بها، هناك؟ فأنكر الثواب وأنكر العقاب. وانتهى إلى أن الجنة والنّار واللّوح الذي سُطِرت فيه مصائر الإنسان كامنة في نفس الإنسان، لا وجود لها في خارجه، فهي من أوهامه وصنع خياله. وارتأى أنَّ على المرء أن يصنع الخير ولا عليه بعد ذلك أن يخرج على الدين، ويُحِلَّ لنفسه ما اشتهى من محرماته. وجحد الحشر بعد الموت.

وطفق يناقش هذا وأمثاله من مسائل الدين فأنكرها.. وثار على الدين.

٤ ـ ثورة على السماء

ذلك أن عقله لم يطمئنّ إلى أنه الدين الحق.

والدين الحق هو الدين المنزل من السماء طبعاً، فلا بدّ لمعرفته والاهتداء إليه من معرفة السماء أولاً.

رفع الخيّام بصره إلى السماء فصدمت عقلَه قبل كل شيء مسألة القضاء والقدر. فقد خُلق الإنسان ولا خيرة له في خلقه. وخُلِقت معه أهواء وآمال، فإذا هو جرى مع أهوائه وتعلّق بأهداب آماله حوسب على ذلك وعوقب. وقد قدَّر اللّه عليه أن يفعل كذا ثم نهاه عن فعله، وخلقه شريراً ثم أراد منه أن يكون خيّراً. وإن لم يكن اللّه قد قدَّر عليه فعل الشرّ فقد كان يعلم منذ الأزل أنه سيفعله، فلو امتنع الإنسان عن فعله لما كان علم اللّه علماً.

ثم راح يناقش صفات اللّه. فهو كريم، فلِمَ يبيع الجنة بالطاعة؟

وهو ربٌّ، إذا جازى عبده على السوء بالسوء فما الفرق بينه وبينه؟ وهو رحيم، فلِمَ يعذِّب؟ ويتمسّك الخيّام بالرحمة فيقول إنها إنما يستحقها المذنبون، لأن المتقين لا يحتاجون إليها، فليذنب إذاً لينعم بها. واللّه خيِّرٌ محضٌ، وليس عند الخيِّر سوى الخير، فلا تخشَ العاقبة إذاً! وهو واسع المغفرة، فليَتَمادَ الخيّام في المعصية طوال حياته، ليرى أيهما أوسع ـ معصيته أم مغفرة اللّه؟

وهكذا يمضي في مناقشاته حتى يدور رأسه، ويقرّ بعجزه وعجز أعلام الورى عن معرفة ذات اللّه. ويسترسل في إنكاره حتى يقول إن هذه السماء العالية، بأجرامها الزاهية، قد حيَّرت أفهام الباحثين. لهذا فهو ينصح بالتمسك بالعقل، لأنه لا تدبير في السماء... وهكذا ثار على السماء.

٥ ـ ثورة على الدهر والأفلاك

فمَن المدبِّر إذاً؟ أهو الدهر؟ كلا. فالدهر جائر يغدق نعمته على كل نذل لئيم، وينزل نقمته بكل حرٍ كريم، فهو إمّا حمار وإمّا خرف! أهو الفلك إذاً؟ كلا أيضاً. فالفلك كالدهر في جوره وحمقه. ولو كان الخيّام ربّاً لمحق هذا الفلك، ولأنشأ فلكاً آخر ينال الأحرار فيه ما يشتهون. فلا تحيلوا على الأفلاك خيراً ولا شراً، فهي أعجز منكم ألف مرة. ولقد أخبره الفلك بذلك حين همس في أذن عقله يقول: أنا لو كان دوراني بفأمري لأرَحْتُ نفسي من التجوال والدوار.. وهكذا ثار على الدهر، وثار على الأفلاك.

٦ ـ هل مِنْ مُنَازِلٍ؟ (ألغاز الوجود)

فيا ويح الخيّام إذ ينتهي إلى هذه النتيجة، ويعود من بحثه صفر اليدين، قانطاً ساخطاً على الأرض والسماء. مَنِ المسؤول إذاً عن هذا الوجود الهائل ليتَّجه إليه الخيّام ويناقشه الحساب، ويثور عليه إذا دعا الأمر؟ مَنْذا يخبره فيم جاء إلى الحياة، ومن أجل ماذا سيفارقها؟ بل من أين جاء وإلى أين سيذهب؟ وما هي حال الذاهبين يا ترى؟ وأنتَ يا هذا الروح من أجل ماذا حلَلْت هذا البدن، ما دمت سترحل بعد حين؟ وما كان قصدُ نقاش الأزل لما خلقني وأحسن صورتي ثم ألقاني على المسرح، في مَلْهَى التراب؟ ثم ما باله يهلكني بعد ذلك ويفنيني، كأنه الخزاف يتأَنَّقُ في صنع الجام ثم يضرب به الأرض؟

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه وما نهايته؟ كيف شرع الفلك يدور كأنه الطاس الذهبيّ؟ وكيف سيندثر وينهار وكأنه البناء الشامخ؟

ألغاز تحيَّر فيها الخيّام.

٧ ـ ثورة على العقل

منذا يحل له هذه الطلاسم؟ العقل؟.. الحقُّ أنه بعد أن ثار على كل شيء، وجحد كل شيء، لم يَعُدْ له ما يلوذ به ليأخذ بيده في هذا الليل الداجي سوى العقل. فلو كان آمن بالدين لتلمَّس الجواب على هذه الأحاجي لدى الدين، ولو كان آمن بالله واليوم الآخر لفوَّضَ أمره إلى الله واصطبر إلى اليوم الآخر.

ولكن سرعان ما خاب أمله في هذا العقل الضئيل المسكين، فقد

طفق يتلفتُ ويتطلع فلم يفقه مما حوله شيئاً. أنه لم يدرك من العالم إلا تشبيهاً: الكون فانوسُ خيال، مصباحه الشمس، ونحن نتسكع فيه كالصُّوَر! أما ما قال القائلون، وادَّعى المدَّعون، فكله هراء وظنون. وأما الحقيقة فلم يدركها أحد.. الأستاذ في ذلك كالمبتدئ. وأما الذين توهَم الناسُ أنهم محيط العلم ومصابيح الهدى، وأنهم ثقبوا دُرَّ المعاني، فإنما قصُّوا أساطير ولفّقوا خرافات.. ثم ناموا. فيا لأسرى العقل والتمييز، ما كان نصيبهم إلا أن هلكوا في حسرة الموجود والمعدوم. وما كان جهدهم إلا كجهد من يحتلب الثور! ويا ضلّةَ العقل، ما أبخسه. إنه اليوم لا يُبَاع به ضغثٌ من كراث!

لقد توسَّعتُ في كل معرفة، ووغلتُ بعقلي على كل شرّ، حتى لعلمتُ كلَّ معلوم. بيد أني اليوم وقد نيَّفتُ على السبعين، راجعت عقلي فعرفت أني لم أعرف شيئاً قط.

فاطلب الجهل إذاً أيها العاقل، بدلاً من طلب العلم. أما الجاهل الحقّ فهو من لا يدرك الجهل!

٨ ـ الموت في الميدان (فناء البقاء)

هنا، في هذه الحيرة القانطة، والقلق القاتل.. يتراءى من وسط الظلمة الطاخية الموحشة شبحٌ هائل مروِّع، ينعقد لرؤيته لسان الخيّام، وتنسدُّ عليه مسالك الحيلة، ويتعطَّل التفكير. شيء لا كالأشياء. جبّار، مخوف، يلتهم كل شيء.. هو الموت!

إنه يلتهم الناس أفراداً وجماعات، والقصور والقبور. ويأتي على

الأفكار والآمال والأعمال. ويطمس الخير والشر، والبؤس والنعيم، فلا يُبقِي على شيء.

فما الحيلة؟ لا حيلة. وأين المفرّ؟ لا مفر.

صار شبح الموت يتمثّل لعيني الخيّام حيثما التفت. فهذا جسدك كان طيناً لأجساد الغابرين، وسيصير طيناً لأجساد الآتين. وهذه حياتك ليست إلا موتاً، ففي كل ليلة يموت منها يوم. ولتأكلنَّك الأرض، فإن كان غرَّك أنها لم تأكلك بعدُ فاصطبر، فما فات الأوان.

الموت، الموت. في كل مكان وفي كل زمان، وفي كل شيء. أصبح الخيّام يرى الأجساد في كل جماد. يمشي على الأرض فيشفق أن يطأ العيون الناعسة والثغور اللعساء، ويضع شفته على جام المدام فيتوهَّم أنه يقبّل شفة كاعب حسناء، تكلِّمه وتذكّره أنها كانت مثله. ويرفع بصره إلى شرفات القصور فيرى في لَبِنَاتها كفَّ مليك أو رأس وزير.

إذا وقعت عينه على كوز قال إنه إنسان باعتبار ما كان، وإذا بصر إنساناً قال إنه كوز باعتبار ما سيكون. وإذا شاهد الوجه الجميل تذكّر انه سيُدفن في التراب فتنمو منه الزهور، وإذا نظر إلى الزهور قال إنها نَمَتْ من الوجه الجميل.

وربَّ طينٍ يركله الإنسان بقدمه فيسمعه الخيّام يقول مستعطفاً: «لقد كنتُ مثلك، فارعَني!» أو مهدِّداً: «مهلاً، فلتذوقنَّ الركل مثلي!». فيا ويح الخزّافين يصفعون الطين ويلكمونه غافلين، وما يدرون أنه تراب الآدميين.

انظر إلى هذه الوردة الرائعة، تستيقظ مع الفجر وتقصُّ حكاية لنسيم الصَّبا، فما تكاد تتمّ حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت، وتهوي. أفهكذا؟ في عشرة أيام وحسب، تنبثق برعماً صغيراً حبيباً كالطفل الوليد، ثم تنمو كما تنمو الصبيّة الكاعب، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة الناهد، ثم تموت؟.. يا لغدر الدهر.

لو كانت هذه السُّحب تحمل الترابَ كما تحمل الماء، لأمطرت حتى القيامة من دماء الأحباب.

أوّاه. ما أكثر ما ستبقي الدنيا بعدنا. لم نكن في الكون فما كان به نقص، وسنغادره وسيبقَى كالذي كان! فما أحقر شأننا.

ما كره الخيّامُ شيئاً كما كره الموت. ولا هابَ شيئاً كما هاب الموت، ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يثُرْ عليه ولم يناقشه الحساب هو الموت.

إني حللتُ مشكلات الكون كلَّها، ووثبتُ من كل أحبولة نصبها الخداع لاقتناصي. ففضحتُ كلَّ الأسرار... إلا سرّ الموت.

٩ ـ فشل الثورة (مآسي الحياة)

ما جدوى هذه الحياة إذاً؟ ها قد أدبر الشباب، وأخفقت الآمال، وتراكمت المحن والأحزان. فواأسفاً على مثل هذا العمر، مضى عبثاً كما تمضي ليلة السكر، ومرقت فيه الآمال مروق السمك من الشبك!

ما نحن إلا لعبد بيد الفلك، لعِبَ بنا برهةً على مسرح الدهر، في حياة كلها خيبة آمال وقنوط، ثم جمعتنا يده الجبارة واحداً واحداً

وألقتنا في صندوق العدم. ألا ليت الإنسان يعود بعد دهور إلى الحياة، ولكن هيهات.

أخذ الخيّام يتلفّت إلى الماضي الضائع والمستقبل المكفهرّ، ويجترّ الآلام. فجعل يتلمّس العزلة، وينتظر الأجل. ثم صار يتمنى لو لم يكن، اما وقد كان فليته يعاجله الفناء فقد ملَّ المقام. ثم جعل ينعي نفسه سلفاً في شيء من الاستسلام، ويخبرنا عن ذلك الخيّام الذي خاط خيام الحكمة، كيف قطع أطنابَه مقراضُ الأجل، وباعه رخيصاً دلالُ الأمل. ثم هو يتطامن ويسألنا ألاً نحزن عليه إذا مات، فقد أفلت من قبضة الردى.. وهكذا فشلت الثورة.

١٠ ـ فرار الثائر (عدم الوجود)

لا تأْسَ إذاً على ما فاتك من أوطار الحياة ومباهجها، ولا تبتئس لما أصابك من أشجانها وكوارثها. فما دامت العاقبة هي الفناء، فكلا الأمرين سواء.

لعمري ما الكون إلا أوهام، وما الأقاويل إلا ترّهات، ولا الدنيا كلها إلا هذه اللحظة القصيرة، العابرة. لقد درسنا على الأساتذة زمناً، وفرحنا يوم صرنا في عداد الأساتذة، فإليك آخر حكايتنا: خرجنا من التراب، ومضينا في الريح. فهل الحياة إلا منام، وخيال، وضلال، وغرور؟

يا فؤادي.. هَبْكَ حقَّقتَ أوطارك كلَّها، واستمتعت بمباهج الدنيا

كما تتشهّى، فكأني بك قطرة طلّ، باتت ليلةً على الزهر، ثم تبخَّرتْ في الصباح.

وهبك قرأت أسرار الوجود، وسخّرت الدهر، وملكت البرَّ والبحر، وعشتَ قرناً كاملاً، أو قرنين. فهل لذلك كله من نهاية غير القبر؟

وما دام المعدوم موهوماً، والموجود منقوصاً، فَهبِ المعدوم موجوداً والموجود معدوماً، واسترِح.

ولو فكّرتَ في البداية والنهاية، لوجدت الأفراح والأتراح، والطيِّبَ والخبث، والحسن والقبح، والهناء والشقاء، كلها سواء بسواء، وهباء في هواء.

عبثٌ إذاً رؤيتك الدنيا، وعبثٌ كل ما قلتَ أو قيل لك. وباطلٌ إن ركضت في الآفاق، أو قبعت في بيتك!

باطلٌ جسمك هذا أيهذا الغافل، وباطلٌ هذا الفلك المنمَّق الحافل. ولئن أسِرنا برهةً في دار الكون والفساد، فلا تكتئب. فهذا أيضاً باطل!.. وهكذا فرَّ الثائر.

١١ ـ في المنفى

(أ) نخب الهموم

فشلت الثورة، وفر الثائر، وإذا هو مقهورٌ يائس في جزيرة الحياة، كأنه نابليون في سانت هيلانة. فكيف الصبر على هذه المحنة؟

أما من دواء لتخفيف الألـم؟ أما من حيلة لإنامة الأفكار، والقلق، والهواجس؟

بلى.. أيها الساقي، إنّ العلاج لديك. لقد ضاق صدري وركبتني الهموم ـ هموم الحياة والموت، والدين والناس، والأرض والسماء، فاسقنيها شقراء بلون الأرجوان. إسقنيها تسلب العقل ولو هنيهة يسيرة، عساني أذهل عن نفسي وأحداث الزمان. فلنغسل أشجان الدنيا بماء العنب. وارفق بنفسك المُعَارة الحبيسة، وأرِحْهَا بالصهباء من عقال العقل.

آه يا صهباء! ما لي في الدنيا صديق صافي الدخيلة، خارج الجام، أيها الساقي فلا تقبض يدك على الكأس، فلم يبقَ باليد سواه !! أنت تدري أنّ هذه الحياة ليست غير ريح، فاسقنيها عسى أن تمضي بسرعة الريح. وإنك لتعلم أن الدنيا صائرة إلى الخراب، فكن بالسلافة أنت أيضاً خربا! أما ترى أننا في الصَّحْوِ لا يكمن لنا غير الحزن في كل شيء؟ فمتى ثملنا فليكن ما يكون. فالحميا إذاً راحة روحك، وطبُّ جروحك. فتعلَّق بها كلما اجتاحك طوفان الأسى، فهي فلك نوحك!

لا تحسب أني خليع سكير، فأنا لا أشرب الخمر طلباً للنشاط أو الطرب، ولا ابتغاء المروق على الدين أو الخروج على الأدب، وإنما أشتهي الغفلة عن نفسي قليلاً. وهذا كل ما في الأمر.

(ب) نخب الموت

وهل من ملاذٍ غير الخمرة والعمر يمرق من الأيدي مروق الزئبق؟ فما لي أحمل الهمّ لفقري أو ثرائي، وشقائي أو هنائي؟ أفلا يستوي الحلو والمرُّ إذا تصرَّمت حبال الحياة؟ فهات الكأس أنعَم بها، فإني أخشى أن يدهمني الأجل قبل أن أشربه ا.

يا صديقي. كفكف من أنانيتك، وخفِّف من غلوائك، وعليك بالصهباء، فإنّ حياة يعقبها الممات لخليقة بأن تقضيها بالسكر أو بالسبات! لقد زرع الدهر من أمثالنا كثيرين، ثمَّ احتصدهم. فلِم الغمّ؟ هاتِ قدحاً آخر، فإن الكائن كائن! إن المقيمين سيرحلون، والراحلين ليسوا بالعائدين. إنهل كأس خمر، فمتى حان الحَيْن لن يهملنا هذا الفلكُ العابسُ الحقود أن ننهل كأس ماء. فلا تدَعْ رغبةً تفُتْكَ ولا لذةً تفلت منك.

إنظر إلى هذا البدر شقَّ نُورُه جلبابَ الدياجي. فهل تطمع بأجمل من هذه الآونة؟ لا تفكر يا حبيبي واشرب الراح، فكم سيطلع هذا البدر ويغشَى الأرض بنوره، يفتّش عنّا فلا يجدنا.. إذ نحن تحت التراب.

ها قد أشرق الصبح بهيجاً طيباً، فعصِّب ما بقي لنا من خمرة الأمس، وهاتها يا حلو في الكأس قبل أن تصنع الأفلاك من طيني ومن طينك الدّن. لقد ألصقتُ شفتي بشفة الكوزة ذات مرّة لعلها تنفحني طول الحياة، فقالت لي همساً: إنني عشتُ كما عشتَ، فعاشرني قليلاً!

تأمّل هذه الخمائل الناضرة، والزهور العاطرة، فلقد أينعت من ثرى الأسلاف، وستذوي وشيكاً. فلنستمتع بها قبل أن تنمو من ثرانا.

(ح) شيوخ الحان

عرجتُ أمس على الحانوت، فرأيت شيخاً يحمل على منكبه الدّن، فقلت له: ألا تخجل من اللّه تعالى؟ قال: اللّه كريم، فاشرب واسكت! ورأيتُ شيخاً ثانياً يحمل القدح بيدٍ والسجادة بيد، فقلت له: ما هذا يا شيخ؟ فقال: خذ قدحاً، فإن الكون ريح! ورأيت شيخاً ثالثاً قد اجتمع حوله السامرون يحدّثهم. فقلت له: خبِّرنا عن الغابرين؟ قال: إشرب يا صاحبي، فقد ولّى الغابرون ولم يأت عنهم خبر! ورأيت شيخاً رابعاً قد انطرح منهوكاً من فرط ما شرب، وإذا هو يتمتم: اللّه لطيف بعباده!

(د) نخب الزاهد الدجال

فيا أيها الزاهد الدجال، المعنيّ بقصير الحياة، لا تقل لي: أين ذهابي بعد الموت؟ أعطني الكأس واذهب حيث شئت!

حسبك تشهيراً بالسكارى، ومخاشنةً لمن هم أفضل منك وأكرم. وانهل الراح، فلست بشربها أو تركها تدخل الجنة إن كنت من أهل الجحيم. إن جرعة من الصهباء خير من عروش المالكين، وأنيناً يرسله الخمار في جوف الدجى لخيرٌ من تأوُّه الزاهدين الكاذبين.

(هـ) نخب الدين

لقد سَئِمَتْ نفسي طول النفاق، فقم أيها الساقي وبِعْ سجادتي بكأسٍ من الشَّمول، وادفع طيلساني أيضاً ـ لكي يصيح افتخاري بما يبقى لي بعد ذلك! وربَّ قائل يقول لي: إن شرب الخمر يؤدِّبك إلى النار في الآخرة. دعوني من أطماع الآخرة والدنيا؛ فإن جرعة من بنت العنب خيرٌ من كليهما!

يا فؤادي: فاتَّخذ الجنة هنا من طلعة الحبيب وإبريق الحميا، فقد لا تدرك الجنة هناك. وإنّ نقداً في اليد لخيرٌ من ألف نسيئة. فدع كل صلاة وصيام، إلا إذا توضَّأْتَ في الحان بالمدام، أو تَيَمَّمت بثراه، لعلك في الخمارة تسترجع عمراً غابراً ضيّعته في المدارس. ولعمري إن الذي يحسو أفاويق الطِّلا مستريحٌ من المحاريب خليٌّ من الديور، فارغ البال من الأديان والمذاهب، وأمل الرحمة وخوف العذاب. فمن أراد أن يعرف ديني فهو الفراغ من الدين والكفر!

(و) اللّه كريم

وربَّ قوم يقولون لي: «تُبْ للّه!» فإذا لم يُرِدِ اللّهُ لي كيف أتوب؟ كلا. إنّ اللّه لا يقبل توبتي، وإني لن أتوب ولو قبلها!

اغتنم اللذات يا صديق، واظفر بمتاحات الأماني؛ فإن اللّه غنيٌّ عن تقواك ومعصيتك جميعاً. ألا تدرك أن من يخلق هذه الأكوان لا يبالي بشاربَيْ مثلك أو لحيةِ مثلى؟ اللهم فاحفظني صريعاً بالحميّا طوال عمري، فمن الغفلة لا أعرف ما يقلق فكري!

(ز) نخب العقل وألغاز الوجود

إننا لا ندري ماذا وراء الستار.. ولا نعلم كيف حلول الروح في الجسم.. ولا مثوى لنا غير التراب. فحتَّامَ هذه الحكايات؟ وإلامَ نبقى أُسارى بيد العقل العاجز؟ إنْ هذي إلاَّ أساطير كلها لا نفع فيها. وما القديم والحديث بعد أن نموت؟ حسبنا نتفكَّر من أين جئنا وإلى أين سنذهب، ونتحيَّر في الأربعة (العناصر) والخمس (الحواس) والستّ (الجهات) والسبعة (الأفلاك)، ونتجادل في الواحد والكثير، ونعبأ بما يكون في الدهر كأنَّما أنيط بنا تدبير الكون. إننا نُعَنِّي أنفسنا بتحصيل العلم ثم لا نظفر بغير الشك، وأما اليقين فلا يقين. أَفَنُفْنِي حياتنا القصيرة في هذا العبث؟ عليك بالراح، ففي ظلام الجهل يستوي السكران والصاحي! أما أنا فَلأَصُبَّنَّ جرعةً من الخمر على هذا العقل الفضوليّ حتى ينام! بل لأُطَلِّقَنَّ العقل والدين ثلاثاً، وأتزوَّجنَّ بنت الكرام!

(ح) نخب اللحظة الحاضرة

الأمس مضى وفاتك، فلا تعاود ذكره. والغد غيبٌ لمّا يجئ، فلا تتدبَّر أمره. إنك إنما تملك من حياتك كلها هذه اللحظة الحاضرة، فاغتنمها.

ألقِ عن قلبك أثقال الأسى والأحزان، وانسَ ما لم يكن وما كان، واطَّرح هموم الجاه والمال، وتحرّر من الآلام والآمال. إن هذه الأنفاس في جسمك عارية، فاغتنم عارية العمر وعشها عارية!

إيه يا خيام. إن شربت السُّلافَ فاسكر واطرب، وإذا جالست الغادة الحسَّانة فتمتَّع والعب. آخرُ الدنيا فناء فافترض أنك فانٍ، وبما أنك موجود فتنعم بما يتاح لك من لذائذ الحاضر وغبطته.

هلاً حاسبت نفسك ماذا جلبت معك يوم أتيت، وماذا ستحمل معك إن توليت؟ فأين أنت من صافية الراح وحسناوات الملاح؟ إنّ كل نَفَسٍ ينقضي إنما ينقضي من عمرك هذا الذي لا تملك في الكون سواه، فهو رأس مالك. فلا تقضه بغير اللهو والسرور، واعلم أنه ينقضي كما تقضيه أنت. وإيّاك أن تتوب، عن الخمرة أو غيرها من نعم هذه الدنيا. ها هي الأزهار تفوح والأطيار تنوح.. أفي وقتٍ كهذا يجوز المتاب؟

لا تكفّر بعد اليوم في ماضٍ ولا آتٍ، بل اغنم الحال. اغنم الحال، فإن المقصود من الحياة هو هذا.

(وهنا ينتهي الفيلسوفُ إلى حيث يبدأ رجُلُ الشارع وينتهي، فيلتقيان على متاع اللحظة الحاضرة، ونسيان كل ماضٍ وآتٍ، وانصراف عن شؤون الفكر والدهر. فهذا هو مقصود الحياة على حدّ تعبير الخيّام ـ يدركه العامة بغريزتهم الجاهلة، من غير ثورة ولا فلسفة. ولكن مع فرق واحد، هو أنهم لا يخلّفون للأجيال كنزاً من الرباعيات. ولو قال الخيّام أن مقصود الحياة هو عمل الخير للمجتمع، الذي لا يمكن بدونه إن تتهيأ المتعة للجميع، لكان أقرب إلى الصواب والواقع. ولكن فشل ثورته وتشاؤمه القانط جعلاه سلبياً لا يروم غير التهرب من الهموم).

(ط) نخب الحبيب

ولئن كنت آسفُ على شيء فإنما آسف على ما انقضى من عمري بغير حبيب وشمول. فلا أَضَيِّعَ في حياتك من يوم يمضي في غير غرام. ولست أقصد الحبَّ المجازيّ، فهو لا رواء فيه ولا نضارة، كأنه الجمرة الهامدة ما فيها حرارة. وإنما أقصد ذلك العشق المحرق الذي لا يستمرئ المدنف معه طعاماً ولا مناماً، ولا يقرّ له قرار. فلأباكِرْ فرصة البهجة إذاً في الروض الظليل، بيدِ فرع الحبيب ويدِ كأس الشمول.

ويح العاذلين يقولون لي: «ما عذرك في لهوك وسكرك؟» إن عذري لثغر الحبيب وإبريق الصبوح! فأيُّ عذر يا ترى أوضح من هذا يكون؟

تعال هنا يا وثني كرامةً لقلبي، وفرّج بحسنك كربتي. وهاتِ كوز الصهباء قبل أن يصنعوا الكوز من طيننا. فلنتبع نهج دراويش الحان، لا نبتغي غير الراح والحبيب والسمّاع. ولندع أقاويل الهراء، إلا ديواناً من الشعر. وما دمتَ معي ما أبالي أن أعيش في قفرٍ يباب، فإن ذلك أحلى عندي من ملك السلاطين. ولسوف تراني ذات يوم قد صرعتني الشَّمول، فهوَى رأ سي على قدمك وجداً وذلاً، ووقعت الكأس من يدي والعمامة من رأسي.. هائماً بجمال وجهك، كأنني من عبدة الأوثان!

(ي) نخب الأنخاب

ويا صهباء، إنك لأنتِ شرابي الفاضحي بين العباد، فلأشرب منك ما يذهب بصوابي! ومهما هتكت ستري فلن أقلوك وفي نفسي رمق، أنت التي لم تقع عينٌ على أحسنَ منك. فيا عجبي للبائعك، ما عساه يشترى أفضل مما يبيع؟

إني لا أحتمل العيش بدونك، ولا طاقة لي بحمل هذا الجسد الثقيل. فما أحلى ساعةَ يقول لي الساقي: «إليك قدحاً آخر»، وأنا لفرط السكر لا أستطيع!

لقد عرفتُ ظاهرَ كلِّ موجودٍ ومعدوم، واطَّلعتُ على باطن كلِّ رفيعٍ ووضيع؛ فلأخجلْ إذاً من كل علمي إن كنتُ أعرف مكانةً فوق السكر!

يا أحبائي، فاجعلوا الحميّا قُوتي ما حييت، واغسلوني بها متى وافاني الأجل. ثم أعدّوا تابوتي من الكرمة، ثم فاصنعوا من ترابي جاماً لعلي أحيا فيه إذا امتلأ من بنت العنب. وما أباليي بعد الموت فخراً ولا ذكراً، فاطمسوا قبري، واجعلوا سيرة حالي عبرة للعالمين. ولكن لا تنسوا أن تصبُّوا الراح على ترابي، وأن تصنعوا من جسمي سِدَاداً للخوابي. ومتى اجتمعتم لمعاقرتها بعدي، وجاء دوري، فاذكروني، واقلبوا كأسي.

١٢ ـ ستار الخيّام

الآن وقد انتهينا، فلنتأمَّل قليلاً. أيهما أصوب يا ترى: سكارى

الحان أم أحلاس المحاريب؟ يقول الخيّام إن كلا الفريقين على ضلال! وعلى أيّة حال لم يكن هو من أهل الدير ولا المسجد. أما إذا أردتَ أن تعرف حقيقته، أجابك أنها لا يعرفها إلا من جبل ترابه. إنه في الدنيا أشبه بالكافر المعدم والمومس المحرومة من نعمة الجمال - قد خسر الدنيا والآخرة، وقطع الرجاء من الجنة.

ترى، هل عرفنا الخيّام على حقيقته، وهل صدق حدسنا في فهمه؟

قال قوم إني زيرُ نساءٍ أو زقُّ خمر، وقال آخرون إنّي وثنيّ كافر. فليقل مَنْ شاء فيَّ ما شاء. غير أني ملك نفسي، كيفما أكن أكن!

فهو يعدُّ تحرّينا أمره تطفلاً وفضولاً كما ترى.

طهران: ٥ أيار ١٩٤٩

عبدالحق فاضل

الباب الثاني

صوت الخيّام

(الرباعيات)

١

ثورة على المجتمع

ـ ١ ـ ❖

فُصِّلتْ أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاترْ
قد طويناها ففي النشر وبالٌ ومَخاطرْ
لم نجِدْ في الناس من يَعقلُ من أهل البصائرْ!
فغدَا يُعجِزُنَا إظهارُ ما تُخفِي الضمائرْ!

ـ ٢ ـ ❖

جَزِعَ الدهرُ علينا مذ رحلنا وقنَطْ
أن ثقبنا دُرَّةً من مائةٍ فيه فقطْ!
لَهف نفسي، كم أُلوفٍ من معانٍ في السَّفَطْ
حَالَ عن إعلانها بالناس جهلٌ وشططْ!

ـ ٣ ـ ❖

ربَّ سرٍّ لستُ أستطيع له في الخلق فضحا
فاستمع موجَزَ قولي، لا تَسَلْني عنه شرحا!
آه من حالٍ أراني عاجزاً عن وصفها
آه من سرٍّ طواه القلبُ لا يقبل بَوْحا

- ٤ -

أكـتُـم الأسـرارَ عـمَّـنْ سـفـلـوا وابـتُـذِلـوا
وصُـنِ الـحـكـمـة عـن كـلِّ عـمٍ لا يـعـقـلُ
وتـأمـل.. فـي مـكـانِ الـنـاس مـاذا تـعـمـل؟
وتـوقَّـع مـثـل هـذا مـنـهـمُ أن يـفـعـلـوا

- ٥ -

أنـا بـالـنـفـس أُفـدِّي كـلَّ حـرِّ الـنـفـس أهـلِ
إن أضـع رأسـي عـلـى رجـلَـيْـه لـم أشـعـر بـذلٍّ
أفـتـبـغـي أنـت أن تـعـرف مـا نـارُ الـجـحـيـمِ؟
هـي فـي الـدنـيـا لـعـمـري صـحـبـةُ الـفَـدْمِ الـلـئـيـمِ

- ٦ -

عـاشِـرِ الأطـهـارَ مـن كـلِّ كـريـمٍ عـاقـلِ
ومـن الأشـرار فـاهـربْ ألـفَ مـيـلٍ مـائـلِ!
إشـرب الـسُّـمَّ إذا أعـطـاكـه أهـلُ الـحـجـى
واهـرق الـشـهـد إذا أعـطـتـه كـفُّ الـجـاهـل!

- ٧ -

صـاحِ أقْـلِـلْ مـا تـمـكّـنـتَ عـديـدَ الأصـدقـاء
واصطحبْ إن شئت أهل الدهر، لكنْ من بعيدِ
إنَّ مـن تـركَـنُ فـي الـدنـيـا إلـيـه بـالـولاء
لـيـس فـي بـاصـرة الـعـقـل سـوى خـصـمٍ لـدودِ!

ـ ٨ ـ

إن رعَى عهدي غريبٌ كان لي من أقربائي
وإذا خانَ قريبٌ كان بعضَ الغرباءِ
أنا إن أسقمني الترياق فالترياق دائي
أو شفاني السُّمُّ كان السمُّ طبّي ودوائي!

ـ ٩ ـ

يا لها محبوبة، طالَ كأشجاني بقاها!
بدأَتْني اليومَ إحساناً جديداً من نداها
نظرتْ في ناظري وانصرفت، أي يا أخي
إصنع الخير وفي الماء ارمِهِ، لا تتباهَى!

ـ ١٠ ـ

لا تجرِّع أحداً غصَّةَ حزنٍ بَطَرا
لا ولا تُضلِ بنار الغيظ مرأً في الورى
وإذا أحببتَ أن ترتاح حقاً عُمْرا
فاحملِ الحزن ولا تُحزِنْ لشيءٍ بشرا

ـ ١١ ـ

إنما الراحة في الدنيا ولذّات الصفاءِ
خُلِقتْ للمطلق الضّارب في كلّ فضاءِ!
فإذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد بُدّلَ من راحته أيَّ عناء!

\- ١٢ -

ليس في ميزان هذا الدهرِ نفعٌ للعقولِ
إنما يربحُ فيه كلُّ مأفونٍ جهولِ
فاسقنيها تُذهِبُ العقلَ ذهوباً منكَرَا
فعسى أن يُحسِنَ الدهرُ إلينا النظرا!

\- ١٣ -

ليست الفضَّةُ في الدنيا بذخرِ الحكماءْ
بيد أن العادمي الفضَّةَ فيها سُجَناءْ
أطرقَ النَّسرينُ بالرأس لعُدْمٍ وسَغَبْ
بينما يضحك ثغرُ الورد في كيسِ الذَّهَبْ!

\- ١٤ -

ليس في الإمكان تغييرُ الذي خَطَّ القلمْ
فالأسى لا خير فيه غير تأريثِ الألمْ
لو قضيتَ العمرَ في حزنٍ على الدنيا وحسرَهْ
لم تَزِدْ ما هو موجودٌ ولا مثقالَ ذَرَّهْ!

\- ١٥ -

لِمَ هذا الحزن للآتي الذي لم يحضرِ؟
إن طول الهمِّ من حظِّ البعيدي النظرِ!
لا تضيِّق سَعَةَ الدنيا على قلبك، فافرحْ
لن تزيد الرزقَ أو تنقصه بالكدر!

❊ - ١٦ - ❊

إن ما تَطعَمُ أو تلبسُ مما تبتغيهِ
أنت معذورٌ بما تكدحُ كيما تقتنيهِ
أيها العاقل، والباقي فضولٌ، ورخيصٌ
فتحذَّرْ أن تبيع العُمرَ الغاليَ فيه!

❊ - ١٧ - ❊

كم تُذلُّ النفسَ في خدمة أوغادٍ لئامِ؟
تَنْتَحِي كلَّ طعامٍ، كالذُّباب المترامي؟
كُلْ رغيفاً كلَّ يومين بلا مَنِّ الأنام
فَلأَنْ تطوِيَ خيرٌ لك من خبز الكرام!

❊ - ١٨ - ❊

إن أصابَ المرءُ في اليوم رغيفاً واحدا
واحتسي من كوزهِ المكسور ماءً باردا
فلماذا يا ترى يخدِمه مَنْ دونَه؟
ولماذا يا ترى يخدم نداً سائدا؟

- ١٩ -

أنا إن فزتُ من القمح المنقّى برغيفِ
ومن الخمر بزقٍّ، معه فَخُذْ خروفِ
ثم أحيا وحبيب القلب في عرض تنوفِ
فهي العيشة، ما تاحت لذي الملك المنيفِ

- ٢٠ -

إنَّ مـن صـاروا عـظـامَ الـنـاس مـن أهـل الـمـنـاصـبْ
سـئـمـوا أنـفـسَـهُـم مـن فـرط حـرصٍ ومـتـاعـبْ
وإذا هـم أبـصـروا غـيـرَ حـريـصٍ مـثـلـهـم
لـم يَـرَوْهُ آدمـيّـاً مـثـلـهـم.. يـا لـلـعـجـائـب!

- ٢١ -

ربَّ سـهـم تـرشـقُ الآجـالُ لا درعَ تـصـدُّهْ
وثـراءٍ يـحـشـدُ الإنـسـانُ لا يـجـديـه حـشـدُهْ
كـلـمـا فـكّـرتُ فـي الـدنـيـا عـدَدْتُ الـخـيـرَ خـيـراً
وبـدا لـي مـا عـداه بـاطـلاً لـسـتُ أعـدُّهْ

- ٢٢ -

أنـا آثـرتُ مـن الـدنـيـا رغـيـفـيـن وخـلـوَهْ
وصـرفـتُ الـنـفـسَ عـن كـلِّ غـنـى فـيـهـا وسـطـوَهْ
إنـنـي ابـتَـغـتُ بـروحـي كـلَّـهـا دَرْوَشَـةً
فـلـكـم ألـفـيـتُ فـي مـتـربـة الـدرويـش ثـروَهْ!

- ٢٣ -

لـيـس فـي إيـوان هـذي الـنـيِّـراتِ الـدائـراتِ
مـن سـعـيـدٍ قـطُّ غـيـر اثـنـيـن مـن أهـل الـحـيـاةِ
مُـدرِك يـفـقـه كـنـهَ الـدهـر مـن خـيـرٍ وشـرٍّ
وجـهـول غـافـل عـن نـفـسـه والـكـائـنـاتِ!

- ٢٤ -

لاح ثـورٌ فـي الـسَّـمـا يُـدْعَـى الـثـريَّـا، ظـاهـرُ
واخـتـفَـى تـحـت طـبـاق الأرض ثـورٌ آخَـرُ
فـإذا مـا نـظـرتْ واعـيـةُ الـعـقـل الـبـصـيـرِ
شـاهـدتْ بـيـن كـلا الـثـوريـن سـرباً مـن حـمـيـرِ!

٢

ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

- ٢٥ - *

يتظنَّى الشانيءُ الواهمُ أني فيلسوفُ!
علمَ اللّهُ بأني لا كما قال السخيفُ
غير أني وأنا في وكر أتراحِ وبؤسِ
لا أقلَّ الآن أن أعرف فيه كنهَ نفسي!

- ٢٦ -

كلُّ شيءٍ قلتَ عني كان عن حقدٍ جَلِيّ
أبداً تزعمُ أني ملحدٌ لا دينَ لي
إنني نفسي بنفسي عارفٌ معترفٌ
أفأهلٌ أنت أن تسألني عن عملي؟

- ٢٧ -

سيِّدي أنت فقيهٌ، لست تدرى ما الخبَرْ
ما الذي تنكر بالله على أهل النظرْ؟
هم أطالوا الفكرَ في الصانع أو صنعته
وتفقَّهتَ بحيضٍ، ونجاساتٍ أُخَرْ!

- ٢٨ -

سيِّدي، هلاّ تكرَّمتَ علينا بمرامِ؟
أغفِنا ناشدتك الديَّانَ من هذا الخصام
مستقيمٌ سَيْرُنَا.. لكنَّ في عينيك زَيْغاً
فالتمسْ طبًّا لعينيك، ودعنا في سلامِ!

- ٢٩ -

أيها الزاهد، ما مثلِيَ مَنْ يجهل مثلك
فالتمس غيري غريباً جاهلاً يذكر فضلك
قلتَ لي: إن تَجْنِ ذنباً تَكُ في النار! فمهلك
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل فعلك!

- ٣٠ -

أيها القالي الحميّا، لا تندِّدْ بالسكارى
لا تشيِّد بالأساطير وبالتدجيل دارا
إن تحرَّجتَ من الخمر فلِمْ تُزْهَى اغترارا؟
كم فَعَالٍ لك تَخْزَى الخمرُ وتَوَارى!

- ٣١ -

أنا أحسو الخمر، لكن ما أدَارَ السكرُ رأسي
ويميني لم أطِلْها صوبَ شيءٍ.. غير كأسي!
أفتدري ويك ما سرُّ افتتاني بالحميَّا؟
ذاك أني لم أكن مثلك مفتوناً بنفسي!

كـان سُـكـري وطِـلابـي الـراحَ مـقـدوراً جـرَى
فـلـمـاذا أُولـعَ الـخـلـقُ بـعـذلـي يـا تـرى؟
أتـمـنَّـى لـو غَـدَا كـلُّ حـرام مـسـكـرا
عـنـدهـا مـا كـنـتُ ألـقَـى صـاحـيـاً بـيـن الـورى!

- ٣٣ -

إنـنـا أكـثـرُ شـغـلاً مـنـك، يـا مـفـتـي الـقـضـاء
وبـهـذا الـسُّـكـرِ أصـحَـى مـنـك، عـنـد الـعـقـلاء
كـم شـربـتـم دَمَ قـومٍ، وشـربـنـا دم كـرْمٍ
فـأجـبـنـي. أيُّـنـا أنـكَـرُ شـربـاً لـلـدمـاء؟!

- ٣٤ -

قـال شـيـخٌ لـبـغـيّ: أنـتِ ذي سـكـرَى، فـسـحـقـا
كـلَّ آنٍ لـك غـاوٍ فـي أحـابـيـلـكِ مُـلـقَـى
فـأجـابـت: أنـا يـا شـيـخُ كـمـا تـحـكـي وأشـقـى!
فـأجـبـنـي عـنـك، هـل أنـت كـمـا تَـظْـهَـر حـقـا؟!

- ٣٥ -

إنّ شُـربَ الـخـمـرِ والـصَّـبـوةَ بـالـغـيـد الـحـسـانِ
كـان خـيـراً مـن تـعـاطـي الـزهـد زوراً بـالـلـسـانِ
إنْ تـكـنْ عـاقـبـةُ الـسـكّـيـر فـي نـار الأبـدْ
فـلـعـمـري لـن يـرى الـجـنـة مِ الـنـاس أحـد!

- ٣٦ -

إنـنـي أفـخـر بـالـحـانِ، فـأهـلُ الـحـانِ أهـلُ!

ولـدى الإنـصـاف حـتـى سُـوؤهـا حـلـوٌ وسـهـلُ!

إنّ دُورَ الـعـلـم لـم تُـنـجِـبْ حـكـيـمـا ذا أصـالـه!

فـاهـدمـوا هـذي الـزوايـا، إنـهـا دور الـجـهـالـه!

- ٣٧ -

إنّ قـومـاً لـزمـوا الـمـحـراب عـمـراً لـحـمـيـز

فـلـقـد نـأوا بـأوسـاقِ ريـاءٍ وغـرور

وعـجـيـبٌ أنـهـم تـحـت سـتـار الـزهـد بـاعـوا

ديـنَـهـم بـيـعـاً، فـهـم أنـكـر مـن كـل كـفـوز!

- ٣٨ -

كـن حـمـاراً بـيـن جـهَّـالٍ رأوا بـالـحـذلـقـه

أنـهـم فـي الأرض أهـلُ الـعـلـم طـرًّا والـثـقـه

كـم تـجـنَّـوْا مـن حـمـاريَّـتـهـم واتَّـهـمـوا

كـلَّ مـن لـيـس حـمـاراً مـثـلـهـم بـالـزنـدقـه!

٣

ثورة على الدين

ـ ٣٩ ـ

قيل إنّ الشاربَ الخمرَ إلى النار يصيرُ
قالةٌ لا يركنُ القلبُ إليها، فهي زورُ!
إن يكُنْ منقَلَبُ الشاربِ والعاشقِ نارا
فغداً سوف ترى الجنَّة كالراح[1] قفارا!

ـ ٤٠ ـ

قيل في الجنة حُورٌ قاصرات الطَّرْفِ عِينْ
وخمورٌ جارياتٌ في نهورٍ وعيونْ
أيّ ضَيْرٍ إن طلبنا الحورَ والخمر هنا؟
إنّ هذا هو عقبى الأمر.. فيما يذكرون!

ـ ٤١ ـ

قالَ مَنْ صارت لهم في العلم والتَّقوى الإمامةْ:
«يُحشَرُ المرءُ على ما كان إذ لاقَى حِمامه»

(١) جمع راحة، وهي باطن الكف.

ولـهـذا نـلـزم الـحـسـنـاءَ دومـاً والـمـدامـه
فـعـسـانـا هـكـذا نُـحـشَـر فـي يـوم الـقـيـامـه!

- ٤٢ -

قيل لي: ما أطيب الجنَّاتِ بالحور الحسانِ
بيد أني قلتُ: ما أطيبها بنت الدنانِ!
فدع القرض، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقي، إنّ صوتَ الطبل يحلو من بعيدِ!

- ٤٣ -

يـا فـؤادي لـم يَـرَ الـجـنّـةَ والـنـارَ بـشـرْ
أم أتـى مـن ذلـك الـعـالَـمِ آتٍ بـخـبـرْ؟
إنّ مـا نـخـشـى ومـا نـرجـو مـنـوطـان بـشـيءْ
لـيـس يـبـدو مـنـه إلا اسـمٌ ووصـفٌ لـلـنـظـر!

- ٤٤ - ❋ ❖

آه، كم أبني على الماء من الوهم قصورا؟
سئِمتْ نفسِيَ أوثاناً لعمري وديورا
أيها الخيّام، من قال لنا ثَمَّ جحيمْ؟
من تولّى في جحيمٍ أو تدلّى من نعيمْ؟

- ٤٥ -

كرَّ بي الفكرُ إلى أول يوم في الخليقه
ناشداً في اللّوح والجنة والنار الحقيقه
وإذا العقل ينادِي قائلاً: ما أضيعك
ويك إنَّ اللوح والجنة والنار معك!

- ٤٦ -

إكــرع الــراح، فــإن صــرتَ تــرابــاً فــي الــتــرابِ
صــار مــثــواك تــرابــاً لــكــؤوس وخــوابــي!
دع حــديــث الــنــار والــجــنــة وافــرغ مــنــهــمــا
لِــمَ يــغــتــرُّ بــشــيءٍ مــثــل هــذا ذو صــواب؟

- ٤٧ -

أهــمِــل الــسُّــنــةَ والــفــرض ونــصَّ الــشــارعِ
وابــذل الــلــقــمــة لا تــبــخــل بــهــا عــن جــائــعِ
ثــم لا تُــؤذِ عــبــاد الله أو تَــغْــتَــبْ جــلــيــســا
وأنــا الــضّــامــن بــالأخــرى.. فــهــات الــخــنــدريــســا!

- ٤٨ -

إخــدِمَــنْ كــلَّ خــلــيــع مــاجــن فــي الــنــدمــاء
واطَّــرح أعــبــاء صــوم وصــلاة ودعــاء
إســمــع الــحــقَّ مــن الــخــيّــام، مــا فــيــه مــراء:
إصــنــع الــمــعــروف.. واحــسُ الــخــمــر واطــرب بــالــغــنــاء!

- ٤٩ -

إســمــع الــعــقــلَ الــذي يــبــحــث فــي سُــبْــل الــســعــاده
إنــه يــنــبــيــك ألــفــاً كــلَّ يــوم، وزيــادة:
أنّ إبّــانــك هــذا الــعــمــر، لا عــمــر ســواه
لــســتَ بــالــكــرّاث يــنــمــو بــعــد إذ أنــهَــوْا حــصــاده!

- ٥٠ -

قُلْ لهم يأتوك بالخمرةِ كالورد الجَنيّ
قبل أن تدهمك الأشجانُ في الليل الدجيّ
أيهذا الغافل الجاهل، ما أنت نضارٌ
فيواروه الثَّرَى كي ينشروه بعد طيَّ

- ٥١ -

دونك الكأسَ، ففي اللحد ستُلْقى مفردا
مفرداً، دون أنيسٍ أو قرينٍ، أو خليلِ
هاكه سرًّا مصوناً، لا تُذِعْهُ أبدا:
أبداً لا تُزهر الوردة من بعد الذبولِ!

- ٥٢ - *

أيها الناتج من أربعة في ظلّ سبعَه
وهو فيها دائبُ الفكر، أخو همٍّ ولوعه
إشرب الخمر.. فقد قلنا وقلنا لك ألفاً:
إن تولَّيتَ توليتَ، فليست لك رجعه!

- ٥٣ -

لي يدٌ تأخذ بالمصحف والأخرى بجامي
وحياةٌ تتقضَّى في حلالٍ وحرام!
فأنا في الدهر لا النيّءُ ولا الناضج حقا
لست بالكافر إطلاقاً، ولا المسلم صدقا!

ـ ٥٤ ـ

أسفاً أنّ يداً تأخذ جام الراحِ محضا
كيدي تأخذ بالمنبر والدفتر أيضا!
أنت عفٌّ يابسٌ، لكنني غاوٍ نديٌّ
ولهيب النار لا يُورِي نديّاً يا أُخَيُّ!

ـ ٥٥ ـ

يزعم اللُّوَّامُ أني فاسقٌ حِلفُ الخنا
وأنا المظلوم، فانظر للتظنّي ما جنَى!
أنا يا أهل التُّقى لم أرتكبْ في الشرع إثماً
طول عمري، غير كفرانٍ وسُكرٍ وزنا!..[1]

ـ ٥٦ ـ

لا يَميّزُ القلبُ بين الحَبِّ في أشراكِ صائدْ
فهنا لهوُ الحميّا، وهنا تقوى المساجدْ!
بيد أنّا في هوى المحبوب والكأس المصفّى
في الحوانيت هنا أنضجُ منا في المعابد!

ـ ٥٧ ـ

ليَ ذنبٌ فادحٌ يكسر ظَهر الدين كسرا!
فاضحٌ، يكسر سوقَ العابدي الأصنام طرا!

(١) هذبنا الشطر الرابع من هذه الرباعية كما ذكرنا في المقدمة.

بـاهـظٌ، أخـشـى إذا مـا وزنـوه يـوم أُقْـضَـى
مـرّةً أن يـكـسـر الـمـيـزان يـوم الـحـشـر أيـضـاً!

- ٥٨ -

ربَّ درويـشٍ رأيـتُ اقـتـعـد الأرضَ سـنـيـنْ
حـاد عـن كـفـر وإسـلام، وعـن دنـيـا وديـنْ
وأشـاح الـوجـهَ عـن حـقٍّ وشـرعٍ ويـقـيـنْ
يـا تـرى أجـراً فـي الـداريـن مـنـه مَـن يـكـون؟

٤
ثورة على السماء

ـ ٥٩ ـ

أنت يا ربِّ خلقتَ الحسنَ في هذا المحيّا
زِنْتَه بالورد والريحان، فتّاناً شهيًّا
قلتَ لا تنظر إليه، مثل قول المرء: هيَّا
اقلب الكأس ولكن لا تُرِقْ منه الحميّا!

ـ ٦٠ ـ

نَثَر الحَبَّ على الأشراك صيّادُ الأزلْ
فحَوَتْ صيداً دعاه آدماً جدَّ النِّحلْ
كلُّ ما يحدث في العالم من خيرٍ وشرٍّ
فهو يأتيه، ويعتلُّ على الخلق العِلَلْ!

ـ ٦١ ـ *

ربَّ مسكين رَمَوْهُ في بوادي العِلَلِ
دبَّروا من دونه الخطَّةَ للمستقبلِ
إنهم يختلقون اليومَ شتّى حُجَجٍ
وغداً يحدث ما قد بيَّتوا من حِيَلِ!

ما بخورُ الدّيرِ يُزجى، أو سراحُ المسجدِ؟
وخَسَارُ النار، أو ربح النعيم السرمدِ؟
أنظر اللّوحَ تَجِدْ ثَمَّةَ أستاذَ القضا
خَطَّ فيه ما هو الكائنُ حتى الأبدِ!

- ٦٣ -

ويلتي، مذ جَبَلوا في قالب الخلقة طيني
كم أثاروا الشرَّ من هذا الترابِ المستكين؟
ليس في مقدرتي أن أغتدي أفضل مني
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغوني!

- ٦٤ -

عندما صوَّرنا البارئ من هذا الترابِ
كان يدري ما سنأتي من أثام وصوابِ
إننا لم نَجْنِ ذنباً ليس من تقديره
فلمَ التعذيبُ في النّار إذن يوم الحساب؟

- ٦٥ -

قلمُ المقدار أجْرَوْهُ بأمري، دون أمري!
فلماذا ساءلوني منه عن خيرٍ وشرّ؟
ذهب الأمسُ بدوني، وأتى اليومُ بدوني
فغداً بالله ما حجتهم إن حاسبوني؟!

- ٦٦ -

سُطِر الكائنُ من خيرٍ وشرٍّ وانحسَمْ
ولقد كلٌّ بما خَطَّ على اللوح القلَمْ!
كلُّ ما يحدث قد قُدِّر من يوم القِدَمْ
فهباءٌ كلُّ ما ننفق من سعيٍ وهمّ!

- ٦٧ -

إن أمرَ الحيِّ والميِّت يا ربّي إليك
ولك الأفلاك لا يخرج ما فيها عليك
إنني عبدك مهما كنتُ مرذولاً، فقل لي
أيُّ ذنب لابن أُنثى هو من صنع يديك؟

- ٦٨ -

إنني يا ربِّ عبدٌ مذنبٌ، أين رضاؤك؟
وفؤادي كالدياجي مظلمٌ، أين ضياؤك؟
وإذا أعطيتنا الجنّة بالطاعة منا
كان هذا منك بيعاً، أين يا ربِّ عطاؤك؟

- ٦٩ -

ربِّ قل لي، من هو المعصوم من إثم وعَيبِ؟
ربّ كيف اسطاع أن يحيا امرؤٌ من غير ذنبِ؟
أنا عبد أصنع السُّوءَ فتجزيني بسوءِ
فإذن ما الفرق ما بيني وما بينك ربّي؟!

- ٧٠ -

أنــت يــا ربّ كــريــمٌ، أنــت ذو لــطــفٍ ومَــن
فــلــمــاذا تــطــرد الــعــاصــيَ عــن جــنّــة عَــدْن؟
لـيـس جـوداً مـنـك أن تـعـطِـيَـنـي عـن حـسـنـاتـي
إنــمــا جــودك أن تــؤتِــيــنــي عــن ســيِّــئــاتــي!

- ٧١ -

وكــأيٍّ مــن نــديــم كــان حــرَّ الــنــفــس أهــلا
كـان مـثـلـي شُـربُـه الـراحَ بـعـيـن الـعـقـل سـهـلا!
عـلـمَ الـلّـهُ بـشـربـي هـذه الـصـهـبـاءَ، قِـدمـا
فـإذا لـم أحـسُـهـا لـم يـكُ عـلـمُ الـلّـه عـلـمـا!

- ٧٢ -

قـل لـمـن هـان عـلـيـه الـذنـبُ لا يـخـشـى مـآلـه
هــذه الــنــكــتــة إن كــان أريــبــاً ذا أصــالــه:
جــعــلــوا عــلّــة كــلِّ الــذنــب عــلــمــاً أزلــيًّــا
إن هــذا عــنــد أربــاب الــنُّــهــى عــيــنُ الــجــهــالــه!

- ٧٣ - *

زيَّــن الــصــانــعُ تــركــيــبَ طــبــاع الــبــشــرِ
فــلــمــاذا شــانَــهــا بــالــنــقــص أو بــالــوَضَــرِ؟
إن تــكــن جــاءت مـلاحـاً.. فــلــمــاذا خَــرْبُــهــا؟
أو تـكـن جـاءت قـبـاحـاً.. فـعَـلَـى مَـنْ عـيـبُـهـا؟!

- ٧٤ -

فيمَ يا خيّام هذا الحزن للذنب الكبير؟
والأسى ليس بمُجْدٍ في قليلٍ أو كثير؟
إنَّ من لم يَجْنِ ذنباً لم يكن للعفو أهلا!
وبك من أجل المعاصي كان غفران الغفور!

- ٧٥ -

تعمُرُ الحانةُ ممَّا نحتسي فيها المداما
وعلينا دَمُ الفَيْ توبةٍ بين النّدامَى!
ما جَدَا الرحمةِ إن لم أقترف إثماً جساما؟
زينة الرحمة مما نجتني نحن الأثاما!

- ٧٦ -

أنا لم أقنط مع العصيان والجرم العظيمِ
من رجاءِ الخالق الغافر والربِّ الرحيم
إن رقدتُ اليوم سكرانَ صريعاً، خَرِباً
فغداً يغفر كلَّ الذَّنبِ للعظم الرميمِ!

- ٧٧ -

قيل لي: ثَمَّ حسابٌ وعقابٌ يومَ حشرِ
يوم يشتدُّ الحبيبُ المرتجَى في كلِّ أمرِ!
ليس عند الخيِّر المحض سوى الخير لعمري
فاغتبط صاحِ، فعقبى الأمر ليست غير خيرِ!

- ٧٨ -

يـا إلـهـي أنـا مَـن قـد بـرأتـنـي قـدرتُـك

فـتـرعـرعـتُ عـزيـزاً، دلَّـلـتـنـي نـعـمـتُـك

سـوف أمضـي في الـمـعـاصي جاهـداً سبعـين عـامـاً

لأرى مـعـصـيـتـي أوسـعُ أم مـغـفـرتُـك!

- ٧٩ -

قـلـتَ لـي: إنـي لـمُـصْـلِـيـك سـعـيـراً يـا لـعـيـنْ

خـبـرٌ مـا ازددتُ خـوفـاً مـنـه بـيـن الـمـذنـبـيـنْ

فـلـعـمـري لا عـذابٌ فـي مـكـانٍ أنـتَ فـيـه

ومـكـانٌ لـسـتَ فـيـه أيـن يـا ربِّ يـكـونْ؟

- ٨٠ -

إن فـي الـمـسـجـد والـبِـيـعـة مـن شـتَّـى الـعـبـادِ

مـن يـخـاف الـنـارَ أو يـرجـو نـعـيـمـاً فـي الـمـعـادِ

بـيـد أن الـعـارفـيـن الـلّـهَ عـرفـانَ سـدادِ

أبـداً لـم يـزرعـوا بـذراً كـهـذا فـي الـفـؤاد!

- ٨١ -

هـامَ قـومٌ بـجـزافٍ فـثَـنَـوْا لـلـعُـجْـبِ جِـيـدا

ومـضـت طـائـفـةٌ تـطـلـب حُـوراً وخـلـودا

لـو أمـيـطَ الـسـتـرُ يـومـاً لـتـبـدَّى أنـهـم

وقـعـوا مـنـك بـعـيـداً، وبـعـيـداً، وبـعـيـدا..

- ٨٢ -

إن مــن هــم صــفــوة الــدنــيــا وأعــلام الــورى
بــبــراق الــفــكــر يــطــوُون الــثــرَّيــا والــثــرى
كــلــهــم فــي فــهــمــهــم ذاتَــك مــثــل الــفــلــكِ
مــســتــهــامــون حــيــارَى، خــبــطــوا فــي حَــلْــكِ

- ٨٣ -

لــو درَى الــقــلــبُ عــلــى الــتــحــقــيــق أســرارَ الــحــيــاةِ
لــدرى ســرَّ الألــوهــيّــة أيــضــاً فــي الــمــمــاتِ
إنــك الــيــوم مــع الــنــفــس ولا تــدري بــأمــرِ
فــغــداً بــالــلّــه إن فــارقــتــهــا مــاذا ســتــدري؟

- ٨٤ -

قال لي القلبُ: هوى العلم اللدنِّيّ بنفسي
فـإذا أُوتـيـتَ حـظّـاً مـنـه فـانـفـعـنـي بـدرسِ
قلتُ: فاسمع، ألِفٌ، قال: تمهَّل ويك يكفى
إن يكُنْ في الدار من يُسْمَى فحسبي فردُ حرفِ!

- ٨٥ -

هــذه الأجــرام فــي إيــوانــهــا الــعــالــي الــمــكــيــن
حــيَّــرت أســرارُهــا أهــلَ الــعــقــول الــبــاحــثــيــن
لا تــضــيِّــع رأسَ خــيــطِ الــعــقــل، واعــلــم أن مَــنْ
عــنــدهــم تــدبــيــر هــذا الــكــون صــرعَــى ذاهــلــون!

٥

ثورة على الدهر والأفلاك

- ٨٦ -

يـا زمـانـاً بـأفـاعـيـل يـدَيْـه يـعـتـرفْ
وهـو فـي زاويـة الـجـور مـقـيـمٌ مـعـتـكـفْ
تُـسـبـغ الـفـضـلَ عـلـى الـوغـد وتُـؤذِي مـن أنِـفْ
أنـت لا تـخـلـو مـن اثـنـيـن: حـمـار أو خَـرِفْ!

- ٨٧ -

لـسـتُ فـي نـهـجـك يـا دهـرُ بِـراضٍ أو سـعـيـدِ
فُـكَّ عـنّـي الـقـيـدَ، مـا مـثـلـي خـلـيـقٌ بـالـقـيـودِ
إن يـكـن مَـيْـلُـك يـا دهـرُ مـع الـدّونِ الـبـلـيـد
فـأنـا لـسـتُ بـذاك الـبـاذخ الـقـدر الـرشـيـد!

- ٨٨ -

فـلـكَ الـنـقـمـة، تُـؤتـي الـنـذل مـا عـزَّ وجـلاً
فـلـه الـحـمّـامُ، والـطـاحـون، والـقـصـر الـمـعـلّـى
بـيـنـمـا يـرهـن حـرٌّ ثـوبَـه فـي قـوتِ يـوم
فـلـكٌ مـثـلـك أولَـى هـدمـه عُـلـواً وسِـفْـلا!

آه لـو كـنـتُ عـلـى الأفـلاك ربّـاً فـي سـمـائـي
لـمـحـوتُ الآن هـذا الـفـلـكَ الـضَّـخـمَ الـبـنـاءِ
ولأنـشـأتُ بـنـفـسـي مـن جـديـدٍ فـلـكـاً
يـدركُ الأحـرارُ فـيـه مـا اشـتـهـوا، دون عـنـاء!

- ٩٠ -

إن فـعـل الـخـيـرِ والـشـرِّ لـفـي طـبـع الـبـشـرْ
وأرى الأفـراحَ والأتـراحَ مـن فـعـل الـقـدَرْ
لا تُـحِـلْ شـيـئـاً عـلـى الأفـلاك قـد أكـبـرتَ أمـرَهْ
فـهـي أشـقَـى فـي طـريـق الـعـقـل مـنـكـم ألـف مـرَّةْ!

- ٩١ -

قـال لـي فـي أُذْنِ قـلـبي الـفـلـكُ الـدوَّارُ هـمـسـا :
أتظنُّ الـحـكـمَ حـكـمـي فـي الـورى سـعـداً ونـحـسـا؟
أنـا لـو كـان بـأمـري دَوَرانـي فـي مـدارى
لأرَحْـتُ الآن نـفـسـي مـن هـيـامـي ودُوَاري!

٦

هل من مُنَازل؟ (الغاز الوجود)

﴿ـ ٩٢ ـ﴾

جاءَ بي في البدءِ مضطرّاً إلى دنيا الترابِ
حائراً ما ازدَدْتُ فيها غير جهلٍ واضطرابِ
ثمّ ولّيتُ برغمي.. غيرَ دارٍ في إيابي
لمَ قد كان مجيئي، ومُقَامي، وذهابي!

ـ ٩٣ ـ *

ما أفاد الفلكُ الدوّارُ ربحاً من حياتي!
لا ولا زاد جمالاً أو جلالاً بوفاتي!
أنا لم أسمع مدى عمريَ في دار الشتات
ما هو المقصود فيها من حياتي ومماتي؟

﴿ـ ٩٤ ـ *﴾

ومَدَارٍ فيه جئنا وذهبنا نتقلّبْ
خَفِيَ الأوّلُ والآخرُ منه وتحجَّبْ
أفما من فطِنٍ يأتي برأيٍ صائبٍ
منبئاً من أين جئنا، وإلى أين سنذهب؟

- ٩٥ -

بَلْقَعٌ يُولد فيه وجَلٌ أو خطَرُ
لم يزدني فيه إلا حيرةً ما أنظرُ
ليس معلوماً إلى أين ومن أين نرى
فيه ركباً يتوارى وسواه يظهرُ

- ٩٦ -

ويح قلبي، ضاع رأسُ المال من أيدي الأملْ
ولكم أدمَتْ من الأكباد أظفارُ الأجلْ
لم يجئْ من ذلك العالَمِ من أسأله:
كيف صارت حالُ من أمسى من الدنيا ارتحل؟

- ٩٧ -

إنما حظك يا قلبُ جِراحٌ وضَنَى
كلَّ يومٍ لك حالٌ بعد حالٍ تتحوَّلْ
ولماذا أنتَ يا روح حللتَ البدَنا
برهةً ما دمتَ في عاقبة الأمر سترحل؟

- ٩٨ -

قطرةٌ كانت من الماءِ إلى البحر مضَتْ
ذَرَّةٌ كانت من الأرض إلى الأرضِ انتهَتْ
فأجبني، جئتَ هذا الكون من جرّاءِ ماذا؟
بقّةٌ جاءت فطَنَّتْ، ظهرت ثم اختفتْ!

- ٩٩ -

أنا إن كنتُ فريدَ الحسن، موفور الشبابِ
وردةً خدِّي، وسروأ قامتي، غضّاً إهابي
فلماذا ليت شعري زَان خَلقي واعتنى بي
مُذ جلاني الصانعُ السرمدُ في مَلهَى التراب؟

- ١٠٠ -

هو جامٌ أعجِبَ العقلُ به حتى تدلَّهْ
ولقد قبّله من كَلَفٍ سبعين قُبلَه!
يا لَخزّاف القضا، يُبدع جاماً مثل هذا
وتراه يضربُ الأرضَ به من غير علّه!

- ١٠١ -

هيَ كأسٌ حَسُنَتْ صنعاً، فما أرشقها!
يا ترى هل يملك السكرانُ أن يسحقَها؟
كم خدودٍ لغوانٍ، ونهودٍ، وقدودٍ
حبُّ مَنْ ألّفها، أو حقدُ مَنْ مزّقها؟

- ١٠٢ -

ربَّ طاسٍ ذهبيٍّ - كيف أسرَى في البدايه؟
وأساس مُحكمٍ. كيف سيهوِي في النهايه؟
ذاك سرٌّ ليس يُدرَى بقياس وعنايه
لا ولا يوزن في ميزان عقل ودرايه

٧

ثورة على العقل

ـ ١٠٣ ـ

ليس هذا الفلكُ الجاري الذي فيه اختلفنا
غير فانوسِ خيالٍ، شَبَهاً منه عرفنا
هو فانوسٌ كأنّ الشمس مصباحٌ له
وكأنّا صُوَرٌ فيه، أتينا وانصرفنا!

ـ ١٠٤ ـ

لا تَسَلْ ما ذلك النقشُ المجازيُّ العَجَبْ
إن أقُلْ ما هو، طال الشرحُ فيه وانشعبْ
هو نقشٌ جاء من أعماق بحرٍ فبدا
وإلى أعماق ذاك البحر ولّى فاحتجبْ!

ـ ١٠٥ ـ *

إنه بحرُ وجودٍ جاءَ من طيِّ الخفاء
دُرَّةٌ للبحثِ لم تُثقَبْ بعلم أو ذكاء
كلُّهم جاءَ بقولٍ من تَظَنٍّ وهراء
غير أنّ الحقَّ لم يَظْهَرْ عليه ابنُ فناء

- ١٠٦ -

لم يُتَخ قطُّ لإنسٍ حلُّ أسرارِ الأزلْ
أو خروجٌ عن حدود الطبع شبراً، أو أقلْ
أُنظرِ الناسَ من الأستاذِ حتى المبتدي
لا تَجِدْ عند ابنِ أنثى غير عجزٍ باليد!

- ١٠٧ -

أيكةُ التحقيق لم تثمر بأرضٍ أو زمانِ
ذاك ألاَّ كُفءَ في غمرة هذا المعمعانِ
كلّهم هزَّ بكفِّ العجز غصنَ الأملِ
فافرضِ اليوم كأمسٍ، وغداً كالأزل!

- ١٠٨ -

لا أنا الدّارِي ولا أنت بأسرار الأزلْ
لا أنا القارِي ولا أنت المعمَّى قد عَضَلْ
إن ما أحكي وما تحكي لمن خلف ستارِ
لا أنا الباقي ولا أنت إذا السترُ زَحَلْ!

- ١٠٩ -

إن من صاروا محيطَ العلم بين العالمينْ
وغدَوْا في الفضل مصباحَ الهُدَى للمهتدينْ
لم يشقُّوا من دجى الشكّ طريقاً ليقين
إنما قصُّوا أساطيرَ وناموا بعد حينْ!

- ١١٠ -

رُبَّ جهّالٍ قُدامَى ثقبوا دُرَّ المعاني
قد هذَوْا في الفلك الجاري ضروب الهذيانِ
ثم لما عجزوا عن دَرْكِ أسرار الحياةِ
أطرقوا بالذقن حيناً، ثم غطُّوا في السُّبات!

- ١١١ -

يا لَرَهْطٍ طَوَّفُوا الأرضَ وجابوا الخافقَيْن
ذرعوا في طلب الدنيا فجاجَ الدنيوين
لستُ أدري، أتراهم بعد هذا كلِّه
عرفوا شيئاً من الحقِّ بإحدى الحالتين!

- ١١٢ - * ❖

حارَ قومٌ بين شكٍّ ويقينٍ، يا صديقُ
وأطال الفكرَ في المذهب والدين فريقُ
أنا أخشى أن يُنادَى ذاتَ يوم: أن أفيقوا
أيها الجهَّال، لا هذا ولا ذاك الطريقُ!

- ١١٣ -

يا لأَسرى العقل والتَّمييز، كم أضواهُمُ الغَمّ!
في هوى الموجود والمعدوم لاقَوْا أمَّ قشعَمْ!
فاطلب الجهل وعاقرْ بنتَ عنقودٍ، فكم كمْ
عالِمٍ صار زبيباً وهو لمَّا يتحضرَمْ

- ١١٤ -

هؤلاء المنفقون العمرَ في عقلٍ وفكرٍ
عبثاً - هيهات أن يحتلبوا ضرعاً لثور!
كان أولَى لهُمُ أن يرتدوا بزَّةَ جهلٍ
فلعمري ما يباع اليومَ كرَّاثٌ بعقلٍ!

- ١١٥ -

يا فتًى مِنْ صولجان الدهر كالأكْرةِ يجري
سِرْ شَمالاً ويميناً، ثم لا تنطق بأمر
إن من ألقاك في المحنة من كَرٍّ وفَرّ
هو يدري، وهو يدري، وهو يدري، وهو يدري!

- ١١٦ - *

إن قلبي أبداً لم يُحْرَمِ العلمَ لعمري
وقليلٌ ما اختَفى عنِّيَ مِن مكنونِ سرِّ
بيد أني اليوم في السبعين إذ راجعتُ فكري
صرتُ أدري كيف أني أبداً ما كنتُ أدري!

- ١١٧ -

أطلبِ الجهلَ، أخا العقل، وعِشْ في جذَلِ
تشربِ الخمرةَ من أيدي سُكارَى الأزل!
أيها الجاهل، ليس الجهلُ فنّاً لك مُلْقى
إن من لا يدرك الجهلَ هو الجاهل حقّا!

٨

الموت في الميدان (فناء البقاء)

ـ ١١٨ ـ ❖

ذهبَ الأحبابُ طراً من خليلٍ وجليسِ
مذ تراموْا تحت أقدام المنايا في الرموسِ
مجلسُ العمرِ سَقَانا من شرابٍ واحدِ
فإذا السَّكرةُ تَغرُو الصَّحبَ قبلي بكؤوسِ!

ـ ١١٩ ـ

يا قبوراً صار أهلوها صعيداً في الصعيدِ
وتجافَوْا ذَرَّةً عن ذرّةٍ تحت اللحودِ
أيّ جامٍ ذا الذي لم يفرغوا من شُرْبِه
فإذا هم ذهلوا عن كلِّ شيءٍ في الوجود؟

ـ ١٢٠ ـ

خبِّروني، أين محصولُ مجيئي وذهابي؟
وشِبَاكٌ نُسِجَتْ من خيط عمري ورغابي؟
كم نحورٍ، وخمورٍ وشعور للحسانْ
أحرَقَ الدهرُ فصارت عَدَماً، أين الدخانْ؟

- ١٢١ - ❊ ❖

أيها العينُ انظري الأجداث إن كنتِ تَرَيْنْ
وانظري الآفات في الدنيا ملأْنَ الخافقين
كم رجالٍ ضمَّت الأرضُ ملوكاً ورعايا
ووجوهٍ أكل النملُ كأقمار اللّجين

- ١٢٢ - ❊ ❖

المولُون القُدَامَى والحديثون الُجدُدْ
ركضوا خلفَ الأمانيِّ قليلاً أيَّ ركضِ
إنه كونٌ قديمٌ ليس يَبقَى لأحدْ
قد أتينا وسنمضي، وسيأتي من سيمضي!

- ١٢٣ -

في ذُرَى قلعة طُوسٍ بَصُرَتْ عيني بطيرِ
يتروَّى قحفَ (كيكاووسَ) طوراً بعد طورِ
ويناجيه حزيناً: لهف عمري، لهف عمري
أين أجراسٌ وأطبالٌ تدوِّي، ليت شعري؟

- ١٢٤ - ❖

يا لَجَمشيدَ وقصرٍ كان فيه يشربُ
وَلَدَتْ فيه ظباءٌ، واستكنَّ الثعلبُ
يا لَبَهرامَ الذي كان يصيد العَيْرَ عمراً
أرأيتَ القبر كيف اصطاده لا يَرهبُ؟

- ١٢٥ -

ربَّ قصرٍ زَحَمَ الأفلاكَ يوماً منكباه
وملوكٍ عفَّرَتْ حُرَّ النَّواصي في ثراه
وقعتْ عيني على فاختةٍ فوق ذُرَاه
قعدت تندبُ أهليه وتنعَى مَنْ بناه

- ١٢٦ -

إنما التدميرُ من حقدك يا هذا الفلك
والأذى والجورُ دأبٌ من قديم كان لكْ!
أسفاً يا أرضُ، لو يُفْتَحُ عن صدرك يوماً
فلكم من جوهرٍ فيه نفيسٍ قد سَلَكْ

- ١٢٧ -

أيها المفتون بالدنيا، ألا كفكِفْ جواك
أفلا فكَّرت في صَرْفِ الليالي إن دهاك؟
إدَّكِرْ آخرَ أنفاسك، واستجمع نُهاك
وتأمَّلْ ما أفاعيل الليالي بسواك!

- ١٢٨ -

كان من قبلك في الدنيا رجالٌ ونساءُ
زيَّنوا الآفاق، كالأنجم لاحوا وأضاءوا
سوف يغدو جسمُك المختالُ طيناً، فهو طينٌ
كان جسماً لألوف الناس من قبلك جاءوا!

- ١٢٩ - *

كــان مــن قـبــلــي ومــن قــبــلــك لـيــلٌ ونــهــارُ
ونـــجـــومٌ زاهـــراتٌ فـــي الـــسَّـــمـــوات تُـــدارُ
فـاعـتـبـر وامـشِ عـلـى الأرض رويـداً، حـيـن تـمـشـى
إنـــمـــا مَـــوْطِـــئُ نَـــعْـــلَـــيْـــكَ لَـــعَـــيْـــنٌ أو عـــذار!

- ١٣٠ -

نــحــن إمّــا ارتــحــل الــروحُ غــداً عــن جــســدَيْــنــا
ركــزوا آجُــرَّتَــيْ طــيــنٍ بــرأسَــيْ مــرقــدَيْــنــا
فـــإذا هـــم طـــلـــبـــوا آجـــرَّ لـــحـــدٍ لـــســـوانـــا
سـكـبـوا الـصَّـلـصـالَ فـي الـقـالـب مـن حـافـرتَـيْـنـا!

- ١٣١ -

كــم إلــى كــم يــتــصــبَّــاك هــوى لــونٍ وريــحِ؟
وإلــى كــم تــقــتــفــي كــلَّ جــمــيــلٍ وقــبــيــحِ؟
إن تــكــن مــاءَ حــيــاة الــخــلــد أو يــنــبــوعَ زمــزَمْ
فـسـتـمـضـي غـائـراً فـي الأرض يـومـاً، فـكـأن لـم..

- ١٣٢ -

أفــتــدري مــا يــريــد الــديــكُ فــجــراً بــالــصــيــاحِ؟
وهــو لا يــنــفــكُّ يَــزْقُــو فــي صــريــخٍ ونُــوَاحِ؟
هــو يــعــنــي: عــرضــوا فــي لــوح مــرآةِ الــصَّــبــاحِ
أنَّ يــومــاً مــات مــن عــمــرك إذ لــســتَ بــصــاحــي!

- ١٣٣ - *

كـنـتَ لا تـحـتـاجُ نـومـاً وطـعـامـاً ودَعَـة
قـبـل أن يـحـوجـهـنَّ الـشـركـاءُ الأربـعـة
كـلـهـا يـأخـذُ مـا أعـطـاك يـومـاً عـن سَـعَـه
فـسـتـغـدو كـالـذي كـنـتَ مـتـى مـا استـرجـعـه!

- ١٣٤ - *

ويـح أرضٍ قـطُّ لا تـشـبـع مـن أكـل الـوَرَى!
وسـمـاءٍ قـطُّ لا تـسـمـع أمـراً لـلـفـتـى
إنـمـا غـرَّك أنَّ الأرض لـم تـأكـلْـكَ، فـاصـبِـرْ
لا تـعـجَّـل، سـتـوافـيـك، فـمـا فـات الـمـدى!

- ١٣٥ -

إنّ مـن جـاءوا وفـاروا فـي شـؤونٍ وشـجـونْ
مـسـتـهـامـيـن بـدلٍّ، أو بـخـمـرٍ مـنـتـشـيـنْ
شـربـوا كـأسـاً فـضـجُّـوا، وتـهـاوَوْا ذاهـلـيـنْ
وهـمُ مـعـتـنـقـون الـيـومَ فـي نـوم الـمـنـون!

- ١٣٦ -

إنـنـي أُلـفِـي عـلـى فـرشِ الـتـرابِ الـنـائـمـيـنْ
وأرى تـحـتَ طـبـاق الأرض رهـطَ الـمـخـتـفـيـنْ
كـلـمـا سرَّحـتُ طـرفـي فـي مـفـازات الـمـنـونْ
بـصُـرَتْ عـيـنـي بـمـن لـم يَـقـدَمـوا والـراحـلـيـنْ!

- ١٣٧ -

طالما طُفْنَا بعمرانٍ وشاهدنا يبابا
وسلكنا في فجاج الأرض غوراً وهضابا
لم نَجِدْ مَنْ عادَ من هذا الطريق المترامي
سكّةٌ مَنْ سارَ فيها لم يجِدْ منها مآبا!

- ١٣٨ -

ربَّ طاسٍ جوَّدُوا الصنعةَ فيه ماهرين
حَطمُوه ورَموْه في طريق العابرين
فاحذروا لا تطأُوه إن مشيتم، سادرين
فلقد صاغوه من طاس رؤوس الغابرين!

- ١٣٩ - *

إنني حطّمتُ دنًّا للحميّا مَوْهِنا
ثملاً كنتُ فكان الفعلُ منى أرعنا!
فسمعتُ الدنَّ يشكو قائلاً: يا ابنَ الفنا
إننا مثلك كنا، وستغدو مثلنا!

- ١٤٠ -

كان هذا الكوزُ مثلي، عاشقاً جدَّ كئيبِ
سحرته طرّةُ المحبوبِ بالحسن العجيبِ
وتأمّل عروةً في جيده مُونقةً
فلقد كانت ذراعاً طوَّقتْ جِيدَ حبيبِ!

\- ١٤١ - *

ربَّ كــوزٍ يــشــرب الــمــاءَ بــه كــلُّ أجــيــرِ
صــنــعــوه مــن مــآقــي الــمَــلْــك أو قــلــب الــوزيــرِ
كــلُّ جــامٍ فــي يــد الــمــخــمــور قــد صــاغــوه مــن
عــارضَــيْ ســكــرانَ أو ثــغــرِ حَــصَــانٍ فــي الــخــدورِ

\- ١٤٢ - * ❖

إنــنــي ابــتَــعْــتُ مــن الــكــوّاز كــوزاً ذاتَ مــرَّهْ
فــحــكــى لــي الــكــوزُ مــا لاقَــى، وأفــشَــى لــيَ ســرَّهْ
قــال: إنــي كــنــتُ ســلــطــانــاً مــن الــعــســجــد جــامــي
وغــدوتُ الآن لــلــخــمَّــار يــا ويــلــيَ جــرَّهْ!

\- ١٤٣ -

نَــابَــنِــي فــي مــعــمــل الــكــوَّاز فــكــرٌ فــي الأمــوزْ
هــهــنــا الأســتــاذُ يــجــثــو عــنــد دولاب يــدوزْ
مــنــشــئــاً لــلــكــوز رأســاً ويــداً - يــا لَــلْــجَــســور
مــن مــحــيّــا مَــلِــكٍ أو كــفّ شــحــاذٍ فــقــيــر!

\- ١٤٤ -

انــظــر الــكــوَّاز فــي مــعــمــلــه عــن كــثَــبِ
مــبــدعــاً مــن طــيــنــه كــلَّ طــريــفٍ مُــعْــجِــبِ
كــلــمــا أبــصــرتُ كــوزاً - وإن كــان الــغــبــي
لا يــرى شــيــئــاً - أرى فــي كــفّــه طــيــنَ أبــي!

* ـ ١٤٥ ـ *

لاح لـي فـي مـصـنـع الـخـزّاف إذ جـئـتُ أراهُ

ألـفُ كـمـوزٍ، نـاطـقٍ أو صـامـتٍ أطـبـق فـاهُ

سـألـتـنـي إذ رأتـنـي بـلـسـان الـحـال: مَـنْ

بـائـعُ الـكـوز، وشـارِبُـهِ، وكـوّازٌ بَـرَاهُ؟

ـ ١٤٦ ـ

ولـقـد شـاهـدتُ خـزّافـاً دَؤوبـاً لا يَـنِـي

يـركـلُ الـطـيـنَ عـلـى الـدكّـة كـالـمـمـتـهـنِ!

وإذا بـالـطـيـن يـشـكـو بـلُـغـاهُ قـائـلاً:

كـنـتُ يـومـاً مـثـلـك الـيـومَ، فـأسْـجِـحْ وارعَـنـي!

ـ ١٤٧ ـ

شُـفْـتُ فـي بـعـض الـمـبـانـي رجـلاً فـرداً حـقـيـرا

يـركـلُ الـطـيـنَ بـرجـلـه امـتـهـانـاً وغـرورا

فـسـمـعـتُ الـطـيـن نـادَى بـلـسـان الـحـال: مـهـلاً

أنـت أيـضـاً سـتـقـاسـي مـثـلـيَ الـركـلَ كـثـيـرا!

ـ ١٤٨ ـ

أيـهـا الـكـواز، أمْـسِـكْ وارتـدِعْ إن كـنـتَ تـفـهَـمْ

كـم إلـى كـم تـزدري طـيـنَ الـورى لا تـتـأثَّـمْ؟

أنـت فـي الـدولاب تُـلْـقِـي كـفَّ كـيـخـسـرو الـمـعـظَّـم!

وأسـاريـرَ فـريـدونَ، فـمـاذا تـتـوهَّـمْ؟

ـ ١٤٩ ـ

ويح خزّافين بالطين لهم حِذقٌ مبين
فليطيلوا الفكر فيه، علَّهم يذَّكرون
كم أهانوه بصفعٍ وبلَكْمٍ غافلين
إنه تربة أجسادٍ، فماذا يحسبون؟

﴿ ـ ١٥٠ ـ ﴾

قِفْ تأمَّلْ في ترابٍ تحت رجل الَحيَوانِ
كان أطرافَ الأحبّاء وأعطافَ الغواني
كلُّ آجُرَّةِ طينٍ في ذُرى هذي القصور
لهِيَ كفٌّ لمليك، أو جبينٌ لوزير

* ـ ١٥١ ـ *

صاحِ ما من ذَرَّةٍ في الأرضِ من شرقٍ وغربِ
لم تكن طلعةَ محبوبٍ سَبَتْ مهجةَ صبٍّ!
فترفَّقْ بالثَّرى تنفضُه عن خدٍّ حِبٍّ
فهو أيضاً كان خدّاً لحبيبٍ كان يَسبِي!

﴿ ـ ١٥٢ ـ ﴾

يا لَزهرٍ مُونقٍ رفّ على شِطِّءِ الغديرِ
أتراه قد نما فوق خدودٍ وثغور؟
فتيقَّظَ، لا تَطَأْه باحتقارٍ وغرور
فلقد أينع من تربةِ وجهٍ كالزهور

- ١٥٣ -

كلما شاهدتَ في البطحاء أزهار الشقائقْ
فتذكَّر أنها قد نبتت من دَمِ عاشقْ!
وتأمل هذه الزهرة من هذا البنفسجْ
فهي خالٌ كان في خدِّ مليحٍ يتوهَّجْ!

- ١٥٤ - * ❖

انظر الوردةَ فكَّت جيْبَهَا ريحُ الصَّبَا
فانتشى البلبلُ وجداً، وتغنَّى طربا
إجلس الآن إلى الورد، فكم من مرّةٍ
خرجَ الوردُ من الأرض وفيها احتجبا!

- ١٥٥ -

وردةٌ قصَّتْ حديثاً للصَّبا وانتفضَتْ
نَفضَتِ الثوبَ صباحاً، ثم مالت فقضَتْ!
يا لَغدرِ الدهر، في عشرة أيامٍ قصارِ
برعماً صارت، فصارت وردةً، ثم مضت!

- ١٥٦ -

تَبَّتِ الأفلاكُ، لم تُخْرِجْ من الأرضين زهره
مرَّةً إلا ووارتها الثرى ثانيَ مرَّه!
لو أقلَّت بَدلَ الماء الثَّرَى تلك الغمامه
أمطرت من دمِ أحبابٍ إلى يوم القيامه!

- ١٥٧ -

كم ستبقَى بعدنا الدنيا ونبلَى في اللحودْ
حين يعفو الرسمُ والأسماء منا والعهودْ
لم نكن قبلُ فما كان اختلالٌ في الدُّنى
وسنمضي وسيبقَى كالذي كان الوجودْ!

- ١٥٨ - *

قد حلَلْنا معضلاتِ الكون طرّاً للملَلْ
من حضيض الأرض تاللّه إلى أوج زحلْ
ووثبنا من أحابيل خداعٍ وحِيَلْ
ففضحنا كلَّ سرٍ.. ما عدا سرَّ الأجلْ!

٩

فشل الثورة (مآسى الحياة)

ـ ١٥٩ ـ

غبرتْ دنيا شبابي، وانطوت طيَّ الكتابِ
فتبدَّلتُ شتاءً من ربيعٍ مستطابِ
ويح طيرٍ غَرِدٍ كان يُسمَّى بالشباب
لا أرى كيف أتى أو كيف ولّى، يا صحابي!

ـ ١٦٠ ـ *

حَنَتِ الأيامُ عودي، ورمتني من عَلاءِ
وتردَّت بي أموري، ومضى عنى مضائي!
قلتُ لما أزمع الروحُ رحيلاً: قد تولّى!
قال: إن الدّار تنهار، فقل لي ما بقائي؟

ـ ١٦١ ـ *

ويح عمري، كله إخفاقُ سعيٍ وضجَرْ
أبداً ينقصُ فيه الصَّفْو أو يربو الكدرْ!
أحمَد اللّه، فما من محنةٍ أحوجني
قطُّ أن أطلبها من أحدٍ بين البشرْ!

يا لمن أعطَى ضحوكَ الثَّغرِ للغيد الوِضءِ
كيف أعطى داميَ القلب لرهط التعساء
فإذا لم يُؤْتنا البهجة لم نَأْسَ عليها
قد حبانا ألفَ مأساة، فأكثِرْ بالعطاء!

- ١٦٣ -

هو عيشٌ يتولّى بعضُه في إثْر بعضِ
فتأمّلْ كيف يمضي العمرُ بالحزن الممضّ!
إنني لم أعرف الغبطةَ والراحةَ عمري
فسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتي وتمضي!

- ١٦٤ -

قد تولّتْ سَمَكاً من شَبَكِ آمالُ عمري
ومضى العيشُ كما تمضى سدًى ليلةُ سكر!
وحياةٍ لحظةٌ منها تُساوِي كلَّ دهرِ
كيف ضاعت من يدي في غير شيءٍ، يا لخُسْري!

- ١٦٥ -

يا خليليَّ، تعبنا عبثاً حتى بَلِينا
ورمانا منجلُ الدهر شمالاً ويمينا
لهف نفسي، لهف نفسي، لم نكد نفتح عيناً
في حياةٍ لم تكن وفق المنى حتى فَنِينا!

كالعصافير وقعنا في أحابيل الزمانِ
متعَبي القلبِ، حيارَى بين أيدي الحدَثانِ
حولنا دائرةٌ لا بابَ أو سطحَ لها
لم نجئ فيها ولم نذهب وفاقاً للأماني!

- ١٦٧ -

إن هذا الدهر لا يجري كما نرجو ونهوَى
فمِنَ التفكير والسَّعيِ نُرَجِّي أيَّ جدوَى
قد قعدنا أبداً في حسراتٍ آسفين
إننا جئنا بِطاءً وسنمضي مسرعين

- ١٦٨ -

لستَ تدري لِمَ السَّرْوُ والسوسنُ سِيره
أبداً تمضغها الأفواهُ في كلِّ عشيره
فلهذا ألسنٌ عشرونَ، لكنْ صامتاتٌ
ولذا ألفُ يدٍ ممدودةٍ، لكن قصيره!

- ١٦٩ -

لُعَبٌ نحن بأيدي الفلك اللاعب نجرى
ليس هذا بمجازٍ، بل هو الحقُّ لعمري
ولعبنا برهةً في مسرح الدهر الخِضَمّ
واختفينا كلُّنا في جوف صندوق العدمْ!

- ١٧٠ -

ليت للراحة مثوى يُبْتَغى، أو مستَقَرًا
أو لهذا الدَّرب من آخرةٍ تُرجى وتُذْرَى
ثم ليت المرءَ من بعد دهور داهراتِ
يُرتَجَى كالعشب أن ينبتَ فوق الأرض أخرى!

- ١٧١ -

إنها كالطَّاس مقلوباً هوَتْ هذي السماء
تحتها خرَّ ذَوُو الأفهام، صرعى تعساء
أنظروا للحبِّ بين الدنِّ والكاس، انظروا
لشفاهٍ تتلاقى، بينها تجرِي الدماء!

- ١٧٢ -

يا لقلبي المستهام المتداعِي الخاسرِ
ما صحا المسكينُ من عشقِ الحبيب الساحرِ
منذ أعطَوني شرابَ العشق يوماً بيدي
مزجُوا كأسيَ مزيجاً بدماء الكبِدِ!

- ١٧٣ -

وحبيبٍ بالتجافي لوَّعَ القلبَ العليلا
ذاق مثلى في مكانٍ آخَرَ الحزنَ الطويلا!
أنا ما لي أطلب البرءَ لنفسي في الهوى
وطبيبي بات مثلى يشتكي الداءَ الوبيلا؟!

- ١٧٤ -

آه.. لا يبلغُ وردَ الخدِّ صبٌّ في جهادِهْ
دون أن يبلغ شوكُ الدهر سوداءَ فؤاده
أنظر المشط، لقد شُقَّ له سبعون ضلعاً
قبل أن يظفر من فرقٍ مليحٍ بمراده!

- ١٧٥ -

يا فؤادي، لا تَرُمْ عارفةً عند الزمانِ
لا تَرُمْ منه ثراءً أو عَلاءً في مكانِ
إن تطلبت دواءً زدت في دائك داءَ
فارضَ بالداء ولا تطلب من الدهر شفاءَ

- ١٧٦ - *

صاح مهما زيَّنوا الكونَ ومهما زخرفوا
لك - فاصدِفْ عنه، فالعاقل عنه يصدفُ
كم نظيرٍ لك يمضِي ونظيرٍ لك يأتي
فاختطف حظَّك منه قبلما تُختَطَفُ!

- ١٧٧ -

يا صديقي، كم طوافُ الأرض أو طيُّ البلادِ؟
تتوخَّى حاجةَ الجسم وأطماع الفؤادِ؟
سنولِّي مثل من ولَّوا، ويأتي من يولِّي
دون أنْ يحظى ابنُ أنثى في حياةٍ بالمراد

- ١٧٨ -

إن تكن طالت همومي واستبدَّت بيَ حقبه
وتولَّتك المسراتُ فما فاتتك رغبه
فذَرِ الحالين، لا تركَنْ إلى أيِّهما
إن هذا الدهرَ خلفَ السِّتر يُخفِي ألفَ لعبه!

- ١٧٩ -

إنما تَطْعَمُ من مطبخ دنياك الدُّخَانَا
فإلى كم همٌّ ما لم يكُ في الدهر وكانَا؟
هذه الدنيا على أبنائها خُسْرٌ جسامٌ
فاترك الخسرَ يكنْ حظك ربحاً وأمانَا!

- ١٨٠ -

استمع نصحيَ يا صفوةَ صحبي القدماء
لا تضِق ذرعاً بكونٍ دون سِفْلٍ وعَلاء
إتخذ زاويةً تقبعُ فيها قانعاً
واشهدَنْ أُلعوبة الأفلاك في هذا الفِنَاء!

- ١٨١ -

السَّعيدُ الحقُّ من لم يكُ معروفَ المكانِ
لم يَصِرْ في فوطةٍ، أو جُبَّةٍ، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء، قد طَارَ عن الدَّارَيْن طرًّا
لم يكن مثليَ بُوماً بين أطلال الزمانِ!

- ١٨٢ -

لم نُصِبْ إلا عناءً وبلاءً ومضَرَّةْ
في زمانٍ قد نزلنا في مكانٍ منه مَرَّةْ
وقضينا العمر ما انحلَّت لنا مشكلةٌ
فتولَّينا وفي الأنفس منها ألفُ حسره!

- ١٨٣ -

هذه الأفلاك لم تجرِ على مرجُوِّ حُرِّ
فافترضها سبعةً أو تسعةً إن شئتَ تجري!
والفتى يفنَى ويفنَى ما تمنَّى، فسواءٌ
من غذا النمل بقبرٍ، أو غذا الذئب بقفر!

- ١٨٤ -

سالتِ[1] البطَّةَ فوق النار يوماً سمكه:
أيعودُ الماءُ في الوادي، ويَجرِي مسلَكَه؟
فأجابت: إننا مُتنا وأصبحنا كبابا
فلتكن من بعدنا الأرضون بحراً أو سرابا!

- ١٨٥ -

قالت الوردةُ: إني يوسفُ الروضِ المحبَّبْ
وفمي المملوءُ بالعسجد ياقوتٌ مذهَّبْ!

---

(١) أي سألت. وكثيراً ما وردت هكذا في شعر العرب.

قـلـتُ: هـاتـي حـجَّـةً إن كـنـتِ حـقـاً يـوسـفـاً
قـالـت أنـظـر لـقـمـيـصـي بـدمٍ كـيـف تـخـضَّـبْ؟!

- ١٨٦ -

قـالـت الـوردةُ: لا حـسـنَ إلـى حـسـنـي تـسـامَـى
فَـعـلامَ الـضـيـمُ مـن عـاصـر مـائـي، وإلاما؟
فـأجـاب الـبـلـبـلُ الـشـادي شـجـيّـاً مـسـتـهـامـا:
آه، مَـنْ يـضـحـكُ يـومـاً ثـم لا يُـجـهِـشُ عـامـا؟

- ١٨٧ -

كـنـتُ أسـعـى أمسِ في إثْرِ الـحـمـيّـا والـحـبـيـبِ
فـبـدت لـي وردةٌ ذاويـةٌ قـرب لـهـيـبِ
قلتُ: ما أجرمتِ كي يُصْلُوكِ ناراً، يا جميله؟
فـأجـابـتـنـي: تـبسَّـمـتُ قـلـيـلاً فـي الـخـمـيـلـه!

- ١٨٨ -

أيـن مـن يـحـفـظُ سِـرّاً فـأُنَـبِّـيـه لـفـورِهْ
مـا الـذي مـرَّ عـلـى آدمَ مـن أوّلِ أمـرِهْ؟
مُـبـتـلَـى، صُـوِّرَ مـن طـيـنـةِ غَـمٍ ووَجَـلْ
جـالَ فـي الـدنـيـا شـريـداً - بـرهـةً ثـم ارتـحـلْ!

- ١٨٩ -

إنـمـا الأفـلاكُ مـن أعـمـارنـا الـرثَّـةِ لـمـحَـهْ
إنـمـا جـيـحـونُ مـن مـدمـعـنـا الـمـخـضـوبِ سـفـحَـهْ

وجحيمُ النار من حَرِّ الأَسَى الباطلِ قدحه
ونعيمُ الخلد من راحتنا في العيش نفحه

- ١٩٠ -

أجِدُ العالَمَ غمًّا دائمًا، والدهرَ غُولا!
وأرى الأفلاك آفاتٍ وظلماً وكبولا
كلما فكرتُ في الدنيا أرى المرتاح فيها
ليس موجوداً، فإن كان فقد كان قليلا

- ١٩١ -

هذه الأفلاكُ لا تغدقُ إلا الكَمَد
أعطتِ اليومَ لكي تسلب ما أعطيت ـ غدًا!
لو دَرَى من لم يجيئوا بعدُ دنيانا سدى
ما نقاسي من بلاءٍ لم يجيئوا أبدا!

- ١٩٢ -

إن يكن حقًّا مماتي، فأجبني ما حياتي؟
ولِمَ الأطماع والأوهام في دار الشتات؟
منزلٌ لا يُشْرِكُ النازلُ فيه وادعاً
لِمَ يرضى فيه أن يبقى ويهتمّ لآتي؟

- ١٩٣ -

آه، لو كان مجيئي بيدي ما كنتُ جئتُ
آه، لو كان ذهابي باختياري ما ذهبتُ!

كان خيراً ليَ في دار الفنا لو أنني
لم أكن جئتُ، ولا عدتُ، ولا كنت أقمت!

- ١٩٤ - *

لم أكن يوماً طليقاً قطُّ من أصفاد دهري
لا ولا ذقتُ هناءً لحظةً من كلّ عمري!
قد تتلمذتُ على الدهر طويلاً، غير أني
لم أصِرْ بعدُ بعلم الكون أستاذاً لعمري!

- ١٩٥ -

كلما باعدتُ نفسي زدتُ من نفسي دُنُوًّا!
وأراني أتدلّى كلما رمتُ عُلُوًّا!
يا لها خمر وجودٍ أحتسيها، بيد أنى
كلما ازددتُ بها سكراً أراني ازددت صحوا!

- ١٩٦ - *

نحن منا تنبع البهجة والحزن، وفينا
نحن أصل العدل والجور، أبَيْنا أم رضينا
قد سَمَوْنا وانحطَطْنا، وكملنا ونقصنا
إننا جامٌ تألّقنا، ومرآةٌ صَدِينا!

- ١٩٧ -

نحن أطهاراً أتينا، فاكتسبنا وَضَرا
مستريحي البال كنا، فامتلأنا كدَرا

وجرَيْنا من لهيب القلب في ماء المآقي
وطرحنا العمر في الريح، وصرنا في الثرى..

- ١٩٨ -

قد نزلنا هذه الدار بطاءً مُذْ نزلنا
وانحطَطْنا عن عُلا الإنسان فيها، وذَلَلْنا
وحياةٍ زوَّدتنا غير ما كنّا أمَلْنَا
ليتها كانت تولّت، فلعمري قد مَلَلْنا!

- ١٩٩ -

إنني في الفلك الدائر مكروبٌ جَنَاني
ناقم النفس على خِسَّة طبعي، وهواني
لم يَصِلْ علميَ أن أفقه أسرار الزمان
أو يصل حزميَ أن أفرغ في دنيا الأماني!

- ٢٠٠ -

خَاطَ للحكمة خيامٌ خياماً وارتحلْ
مذ هوَى المسكين في أتّون حزنٍ، واشتعل!
قطعتْ أطنابَ دنياه مقاريضُ الأجل
ورخيصاً باعه في السوق دلالُ الأمل!

- ٢٠١ -

ألقَتِ الأفلاكُ يا خيامُ في برِّ الأزلْ
خيمةً كبرى، وسدَّتْ باب قولٍ وجدَلْ

ولـقـد أحـدث سـاقـي الـدهـر فـي جـام الـقـضـا
ألـف خـيـامٍ لـعـمـري، كـالـحـبـاب الـمـرتـجـل!

ـ ٢٠٢ ـ ❁ ❖

قـد تـرحّـلـنـا، فـمـا فـي جـور هـذا الـمـنـزلِ
غـيـر قـبـض الـريـح مـن مـسـتـقـبـل أو أمـلِ
فـاكـروا مـوتـيَ لا بـالـحـزن، بـل بـالـجـذل
فـقـد اسـطـعـتُ خـلاصـاً مـن عـوادي الأجـل!

١٠

فرار الثائر (عدم الوجود)

ـ ٢٠٣ ـ

دع شــرابَ الــعــيــش يــصــفــو تــارةً أو يــتــعــكّــرْ
ولــتــكــن كــســوتــنــا الــطّــمْــرَ أو الــبُــرْدَ الــمــحــبَّــرْ
كــلُّ هــذا عــنــد ذي الــنُّــهــيــة جَــهْــلٌ وهــراءْ
أفــســهــلٌ حــادث الــمــوت لــدى عــقــلٍ تــدبَّــرْ؟

ـ ٢٠٤ ـ

يــا أخــا الــعــقــل، حــديــثُ الــغــد أوهــامٌ فــطــيــره
الــتــبــاهــي بــالأقــاويــل ادّعــاءات غــريــره
يــعــلــم الــيــومَ لــعــمــري كــلُّ دارٍ ذي بــصــيــره
أن هــذا الــكــون طــرّاً.. لــحــظــةُ الــحــال الــقــصــيــره!

ـ ٢٠٥ ـ

لــقــد لــزمــنــا فــي صــبــانــا مــجــلــسَ الأســتــاذ حــيــنــا
ودُعِــيــنــا بــعــدُ أســتــاذاً فــفــزنــا ورضــيــنــا!
فــاســتــمــع آخــرةَ الأمــر إلــى أيــن انــتــهَــيْــنــا:
مــن ثــرى الأرض خــرجــنــا، ومــع الــريــح مــضَــيْــنــا..

- ٢٠٦ -

دعك مما تطلبُ الأفراحَ، فالعمرُ قصيرْ
والثرى أشلاءُ جمشيدَ وبهرامَ الجسورْ
إنما أحوالُ هذا العيش في دار الفنا
لمنامٌ، وخيالٌ، وخداعٌ، وغرورْ

- ٢٠٧ -

أنت لا تهلك إلا مرّةً، يا ابن الفناءْ
ويك فاهلك مرّة وارتَخِ، فما هذا الشقاءْ؟
إنها حفنة أنجاسٍ وجلدٍ ودماءْ
فافترضها لم تكن قط، ودع عنك البكاءْ!

- ٢٠٨ -

إن ملكتْ الصينَ والرُّومَ، وسخَّرت العبابا
وحكمتَ الأرض طرّاً، وتبوّأتَ السحابا
فتيقّن أنَّ حظَّينا من الدنيا أخيراً
عشرةٌ أذرعَ بزٌّ، وذراعان ترابا..

- ٢٠٩ -

يا فؤادي، هَبْك حقّقتَ الذي رجَّيت كلَّه
فازدهى روضُ مسرّاتك في أبهج حُلَّهْ
فكأني بك طَلٌّ ظَلْتَ فوق الزهر ليله
وتبخّرت صباحاً، فكأن لم تكُ وهله!

- ٢١٠ -

إفرض الدهرَ بما تأمرُ مَرًّا ثم ماذا؟
وافترض أن قد قرأت الكونَ سِفرا ثم ماذا؟
هَبْك قد عشتَ سعيد القلب عصرا ثم ماذا؟
ثم بعد العصر عصراً، أو فدهرا ثم ماذا؟

- ٢١١ -

إن تَعِشْ قرنين أو ألفين في دار الفناء
فستُلْقَى خارج المنزل، من غير مراء
ولتكن شحَّاذَ سوقٍ، أو أمير الأمراء
فكلا سعرَيْهما في آخر الأمر سواء!

- ٢١٢ -

يا صديقي، كلُّ معدومٍ هباءٌ في هواء
كلُّ موجودٍ به نقصٌ وسرٌّ للعَفَاء
فَهبِ المعدومَ موجوداً ودع عنك الأسى
وهب الموجود معدوماً ودع عنك العناء

- ٢١٣ -

إن من فكَّر في الدنيا ابتداءً وانتهاءَ
وجد الأفراحَ والأتراحَ في الدنيا سواءَ
ومصيرُ الطِّيبِ والخبث إذا كان الفناءَ
فلتكن إن شئتَ داءً كلَّها، أو فدواءَ!

ـ ٢١٤ ـ

يستوي حسنٌ وقبيحٌ في عيون الباحثين
وجحيمٌ ونعيمٌ في مثاوي العاشقين
وحريرٌ وَبلاسٌ كسوةٌ للبائسين
ووسادٌ وحجارٌ لرؤوس اليائسين

ـ ٢١٥ ـ

أنت إن عشتَ سعياً بالحمّيا والمحيّا
وتمتّعتَ بأقصى لذّةٍ، ما دمت حيّا
فستمضي آخر الأمر إلى دنيا فناءٍ
فإذا كلُّ الذي شاهدتَ في دنياك رؤيا!

ـ ٢١٦ ـ

عبثٌ رؤيتك الدنيا.. فهوّن ما رأيت!
عبثٌ ما قلت أو أُسمِعْتَ، من كيتَ وكيت!
عبثٌ ركضك في الآفاق فارْبَعْ، ولعمري
عبثٌ سعيُك في البيت دبيباً، لو دريت!

ـ ٢١٧ ـ

باطلٌ جسمك هذا، أيهذا الغافل
باطلٌ هذا السّماكُ الذهبيُّ الحافل
وأُسِرنا برهةً في دار كونٍ وفسادٍ
فاطرح الهمَّ، فهذا هو أيضاً باطلُ!

١١

في المنفى

أ ـ نخب الهموم

ـ ٢١٨ ـ ❖

إسقني الجريالَ شقراءَ بلون الارجوانِ
أيها الساقي فإني ضاق بالهمّ جناني
إسقنيها تسلب العقلَ ولو بعض أوان
علّني أذهل عن نفسي وأحداث الزمان!

ـ ٢١٩ ـ ❖

جئتُ لكن لم أجِئ عن رغبتي أو طلبي
وسأمضى لا بتدبيري ولا عن أربى!
أيها الساقي فشمّر، وتقدّم بالطُلا
فلنطهّرْ شجَنَ الدنيا بماء العنب!

ـ ٢٢٠ ـ

قم وجئني بدواءٍ يبرئُ القلبَ المعنّى
جئ بتلك الراح، كالمسك شذا والوردِ لونا

كـمـا رمـتَ دواءً مـفـرحـاً يُـفـرج عـنّـا
فـبـيـاقـوت الـحـمـيّـا وحـريـر الـعـود جـئـنـا[1]

- ٢٢١ -

إشـرب الـراح، وفـرّح قـلـبـك الـجـمّ الـشـجـونْ
ثـم أقـلـلْ ذكـرَ مـا كـان ومـا سـوف يـكـونْ
إنـمـا عـاريـة الـنـفـس لـكـالـعـانـي الـسـجـيـن
فـأرخـهـا مـن عـقـال الـعـقـل حـيـنـاً بـعـد حـيـن!

- ٢٢٢ -

إنـنـي الـيـومَ - وهـذا هـو إبّـانُ شـبـابـي
أحـتـسـي الـراح، فـإن الـراح أُنـسـي ورغـابـي
لا تَـعِـبْـهَـا.. مُـرَّةٌ لـكـنّـهـا طـيِّـبَـةٌ
مُـرَّةٌ حـقـاً، ولـكـن كـحـيـاتـي يـا صـحـابـي!

- ٢٢٣ -

حـبـذا الـخـمـرة كـالـوردِ عـلـى وردِ الـخـمـيـلـه
فـاسـقـنـي مـن دمِ هـذا الـجـام، وأسـفـك سـلـسـبـيـلـه
ويـح نـفـسـي، لـيـس لـي فـي هـذه الـدنـيـا جـمـيـعـاً
خـارجَ الـجـام صـديـقٌ طـيّـبٌ صـافـي الـدخـيـلـه!

(١) كان الياقوت والحرير يعدّان من الأجزاء المفرحة في الطب القديم.

- ٢٢٤ -

آه، لـــم يــبــقَ ســوى أســم مــن هـــنــاءٍ ودَدِ
أو ســـلافِ غـــرَّةٍ مـــن صـــاحـــبٍ ذي رَشَـــدِ!
صـاح لا تـقـبِـضْ يـداً عـن كـأس هـذي الـصَّـرخـدِ
إنــه لــم يـبـقَ غـيـر الـكـأس شـيءٌ بـالـيـد..

- ٢٢٥ -

إسـقـنـي مـن ذلـك الـيـاقـوت فـي الـجـام الأغـرّ
مـن ألـيـفِ مـؤنـسٍ كـلُّ كـريـم الـنـفـس حُـرّ
أنـت تـدري أن دنـيـا الأرض لـيـس غـيـر ريـحِ
فـاسـقـني الـصـهـبـاء كي تـسـرع كـالـريـح وتـجـري!

- ٢٢٦ -

إشـرب الـجـريـالَ مـا سـاعـفَ دهـرٌ، واطـرَبَـا
واذْكِـرْ أن لــن يـعـود الـعـمـر إمّـا ذهـبـا
أنـت تـدري أنَّ عـقـبـى هـذه الـدنـيـا خـرابٌ
فـكُ دومـاً بـالـحـمـيّـا أنـت أيـضـاً خَـرِبـا!

- ٢٢٧ -

فـلـيـكُ الـصـبُّ مـعـنّى الـقـلـب، مـوصـولَ الـجـنـونْ
دائـمَ الـسـكـرة، مـفـضـوحـاً، عـلـى مَـرِّ الـسـنـيـنْ!
إنـنـا فـي الـصَّـحـوِ نَـلـقَـى كـلَّ شـيءٍ تـرِحـيـن
فـإذا نـحـن ثـمـلـنـا.. فـلـيـكـن مـا قـد يـكـون!

- ٢٢٨ -

إحتسِ الصهباء واعلم أنها راحةُ روحك
وشفاءٌ لمآسيك، وطبٌّ لجروحك
كلما اجتاحك طوفانُ الأسى من كلِّ صَوْبِ
فتعلَّق بالحميّا، فالحميّا فُلْكُ نوحك!

- ٢٢٩ -

لستُ أحسو الخمر من أجل نشاطٍ أو طَرَبْ
أو خروجٍ عن طريق الدين أو حدِّ الأدبْ
غير أني أشتهي الغفلة عن نفسي قليلاً
إنني من أجل هذا أحتسي بنت العنب!

- ٢٣٠ -

يا نديمي، حين أصحُو يجتويني كلُّ بِشرِ
وإذا أسكرُ يخبو النورُ في مشكاة فكري
إن بين الصَّحوِ والسُّكر لحالاً وَسَطاً
أنا أهواها لعمري، فهي العيش لعمري!

- ٢٣١ -

إن شربتَ الراح فاشربها مع الواعي الذكيِّ
أو مع الدمية ذات الخدِّ كالورد الجنيِّ
ثم لا تُكثِر، ولا تُدمِن، ولا تشتفَّ جهرا
بل أصِبْ منها قليلاً، ثم غِبّاً، ثم سِرّاً

ب ـ نخب الموت

ـ ٢٣٢ ـ

يمرق العمرُ من الأيدي مروقَ الزئبقِ
فاكتسب الجريال يا ساقي، وأطفئْ حُرَقي
هذه نارُ شباب المرء ليست غير ماءِ
وأرى اليقظةَ ليست غير نومٍ مطبقِ

ـ ٢٣٣ ـ

أنا ما لي أجرع الغمَّ لفقري أو ثرائي؟
ولهذا العيش يمضى في شقاءٍ أو هناء؟
أعطني الكأس دهاقاً، لست أدرى أسأحيا
نَفَساً آخر أم في نَفَسي هذا انقضائي!

ـ ٢٣٤ ـ

إن تقضي العمر يا صاحِ استوى حلوٌ ومرّ
واذا ما طفح الكأس استوى مصرٌ ومصرُ
إشرب الراح، فكم بدرٍ سيتلوه محاقٌ
حين نفنَى، ومحاقٍ دامسٍ يتلوه بدرُ

ـ ٢٣٥ ـ

ومَدَارٍ ليس يبدو منه غورٌ أو قرارُ
إرتشف فيه الطلا، فهو على الجور يُدَار!
وإذا ما جاءك الدَّورُ فلا تجزع بحالِ
فهو جامٌ كلُّهم ينهلُ منه بالتوالي

- ٢٣٦ -

قم فشمز واطِرح همَّ الحياة الفانيه
واقضِها باللهو واسعَدْ بالأماني الغاليه
لو غَدَا في خُلُق الدنيا وفاءٌ لقرينْ
لم يجئْ دَوْرُك فيها بعد دور الآخرينْ!

- ٢٣٧ -

أيها الغارس دَوْحَ الحزن في القلب ليشقَى
اتْلُ آيات الهنا، واحيَا رخيَّ البال طلقا
إشرب الراح وخلِّ القلبَ ينعَمْ بالأماني
فمن المعلوم كم في هذه الدنيا ستبقَى

- ٢٣٨ -

كم تقضِّي العمر بالإثرة لا يثنيك قصْدُ؟
متعَباً، في أثر الموجود والمفقود تعدو؟
إشرب الراح، فإنَّ العمر يتلوه الحِمَامْ
لخليقٌ أن تقضِّيه بكسرٍ أو منامْ

- ٢٣٩ -

إنهب اللذّاتِ نهباً من قطوفٍ دانيه
فسيأتي يوم تغشَى كلَّ حيٍّ غاشيه
إكرع القرقف، لا تجرع هموم الفانيه
وذَرِ الهمَّ لمن يُؤْنَى حياةً باقيه!

- ٢٤٠ -

لـيـسـت الـدنـيـا مُـقـامـاً لـك أو دارَ مـثـابِ
فـلـبـيـبٌ مـن غـدا فـيـهـا خـرابـاً بـالـشـرابِ!
صـبَّ مـن مـاء ابـنـة الـكـرم عـلـى نـار الأسـى
قـبـل أن تُـلـقَـى، وفـى كـفـك ريـحٌ، فـي الـتـراب!

- ٢٤١ -

زرع الـدهـرُ كـثـيـراً مـثـلـنـا واحـتـصـدا
فـالأسـى الـبـاطـل لا يـنـفـع مـنـا أحـدا
صُبَّ لي الراح وضعها في يدي، يا ذا المفاتِنْ
أتـرشَّـفْ قـدحـاً آخـرَ، فـالـكـائـن كـائـن!

- ٢٤٢ - *

عـسـعـسَ الـلـيـلُ، فـقـم بـالله يـا كـنـز الـدلالِ
إحـتـسِ الـراحَ ونـاغِ الـعـودَ، حـالاً بـعـد حـالِ
فـالـمـقـيـمـون مـقـيـمـون إلـى غـيـر مـطـالِ
والـذيـن ارتـحـلـوا لـن يـرجـعـوا بـعـد ارتـحـال!

- ٢٤٣ - *

دع فـراش الـنـوم، وانـهـض نـرتـشِـفْ بـنـت الـدنـانِ
قـبـل أن نـجـرع كـأسَ الـمُـرِّ مـن كـفِّ الـزمـان
إن هـذا الـفـلـك الـعـابـس لـن يـمـهـلـنـا
بـرهـةً نـشـربُ فـيـهـا الـمـاءَ يـومـاً فـى أمـان!

- ٢٤٤ -

ذر همـوم الـغـدِ يـا صـاح، وصـبِّـحـنـا بـجـامِ
واغـنـم الـيـوم قـصـيـرَ الـعـيـش، واظـفـر بـالـمـرامِ
فـغـداً إمـا بـرحـنـا مـرَّةً دَيْـرَ الـفـنـا
نـتـسـاوى مـع مـن قـد رحـلـوا مـذ ألـفِ عـام!

- ٢٤٥ - *

هـذه الأفـلاك تـرمـى لـمـمـاتـي ومـمـاتـك
ولـهـا نـيّـةُ سـوءٍ فـي حـيـاتـي وحـيـاتـك!
فـارتـشـف جـامـاً عـلـى الأزهـار فـي نـضـرتـهـا
فـقـريـبـاً تـزدهِـي فـوق رفـاتـي ورفـاتـك!

- ٢٤٦ -

خـذ كـهـذا الـسَّـوسـن الـغـضّ بـيـمـنـاك الـقـدح
ومـع الـحـسـنـاء فـاشـربـهـا، إذا الـحـظُّ سـمـح
إن هـذا الـفـلـك الأزرق طـاغٍ إن جـمـح
وغَـدَا - ألـقـاك أرضـاً كـالـتـراب الـمـطَّـرَح!

- ٢٤٧ - ❖

فـلـكُ الـنـقـمـة مـا بـاح بـسـرٍّ لأحـد
قـد قـضَـى ألـف مـلـيـكٍ، وتـجـنَّـى واسـتـبـد
فـاحـسُـهـا، لـن يـهـبـوا عـمـراً جـديـداً لامـرئٍ
كـلُّ مـن غـادر هـذي الـدار يـومـاً لـم يـعـد

- ٢٤٨ -

لا تعاند قطُّ هذا الفلكَ المستهترا
وارتشفها ما قطنتَ العالَمَ المشتجِرا
أنت في الأول والتالى ثرّى يا صاحبي
فافترض تحت الثرى نفسك، لا فوق الثرى!

- ٢٤٩ -

عش سعيداً واطَّرِح همَّ الزمان الغادرِ
وكُنِ العادل في هذا الطريقِ الجائرِ
آخِرُ الدنيا فناءٌ، فافترض أنك فانٍ
واحيَ في دنياك حرّاً مستريح الخاطرِ

- ٢٥٠ -

كم تعاني من تصاريف الزمان الدائره؟
ترِحاً، قلبك دامٍ، والمآقي فائره؟
إشرب الصهباءَ وافرحْ، واغنم اللذات وامرحْ
قبل أن تُلقى غداً خارج هذي الدائره؟

- ٢٥١ - * ❖

مَنْ مِنَ الغادرين في هذا الطريق المستطيلِ
عادَ كي أسأله عن بعض ما يشفي غليلي؟
إحترس، في مفرق الرغبة والحاجة هذا[1]
لا تدَعْ شيئاً، فما من رجعةٍ بعد الرحيل

---

(١) المفرق بفتح الراء وكسرها: الموضع الذي يتشعب منه الطريق.

- ٢٥٢ -

شَقَّ نورُ البدر جلبابَ الدَّياجي حين لاح
فهو آنٌ لا تُرِدْ أطيبَ منه أن يُتاح
لا تفكِّر، واشرب الراح.. فهذا قمرٌ
كم سيبدو فيرانا هجَّعاً تحت الصفاح!

- ٢٥٣ -

لم يُصِبْ من غدِه في الدهر إنسانٌ ضمانا
فاغنم الآن، وأسعِد قلبَك التَّواقَ آنا
إحتسِ الصهباء يا بدري، هنا في ضوء بدرٍ
كم سيغشى الليلَ بالضوء ولكن لا يرانا!

- ٢٥٤ -

جاء من حانوتنا صوتٌ ينادِي سَحَرا:
يا خليع الحيّ، يا مجنوننا المستهترا!
قم بنا نترع من الصهباء كاساً قبلما
تترع الأيامُ يوماً كأسَنَا المنتَظَرا!

- ٢٥٥ -

إنهض انهض من فراش النوم يا ساقي الشمولِ
هاتِ هاتِ الراح أصفى من زلال السلسبيلِ
صُبَّ في الطاس من الكوز رحيق الخندريسِ
قبل أن يصطنعوا الكيزان من طاس الرؤوسِ!

- ٢٥٦ -

أشرق الصبحُ بهيجاً طيّباً، فذّتك نفسي
فأدِر في الجام ما ظلَّ لنا من خمرِ أمسِ!
أتني كأساً ودعنا اليوم نغنَمْ كل أُنس
فغداً نصبح آجرًّا لقصرٍ أو لرمس!

- ٢٥٧ -

إسقنى المُسطارَ كالمسك شَذا والورد لونا
تُلقِ عبءَ القيل والقالة عن قلبي المعنَّى!
هاتها في الكاس يا ساقي الندامى قبلما
تصنع الأفلاكُ من طيني ومن طينك دنَّا!

- ٢٥٨ -

بفمِ الكوزة ألصقتُ فمي أشفِي الغليلا
أبتغي منها التى تنفحني العمر الطويلا
فحكت لي بلسان الحال هذا السرَّ همساً:
إننى عشتُ كما عشتَ.. فعاشرني قليلا!

- ٢٥٩ -

طرِبَ الزهرُ ورفّ العشب يا ساقي وطابا
فتيقَّنْ أن سيغدو بعد أسبوعٍ ترابا
إجنِ زهراً واحسُ جريالاً، ففي كرَّة طرفِ
تجدُ الزهرَ تراباً ثَمَّ والعشبَ هبابا!

- ٢٦٠ -

غسل الغيمُ خدودَ الرَّبع في وجه الربيعْ
وصحا الدهرُ الكسيرُ القلب من بعد هجوعْ!
فاشرب الراح مع الغادة في الرَّوضِ على
ذكرِ مَنْ فوق ثراه أينع الروضُ يضوعْ!

- ٢٦١ -

يا فؤادي، إن هذا الدهر يُوليك الشَّجَنْ
وستقلو هذه الروحُ غداً هذا البدنْ
فاجلس اليوم على الخضرة وانْعَمْ بهواك
قبل أن تزدهر الخضرةُ يوماً من ثراك!

- ٢٦٢ - *

غسل الغيمُ ضحى النيروزِ أعطافَ الشقيقِ
فأتِنا بالجام تزهر الخمرُ فيه كالعقيقِ
إن في الأزهار إمتاعاً لك اليوم، فأيقِنْ
أنْ ستنمو من ثرى لحدك يوماً، يا صديقي!

- ٢٦٣ - ❖

عادتِ السُّحبُ على الأعشاب تبكي هاميه
أفيحلو العيشُ من دون المدام القانيه؟
ها هي الخضرة ذي نزهتنا، نزهةُ مَنْ
سوف تغدو يوم تغدو من ثرانا زاهيه؟

- ٢٦٤ -

إشرب الخرطومَ كالورد على مشهد وردِ
كلما أُوتيتَ وردَ الخدِّ في سروةِ قدِّ
قبلما يمسي قميصُ العمر في ريح الحِمام
فجأةً مثل قميص الورد مُلقَى في الرغام!

- ٢٦٥ - *

إحملي الدنَّ مع الأقداح، يا سحرَ حياتي
واخطري بين الأزاهير على شطِّ الاضاةِ
فلكم أحدث هذا الدهرُ أقداحاً ودنًّا
للحميّا.. من قدود الغانيات الفاتنات!

جـ - شيوخ الحان

- ٢٦٦ -

أمس عرَّجتُ على الحانوت ليلاً في طريقي
فإذا شيخٌ على منكبه دنُّ الرحيق
قلتُ: ما تخجل يا شيخ من الله تعالى؟
قال: الله كريمٌ، فاحسُ واسكُتْ، يا صديقي!

- ٢٦٧ -

غادَرَ الحانة شيخٌ ثملٌ كاد يطيحُ
بيدٍ سَجَّادةٌ والكأسُ بالأخرى تفوحُ!

قلت: ما تصنع يا شيخ، وما حالك هذي؟
قال لي: ويحك خذ كأساً، فإن الكون ريحُ!

- ٢٦٨ -

وبدا لي في وصيد الحان شيخٌ يسمُرُ
قلت: يا شيخ، ألا حدَّثت عمَّن غبروا؟
قال لي: خذها شمولاً، فكثيرٌ مثلنا
غبروا لم يأتِ عنهم منذ ساروا خبرُ!

- ٢٦٩ -

وجَثَا في الركن شيخٌ نام سكران الفؤاد
تخِذَ الشكَّ مقاماً وجفا دار الرشاد
شرب الخمرةَ واستغرق مضنى في الرقاد
وهو يتلو ثَمَّ: الله لطيفٌ بالعباد!

د - نخب الزاهد الدجال

- ٢٧٠ -

أيها الذاهب بالتدليس فينا كلَّ مذهبْ
المعنَّى بقصير العمر، يحتاج ويَنْصَبْ
قلت لي: أين ذهوبي يا ترى بعد الردى؟
أعطني ويلك جام الخمر، واذهب حيث تذهب!

- ٢٧١ -

لا تـشـهّـر بـالـسـكـارى مـن أفـاويـق الـكـرومِ
أو تـخـاشـنْ فـذة الأبـرار مـن كـلِّ كـريـمِ
إشـرب الـراح، فـمـا فـي شـربـهـا أو تـركـهـا
تـدخـل الـجـنـة إمّـا كـنـتَ مـن أهـل الـجـحـيـم!

- ٢٧٢ -

هـاتِ جـامـاً فـي أوان الـورد كـالـورد دمـا
وارتـشـفـهـا مـع لـحـن الـنـاي أو شُـهـد الـلّـمَـى
إنـنـي أشـربُ جـذلان فـؤادي، فـإذا
كـنـت تـأبـاهـا فـمـا أصـنـع، فـاشـرب عـلـقـمـا!

- ٢٧٣ -

إنْ آجـرَّ سِـداد الـدنِّ خـيـرٌ مـن عُـلَـى جَـمْ
وشـذا الأقـداح أشـهـى نـكـهـةً مـن رزقِ مـريـمْ
ربَّ آهٍ يـرسِـلُ الـخـمّـارُ فـي جـوف الـدجـى
هـي أحـلـى مـن تـسـابـيـح أبـي سـعـدٍ وأدهـم

- ٢٧٤ -

صـاحِ مـا أطـيـبَ شُـرب الـراح مـن راح الـجـمـيـلِ
صـاح مـا أطـيـبَ لـحـن الـنـايِ فـي نـأيِ الـعـذولِ
وغـبـيٌّ زاهـدٍ لـم يَـدْرِ مـا جـام الـشـمـولِ
صـاحِ مـا أطـيـب أن يـبـعـدَ عـنّـا ألـفَ مـيـلِ!

هـ ـ نخب الدين

ـ ٢٧٥ ـ

سئمتْ نفسي أباطيلَ نفاقٍ وتماري
فتعجَّل أيها الساقي، وجئني بالعقار
قم فبِغ سجّادتي بالراح، وادفع طيلساني
أيها المحبوب، كي يصبح الباقي افتخاري!

ـ ٢٧٦ ـ

قيل شربُ الخمر يُوليك سقاماً وندامه
ويؤدِّيك إلى النار غداً يوم القيامه
صدقوا.. لكنَّ خيراً من جميع الدنيوين
أن يكون المرءُ سكران، ولو طرفة عين!

ـ ٢٧٧ ـ

قوّةُ الجسم وقوت الروح كأسٌ ذاب تبرا
خمرة تكشف لي من كلِّ خافٍ ما استسرّا
فدعوني من طماعات حياةٍ ومماتِ
جرعة الصهباء خيرٌ ليَ من دنيا وأُخرى!

ـ ٢٧٨ ـ

إنَّ ركْبَ العمر يمضي عَجِلاً لا يترقَّبْ
فاقضِه يا صاح بالأفراح واللذات واطربْ
أيها الساقى، إلامَ الفكرُ في حشرٍ ونشرٍ؟
أعطني الكأس على الكأس، فإن الليل يذهبْ!

- ٢٧٩ -

قم بنا نعزفْ على القيثار ألحان الغرام
نحتسي الراح ولا نحفلُ صيتاً في الأنام
فلنبع سجّادة التقوى بكأسٍ من مدام
ولنحطّم في الثرى قارورةَ الزهد العُقّام!

- ٢٨٠ -

يا فؤادي، أنت لا تدرك أسرارَ السّماكْ
لا ولا تدرك أهل العلم والفهم نُهَاك
هاهنا فاتّخذ الجنَّةَ من جام طِلاك
فغداً قد تدرك الجنَّة أو لا.. هَهناك!

- ٢٨١ -

قيل لي ثَمةَ جناتٌ بها حُورٌ وكوثَرْ
وبها أنهارُ خمرٍ، وبها شهدٌ وسكَّرْ!
فعَلَى ذكر الحميّا هات كأساً وتعجَّلْ
إن نقداً في يدي أفضل من ألفِ مؤجَّلْ!

- ٢٨٢ -

أنا لا أعلم هل قدَّر ربِّي إذ براني
أن سأغدو من فريق النار أو أهل الجنان
قدحَ الصهباءِ، والحسناءَ، والعُودَ، وروضا
أعطني ذلك نقداً، وخذ الجنَّة قرضا!

- ٢٨٣ -

إن أُتيحت لي من الحور كَعَابٌ في الربيع
آتحسَّى من يدها الراحَ في المرج المَرِيع
صاح مهما اشتدَّ قولي في الورى قبحاً وهُجْنَهْ
فأنا أدنَى من الكلب إذا استذكرتُ جنَّه!

- ٢٨٤ -

إلزم الحورَ، يَزِذْنَ العيشَ حسناً ويَزِنَّهْ
والطَّلا، والروضَ، والجدولَ.. ما فزت بِهِنَّهْ
لا تَرُمْ أطيب من هذا، ولا تُضرِم جحيماً
إنما الجنة هذي.. إن يكن ثمَّة جنَّهْ!

- ٢٨٥ -

أنا مهما كنتُ بالإثم شقيّاً، يا نديمي
لستُ مثل العابدي الأصنام في يأسٍ مقيمِ
فمتى أَقضِ لفرط السُّكر وهناً فمَرُومي
هو كأسي وحبيبي.. في نعيم أو جحيم!

- ٢٨٦ -

قيل شهرُ الصَّوم أوفَى، وأتانا من جديدِ
فغَدَا حوضُ الحميّا غير ميسور الورودِ
أنا في آخر شعبانَ سأحسو من مدامي
ما سأهوِي ثملاً منه إلى العيد السَّعيدِ!

- ٢٨٧ -

ويــك حــتّــامَ صــيــامٌ وصــلاةٌ ســاهــيــه؟
إشـرب الـخـمـر ولـو مـسـتـعـطـيـاً فـي الـنـاحـيـه!
كـم سـيَـبْـرِي مـن ثـرى جـسـمـك يـا خـيـام قـومٌ
تـارةً دنّـاً، وطـوراً قـدحـاً، أو خـابـيـه..

- ٢٨٨ -

لـيـس فـي الـحـان وَضُـوءٌ بـسـوى الـراح يـبـاحُ
وإذا الـسـمـعـةُ سـادت لـم يـحـسّـنـهـا صـلاحُ!
فـاسـقـنـيـهـا.. لـقـد انـشـقَّ حـجـابُ الـسـتـر شـقّـاً
لـم يَـعُـدْ يـنـفـع رتـقٌ فـيـه أو يُـخـشَـى افـتـضـاحُ!

- ٢٨٩ -

خـرقـةَ الـزهـدِ خـلـعـنـا، وعـلـى الـدنّ وضـعـنـا
وتـيـمّـمـنـا صـعـيـدَ الـحـان وجـداً.. وركـعـنـا!
فـعـسـانـا هـهـنـا فـي الـحـان نـسـتـرجـع عـمـراً
غـابـراً فـي حُـجُـرات الـدَّرس كـنـا قـد أضـعـنـا!

- ٢٩٠ -

نـحـن والـقـيـنـةُ والـصـهـبـاءُ إبّـان الـصـبـوحِ
لا تُـرجّـى قـطُّ مـنـا نـيَّـة الـتَّـوبِ الـنَّـصـوحِ
أيـهـا الـسـاقـي، فـكـم تـتـلـو لـنـا قـصَّـة نـوحِ؟
قـم فـعـجِّـل واسـقـنـي يـا حـلـوُ مـن راحـة روحـي!

- ٢٩١ -

أَخرِجَنْ باللّهِ من رأسك أوهامَ المحالِ
وانهل الراحَ بكأسٍ مُتْرَعٍ طولَ الليالي
عِش سعيداً مع بنت الكرم، فالبنتُ حراماً
في مجالي حسنها أشهى من الأُمِّ الحلال!

- ٢٩٢ -

هو صفوٌ هيَّأَ الدهرُ فعنه ليس يُغْضَى
وحبيبُ القلب إن خانَ فعنه ليس يُرْضَى
إغتنم يا صاح عمراً في يديك الآن غضّاً
إنه ليس صلاةً، فإذا ما فات يُقْضَى!

- ٢٩٣ -

إنّ هذا اليوم يُدْعَى في الورى بالجُمُعَهْ
فاكرع الصهباء بالكاسِ دِهاقاً مُتْرَعَهْ
أيها الشَّاربُ منه كلَّ يوم قدحاً
إن هذا سيّد الأيام، فاشرب أربعه!

- ٢٩٤ -

إنَّ قرآناً دَعَوْه في الورى خيرَ البيانِ
ليس يُتْلَى دائماً، بل بين آنٍ وأوان
وعلى الأقداحِ خُطَّتْ آيةٌ بيِّنةٌ
أبداً تُقرأ، في كلِّ زمان ومكان!

ـ ٢٩٥ ـ

إنه فصل زهور، وطيور، وغديرِ
ورياضٍ تتهادَى في رباها بضعُ حور
هاتِ كاساً.. فالذي يحسو أفاويق الطلا
مستريحٌ من محاريبَ، خليٌّ من ديور

ـ ٢٩٦ ـ

ألطلا تنفِي أسى الكثرة والقلة كُلَّهْ
وتنحّي فِكَر الثّنتين والسبعين ملَّهْ
فاشرب الصهباء واطرب، لا تَصُمْ عن كيمياءٍ
جرعةٌ واحدةٌ منها تداوي ألفَ علَّهْ!

ـ ٢٩٧ ـ

أنا والخمرةُ والمحبوبُ في ركن الخرابِ
والحجَى والجامُ والجبّة رهنٌ بالشراب!
فارغٌ من أمل الرحمة أو خوف العذاب
وأسى ماءٍ، ونارٍ، وهواءٍ، وتراب..

ـ ٢٩٨ ـ

إنّ ديني هو أن أفرغَ من دينٍ وكفرِ!
وحياتي هي أن أحيا أخا سُكرٍ وبِشرِ
قلتُ يوماً لعروس الدهر: ما مَهْرك حقا؟
فأجابت: يا حبيبي، قلبك الجذلان مهري!

و ـ اللّه كريم

ـ ٢٩٩ ـ

أنا إن لم يسقني مُخْيِيَةَ النفس الحبيبُ
لم تقبّل رجليَ الأفلاكُ ألفاً وتنيبُ!
قال لي الأصحاب: تُبْ للّه فالحينُ قريبُ
فإذا لم يُرِد اللّهُ لنا كيف نتوب؟!

ـ ٣٠٠ ـ

ألورى فانٍ، فإني عن سوى الفنّ رغوبُ
وسوى الراح ولهو العيش عندي لا يطيبُ
قال قومٌ: قَبِل البارئ منك التَّوبَ.. كلا
ربِّ لا تقبل، وإن تقبل فإني لا أتوب!

ـ ٣٠١ ـ

باكِرِ اللذاتِ والخيراتِ من سير الزمانِ
وخذ الكأسَ على عرش الهوى والعنفوانِ
ربُّنا اللّهُ غنيٌّ عن معاصٍ وتُقَى
فاغتنم في هذه الدنيا متاحاتِ الأماني

ـ ٣٠٢ ـ * ﴿﴾

إسمع الحقَّ صراحاً، يا صديقي، وعِ قولي
لا تفارق كأسَ جريالٍ ولا طرّة خِلٍّ
وتعلم أنَّ ربّاً خلق الأكون خلقاً
لا يبالي شاربَيْ مثلك أو لحيةَ مثلي!

- ٣٠٣ -

ربّيَ افتحْ ليَ باباً يتأتّى منه رزقي
وابعث القوت إلى حلقي، بلا مِنّة خلق
ربِّ واحفظني صريعاً بالحميّا طولَ عمري
فمن الغفلة لا أعرف ما يقلق فكرى!

ز - نخب العقل وألغاز الوجود

- ٣٠٤ -

ليس مَنْ أدرَكَ ماذا حجّبتْ تلك السدولُ
أو درى كيف حلول الروح، أو فيم الحلولُ
ليس للانسان غير اللحد مغنًى أو مَقِيلُ
فاكرع الصهباء.. هاتيك حكاياتٌ تطولُ!

- ٣٠٥ -

ليس وجه الكونِ إلا نقشُ وهمٍ وخيالِ
والذي يجهل هذا ليس من أهلِ الكمال
فاقترب يا صاح واشربْ قدح الجريال واطرب
وانسَ هذا النقشَ، وافرغ من خيالات المحال!

- ٣٠٦ -

ما لنا باللّه أسرى بيد العقل العقامِ؟
ما حياة المرءِ يوماً واحداً أو ألفَ عامِ؟
فافتح الراقود واملأْ من رحيق الراح جامي
قبل أن نصبح في السُّوق جراراً للأنام

- ٣٠٧ -

منذ عهدٍ ومديحُ الخمر تسبيحي ووِردي
ومعدّاتُ الحميّا كلُّ ما حولي وعندي!
إن يكن أستاذك العقل، أخا الزهد، هنا
فتنعَّم.. إنَّ أستاذك تلميذي أنا!

- ٣٠٨ - *

ليس للمرء مقامٌ في ذَرَى الدهر المقيمْ
فَقِلا الخمرة والمحبوب تقصيرٌ عظيمْ
كم أقاويلُ قديمٍ وحديثٍ يا حكيمْ؟
أنا إن متُّ فما المحدث عندي والقديم؟

- ٣٠٩ -

أيها القادم من عالَمِ روحٍ وسرائرْ
وهو في الخمسة والستَّة والسبعة حائِرْ
أنت لا تعلم أنَّى جئتَ أو أين ستذهبْ
فاشرب الصهباء واطرب واغنم اللذاتِ والعبْ

- ٣١٠ -

كم حديثُ الخمس والأربع في دار الفنا؟
أيّ شيءٍ مشكل الواحد والألف لنا؟
إنما نحن ترابٌ، فتغرَّدْ يا مغنِّي
إننا ريحٌ، فجئنا أيها الساقي بدنٍّ

- ٣١١ -

فـيـمَ هـذا الـهـمُّ لـلـكـائـن فـي الـدنـيـا الـولـودِ؟
وإلامَ الـفـكـر فـي كـلِّ قـريـبٍ وبـعـيـدِ؟
عـش سـعـيـداً واقـضِ أيـامـك فـي أنـسٍ وعـيـد
فـلـعـمـري لـم يـنـيـطـوا بـك تـدبـيـرَ الـوجـود!

- ٣١٢ -

أنـت اولَـى لـك أن تـهـرب مـن درس الـعـلـومِ
فـتـعـلَّـقْ بـعـذار الـحِـبِّ كـالـخـشـف الـفـطـيـمِ
إبـتـهـج واسـفـح دمـاء الـجـام فـي الـكـاس إزاءك
قـبـل أن يـسـفـح هـذا الـدهـرُ يـا هـذا دمـاءك

- ٣١٣ -

نـحـن لا نـمـلـك فـي الـواقـع حـقّـاً ويـقـيـنـا
أفَنُفْـنـي الـعـمرَ فـي الـشـكّ حـيـارى قـاعـديـنـا؟
صـاحِ لا نُـلـقِ كـؤوسَ الـراح مـن أيـدي الـمَـرَاحِ
فـسـواءٌ فـي ظـلام الـجـهـل سـكـرانٌ وصـاحـي!

- ٣١٤ -

نَـفَـسٌ مـن مـنـزل الـكـفـر إلـى مـنـزلِ ديـنِ
نَـفَـسٌ مـن عـالَـمِ الـشـكِّ إلـى دنـيـا الـيـقـيـن
فـتـعـهَّـد طِـيـبَ هـذا الـنـفَـسِ الـفـذِّ الـثـمـيـن
إنـه مـحـصـولـنـا مـن هـذه الـدنـيـا الـخـؤون

- ٣١٥ -

إنّ أقـوامـاً تـولّـوا، أيـهـا الـسـاقـي الـمـلـيـحُ
قـد تـولّـوا فـي غـرور ضـمَّـهـم مـنـه ضـريـحُ!
فـامضِ واحسُ الـراح، واسـمـغ لـكـلام الـحـقِّ مـنّـي
أيّـهـا الـحـلـو الـتـثـنّـي، كـلُّ مـا قـالـوه ريـحُ!

- ٣١٦ -

يـا خـلـيـلـيَّ ذرانـي أرتـشـفْ بـنـتَ الـدِّنـانِ
يـصـطـبـغْ خـدّي مـن الـراح بـلـون الأرجـوان
لأصُـبَّـنَّ عـلـى الـعـقـل الـفـضـولـيِّ قـلـيـلاً
مـن سـلافٍ، عـلّـه إن نـام خـلاّنـي وشـانـي!

- ٣١٧ -

سـوف أحـسـو الـيـومَ بـالـجـام الـذي يـمـلأُ رطـلا
وبـجـامـيـن سـأغـدو مـوسـراً جـدّيَ أعـلـى
فـلأطـلّـقْ يـا نـديـمـي الـديـنَ والـعـقـلَ ثـلاثـاً
فـسـأبـنـي بـابـنـة الـكـرم، ولا أسـمـع عـذلا!

د - نخب اللحظة الحاضرة

- ٣١٨ - ❖

قـدحاً يـا سـاقـيَ الـجـريـال، فـالـدنـيـا خُـلَـسْ
أن تُـصِـبْ فـيـهـا سـروراً فـكـفـى مـنـه نَـفَـسْ!
إغـتـبـط أنـت بـمـا يـأتـيـك، فـالـدهـرُ غِـيَـرْ
لـم يـدُرْ قـطُّ عـلـى مـا يـشـتـهـي قـلـبُ بـشَـرْ

- ٣١٩ -

يا خليليَّ تقضَّى اليومَ يومٌ من حياتي
مثل ماءٍ في مسيل، أو هواءٍ في فلاةِ!
أنا لم أذكر أسى يومين في دار الشتات
يوم أمسٍ قد تولّى، وغدٍ في الغيب آتي

- ٣٢٠ -

ظلَّ لي السعي إلى ساقي الطلا من رمقي
ظلَّ لي من صحبة الخلق دواعي الحنق
من شَمولِ الأمس لم يبقَ سوى باطيةٍ
ومن العمر لعمري لستُ أدري كم بقي!

- ٣٢١ -

أُنظرنْ سوءَ فعالِ القبّةِ الزرقاءِ فينا
وفراغَ العيشِ بعد الأصدقاء الذاهبينا
فابتدر وقتك ما أمكن، لا يذهبْ سدى
إغنم الحال.. ودع أمسِ ولا تحفِلْ غدا

- ٣٢٢ - * ❖

ألقِ عن قلبك أثقالَ الأسى والشَّجَنِ
وعناءَ العالَمِ الفاني، وهَمَّ الزمنِ
ما مضى فات وما لم يأتِ غيبٌ لا يُرَى
فاطَّرِحْ أعباءَ ما كان وما لم يكنِ

- ٣٢٣ - *

إنّ أمساً قد تولّى لا تعاوِدْ ذكرَهُ
وغداً لمّا يجئْ لا تتدبَّر أمرَهُ
لا تشيِّد فوق ما فات وما لم يأتِ أمرك
فتنغَّم.. لا تبدِّد في مهبِّ الريح عمرك

- ٣٢٤ -

فيم غمُّ المال في هذا، وهمُّ الفانيه؟
أترى العيشة كانت لابن أنثى باقيه؟
هذه الأنفاس في جسمك هذا قاضيه
فاغتنم عاريةَ العمر وعِشها عاريه!

- ٣٢٥ -

لا تُطأطئ لمُلمَّات الزمان الجائرِ
أو تذكرّنا أسى أبناءِ أمس الدّابرِ
لا تُذِقْ قلبَك من زادٍ سوى ريق الملاحِ
والحميا.. لا تُضِعْ عمرك أدراج الرياحِ

- ٣٢٦ -

قم بنا نصطبح الراحَ فقد ضاءَ الصباخ
ولنحطّم في الثرى جرَّةَ صيتٍ وصلاخ
فانفضَنْ يمناك من كلِّ تَمَنٍّ وطماخ
وخذ العود بها الآن ولبّاتِ الملاخ

- ٣٢٧ -

حاسبَنْ نفسك يا عاقلُ ما أوردتَ قبلا
يوم أقبلتَ، وما تُصدِر لما تتولَّى؟
قلتَ: لا أشرب خمراً، فالفتى لا بدَّ يقضي
ألفتى لا بدَّ يقضى، أشربت الخمر أم لا!..

- ٣٢٨ -

يا صديقي، لا لك اليوم بأمر الغد حيله
وهموم الغد ليست غير أوهامٍ وخيله[١]
فاهتبل فرصة هذا الوقت ان كِنتَ أريباً
ليس باقي العمر بالباقي، فلا تهدر قليله

- ٣٢٩ -

إن شربت الراح يا خيام، فاسكر واطربن
وإذا جالست بدراً فتمتَّع والعبن
آخر الدنيا فناءٌ، فافترض أنك فانٍ
وبما أنك حيٌّ فتنعَّمْ واشربن

- ٣٣٠ -

عاقِرِ الصهباء في المرج إلى جنب الغديرِ
واطَّرِحْ عنك هموم العيش في دنيا الغرور

---

(١) الخيلة: التخيُّل والتظني.

ليس هذا العمُرُ الغالي سوى آنٍ قصير
فلنكن فيه نضيري الوجهِ بسَّامي الثغور

- ٣٣١ -

هذه الأنفاس تمضي حين تمضي من حياتك
فاقضها بالأنس واللَّهو إلى يومِ مماتك
رأس مالِ الكون يا صاح هو العمر لدينا
وهو يمضي مثلما تُمضيه يا صاح بذاتك

- ٣٣٢ -

إيه خيام، هو الدهر شَمُوخٌ يزدرِي
كلَّ من يقعد مهموماً حليف الكدر
فضع الإبريق واشرب، مع لحن المزهر
قبل أن ينكسر الابريق فوق الحجر!

- ٣٣٣ -

أقبلَ البلبلُ نشوانَ إلى بعض الجِنانِ
فرأى الوردَ وكأسَ الخمر فيه يضحكانِ!
فأتاني قائلاً في أذُني: يا ابن الأماني
ليس بالعائد يوماً ما انقضى من عمرٍ فاني

- ٣٣٤ -

سوف أطوِي من غدٍ تاللّه راياتِ النفاقِ
وسأقفو أثَرَ الخمر بشَيْبي، يا رفاقي!
أنا في السبعين من عمريَ، شيخٌ أشمطُ
فإذا لم أنشط الآن فأنّى أنشطُ؟

- ٣٣٥ -

إنْ طبعي أبداً يهفو إلى الوجه الجميلِ
ويميني أبداً تهفو إلى كأس الشمول
إنني منتفعٌ من كلّ جزءٍ بنصيبي
قبل أن تندمج الإجزاءُ في الكل الرحيب

- ٣٣٦ -

ليس الإنسان أن يأسَى فيبلَى حَزَنا
حاطماً في صخرة المحنة ساعات الهنا
صاحِ من يدرى بما يحدث في الدهر غدا؟
باكرِ الصهباءَ والمحبوبَ، وافرح بالمنى

- ٣٣٧ -

يا حبيبي، أنت لا تدري من العالَمِ سرَّهْ
فعلامَ الهمُّ فيه بين تفكيرٍ وحسره؟
إنّ هذا الدهر لا يجري على ما تتمنّى
فتمتَّع برهةً ما دمتَ فى دنياك مَرَّه!

- ٣٣٨ -

لا تَتُبْ عن بنت كرمٍ، ما أُتيحت كالعقيقِ
وليجئْ ألفُ متابٍ بعد هذا في الطريق!
ها هي الأزهار فاحت، وطيور الروض ناحت
أيجوز التَّوبُ في وقتٍ كهذا، يا صديقي؟

- ٣٣٩ -

إنها الراح، حياة الخلد أو خلدُ الحياة
إنها حظُّك من عهد الصِّبا، وهيَ مناه
ذا أوان الزهر والخمرة، والصَّحبُ نشاوَى
فاغنم الصَّفوَ، فإنّ العيش هذا لا سواه!

- ٣٤٠ -

دورانُ الدهر لا يُغني بلا خمرٍ وساقي
ومغنٍّ يرسلُ اللّحنَ مع الناي العراقي
قد تأملتُ شؤونَ الكون في دار الفناء
فإذا محصولنا المتعة، والباقي هباء

- ٣٤١ -

قد زها روضُ أمانيك وطابَ الحاضرُ
فلماذا صفِرتْ يمناك من كأسٍ، لماذا؟
إحتسِ الصهباءَ فالدهرُ عدوٌّ غادرُ
ومِنَ النادر أن تحظى بيومٍ مثل هذا

- ٣٤٢ -

ما أحبَّ الطلعةَ الحسناءَ والروضُ ظليلُ
وصَبَا النيروز تجري، والأزاهيرُ تميلُ
كلّ ما تحكي عن الأمس لنا فهو ثقيلُ
فاغتبط واترك حديث الأمس، فاليوم جميلُ

- ٣٤٣ -

إرتشفها، فالحميّا ملكُ كسرى وعلاه

واسمع الناي، فما مزمار داودَ سواه

لا تفكِّر بعدُ في ماضٍ وآتٍ لا تراه

إغنم الحال، فهذ القصد من هذي الحياه

ط - نخب الحبيب

- ٣٤٤ -

لهف نفسي، منذ ميَّزتُ يدى عن قدميَّا

غلَّ هذا الفلكُ المرذولُ لي كلتا يديَّا

يا لقلبي، سيعدُّون من العمر عليَّا

ما تقضَّى عبثاً دون حبيبٍ وحمَّيا!

- ٣٤٥ -

ويح قلبٍ ليسَ فيه ضَرَمٌ للحبِّ فاتِك

لم يتيِّمه جميلٌ بهوًى كالخبل هاتك

إنَّ يوماً يتقضَّى لك في غير غرامِ

لهو يومٌ ضاعَ، لا أضيع منه في حياتك!

- ٣٤٦ -

ليس في العشق المجازِيِّ رُوَاءٌ أو نضاره

فهو مثل الجمر نصف الميْتِ، ما فيه حراره!

إنــمــا الــعــاشــق مــن يــلــتــاع لــيــلاً ونــهــارا
لــيــس يــســتــمــري طــعــامــاً، أو مــنــامــاً، أو قــرارا!

ـ ٣٤٧ ـ

فــلأبــاكــر فــرصــةَ الــبــهــجــة فــي الــروض الــظــلــيــلِ
بــيــدٍ فــرع حــبــيــبــي، ويــدٍ كــأسُ شــمــولــي
أرشــف الــجــريــالَ، لا أحــفــلُ بــالأفــلاك تــجــري..
ثــمــلاً مــن خــمــرة الــوصــل مــع الــحــبِّ الــجــمــيــلِ

ـ ٣٤٨ ـ

قــيــل لــي: أقــلِلْ مــن الــصــهــبــاء واقــصــدْ فــي الــمــجــونْ
أيُّ عــذرٍ لــك فــي هــذا الــتــمــادي والــجــنــون؟
إنْ عــذرى ثــغــر مــحــبــوبــي وجــريــالُ صــبــوحــي..
أيُّ عــذرٍ يــا تــرى أوضــح مــن هــذا يــكــون؟!

ـ ٣٤٩ ـ *

قــم فــأقــبــلْ يــا حــبــيــبَ الــروح، إكــرامــاً لــقــلــبــي
بــســنــا حــســنــك أدركــنــي، وفــرِّجْ لــيَ كــربــي!
هــاتِ كــوزاً نــشــرب الــراح بــه، يــا وثــنــي[1]
قــبــل أن يــصــطــنــعــوا مــن طــيــنــنــا كــوزاً لــشُــربِ!

---

(١) أي: يا دميتي.

- ٣٥٠ -

إتَّبع نهجَ دراويش الحميَّا الظرفاء
لا تُرِدْ غير سلافٍ، وحبيبٍ، وغناء
إحتمل في الكفِّ كاساً، وعلى المنكب دنًّا
واشرب الصهباء يا حلو، ودع قول الهراء!

- ٣٥١ -

يا حبيبي فاسقنيها، ما هنا وقت الكلامِ
ثغرك المبتسمُ اللَّيلَةَ قوتي وطعامي!
أُسكبِ الصهباءَ تذكو مثل خدَّيك ونارِكْ
فلعمري توبتي اليوم التَوَتْ مثل عذارِكْ!

- ٣٥٢ -

أشتهي ديوان شعرٍ، معه غُسٌّ مدام
ورغيفاً، وكفافَ العيش من دنيا الحطامِ
عندها أمضي وإيّاك إلى قفرٍ يبابِ
ذاك أحلى ليَ من ملك السلاطين العظام!

- ٣٥٣ -

أيها الساقي، تعالتْ نغمةُ الأشجان عندي
وتمادَى السكرُ حتى لتعدَّى كلَّ حد
خفَّ بي الشَّيبُ، فمن خمرك يا جَمَّ الأيادي
رجعت شيخوخةُ الرأسِ ربيعاً في فؤادي!

- ٣٥٤ -

صادَ لي عشقُك شَيبي في أحابيل الدلالِ
يا أخا الحسن، وإلا ما لصهباءَ وما لي؟
صاغ عقلي توبةً حطَّمها ربُّ الجمالِ
وأعدَّ الصبرُ ثوباً شقَّه كَرُّ الليالي!

- ٣٥٥ -

بلغتْ في الدِّين ثِنتَيْن وسبعينَ المللْ
فمن الملَّةِ لي عشقُك دينٌ وأمل
صاحِ ما كفرٌ وإسلامٌ، وتقوى وزلل؟
أنت أَنت القصدُ، فارفع بيننا هذي العللْ!

- ٣٥٦ -

سوف تلقاني صريعاً ذاتَ يومٍ بالمدامة
قد هوى رأسي على رجلك، مهدورَ الكرامة!
وهوت من قبضتي الكاسُ، ومن رأسِي العمامه
وثنيًا في هوى وجهك، يا ربَّ الوسامة!

ي - نخب الانخاب

- ٣٥٧ -

أنتِ يا خمرُ شرابي الفاضحي بين الصحابِ
فلأعاقِرْ منك ما أخرجُ فيه عن صوابي!

فـيـرانــي مَـنْ يـرانــي مِـن بـعـيـدٍ فـيـنـادِي:
عـجـبـاً، مـن أيـن تـأتـيـنـا أيـا ربَّ الـشـراب؟

- ٣٥٨ -

مـذ بـدا الـمـيـزانُ فـي عـرض الـسـمَّـا والـمـشـتـري
مـا رأى أحـسـنَ مـن هـذى الـطـلا ذو بـصـرِ!
عـجـبـي مـن بـائـع الـصـهـبـاء فـي غـفـلـتـه
يـا تـرى أفـضـلَ مـمـا بـاع مـاذا يـشـتـري؟

- ٣٥٩ -

هَـتـكـتْ أسـتـارَنـا بـيـن الـورَى هـذي الـحـمـيـا
غـيـر أنـي لـسـتُ بـالـهـاجـرهـا مـا دمـتُ حـيّـا!
عـجـبـاً لـلـبـائـع الـصـهـبـاء فـي غـفـلـتـه
أتـراه يـشـتـري أفـضـلَ مـمـا بـاع شـيًّـا؟

- ٣٦٠ -

عـنـدمـا آخـذ فـي يـمـنـاي جـامـاً مـن شـرابِ
ومـن الـغـبـطـة أغـدو ثـمـلاً ضـاع صـوابـي
تـتـأتـى مـعـجـزاتٌ عـدَّةٌ فـي كـلِّ بـاب
مـن طـبـاعٍ لـيَ كـالـنـار ونـطـقٍ كـالـعـبـابِ

- ٣٦١ - ❖

إن حَـسَـا الـصـهـبـاءَ شـحـاذٌ أصـارتـه أمـيـرا
أو حـسـاهـا ثـعـلـبٌ أصـبـح ضـرغـامـاً هـصـورا

أو حساها الشيخُ ردَّته غلاماً يافعا
أو حساها اليافع الغضُّ غَدَا شيخاً كبيرا

- ٣٦٢ -

إنها الجِريالُ، لو صُبَّتْ على الطَّودِ رقصْ
فالذي ينتقص الصهباء كان المنتقَصْ!
كيف تدعوني إلى التوبة منها يا صديقي؟
إنها روحٌ يربِّي النفسَ أو يجلو الغصص!

- ٣٦٣ -

قلتُ: لن أشربَ بعد اليوم خمراً عَنْدَمَا
إنما الخمر دم الكرم، فلا أحسُ الدَّما!
قال عقلي الشيخُ: جدٌّ منك هذا أم خرافه؟
قلتُ: كلا بل مزاحٌ، كيف لا أحسو السُّلافه؟

- ٣٦٤ -

أنا لا أحتمل العيش بلا خمرٍ تَضُوعُ
لا ولا أحمل جسمي، فهو محمولٌ فظيعُ
أنا أهوى حظةً يسألني الساقي بها:
قدحاً آخر فاشربْ، وأنا لا أستطيع!

- ٣٦٥ -

كلما أشرقَ صبحٌ واضحُ الغُرَّةِ أزرق
فضَعَنْ بين يديك الراحَ في الجام المروَّق

شاعَ بين الناس أن الحقَّ في الأفواه مُرٌّ
فعلَى هذا تكون الخمرُ يا قومُ هيَ الحقّ

- ٣٦٦ -

ظاهِرُ الموجودِ والمعدوم أدرى كيف كانا
باطنُ الأرفعِ والأوضعِ لي انحلَّ وبانا
مع هذا العلم، فلأخجلْ إذن من كلّ علمي
إن أكن أعرف فوق السُّكرِ في الدهر مكانا!

- ٣٦٧ -

يا خليليَّ اجعلا قوتيَ ما عشتُ الحميّا
تجعلا كهربَ هذا الوجه ياقوتاً نقيّا
ومتى حانت وفاتي فاغسلوني بسلافِ
ومِن الكرم أعِدُّوا ليَ تابوتاً سويّا!

- ٣٦٨ -

دوحُ عمري سوف يُسْتَأْصلُ من روض الحياةِ
ثم يبلَى جسدي الفاني، وتنحلُّ رفاتي
فإذا ما صنعوا جامَ سلافٍ من ترابي
عدتُ حيّاً فيه إن أترعتموه بالشراب!

- ٣٦٩ - ❖

عندما أهوِي برأسي تحت رِجلِ الأرجلِ
يوم يُستأصَلُ عمري من جذور الأملِ

فاصنعوا بالله جاماً من ترابي، فعساني
فيه أحيا كلما أُترِع من بنت الدنان

ـ ٣٧٠ ـ

هيَّ فلأشربْ من الصهباء ما يأتي شذاه
من ثرى لحدي متى أصبحتُ شِلواً في ثراه
فإذا قادت إلى رمسيَ سكّيراً خطاه
عاد من ريح شرابي ثملاً ضلَّ حجاه!

ـ ٣٧١ ـ

حين أقضي فاطمسوا قبريَ بين الدارسين
واجعلوا سيرةَ حالي عبرةً للعالمين
ثم رشُّوا برحيث الخمر لحدي وترابي
واصنعوا الآجرّض من جسمي سِداداً للخوابي!

ـ ٣٧٢ ـ

يا أحبّائي، إذا مُتُّ فبالراح اغسلوني
ومتى لقَّنتموني فبخمرٍ لقِّنوني
وإذا أحببتمُ في الحشر أن تلتمسوني
فتحرَّوْا في ثرى الحانوت عني تجدوني

ـ ٣٧٣ ـ

أيها الأخدان، إمّا ضمَّكم مجلسُ أنسِ
فاذكروا هذا الصديق الحرَّ، فالأيامُ تُنسِي

ومتى عاقرتم الصهباءَ، يا أحباب نفسي
وأتى في الشَّراب دَوْري.. فاقلبوا باللّه كأسي!

- ٣٧٤ -

كلما أَلْفكم بعدي شرابٌ أو دَدُ
فتملَّوا بعضكم من حُسْنِ بعضٍ، واسعَدُوا!
وإذا طافت كؤوسُ الراح بين الندماء
فاذكروا هذا الفتى المسكين أيضاً في الدعاء!

١٢
ستار الختام

ـ ٣٧٥ ـ

إن مَنْ هم في الحوانيت سكارَى لا يَعُون
والمقيمين الليالي، سُجَّداً لا يهجعون
ما بهم ناجٍ، فهم في اللجِّ غرقَى أجمعون
واحدٌ يقظَان والباقون صرعى نائمون

ـ ٣٧٦ ـ

ليس في الدَّير ولا المسجد يا صاح مكاني
خالقي يعلم ما كنهُ ثرًى منه براني
كفقير كافرٍ، أو مومس شوهاءَ شاني
قد عدِمتُ الدين والدنيا، وآمال الجنان!..

ـ ٣٧٧ ـ

إن أكن سكرانَ من خمرِ المجوسِ الكافرين
أو أكنْ صبّاً خليعاً، مارقاً لا ليَ دِين
فلأكن!.. كلٌّ فريقٍ لهمُ فيَّ ظنون
بيد أني ملكُ نفسي.. كيفما شئتُ أكون!

مقارنة بين
تفكير الخيّام وتفكير المعري

قارن الكثيرون بين أقوال الحكيمين مقارنات ليست بالوافية، فأحببت أن أتوسع في الأمر من غير إسهاب. وفيما يلى طائفة من أشعار المعرّي توخّيتُ السهولة والوضوح عند اختيارها من اللزوميات أو الذاكرة. وأكثرها يشابه رباعيات الخيّام، ومنها ما يقاربها، ومنها ما يناقضها، ومنها ما يبدو كأنه تعقيب عليها، ومنها ما يذكُر ببعض ألفاظها. وأنا أترك للقارئ أن يقارن ويستخلص لنفسه ما يشاء. ولكن من الحق عليّ أن أذكّره أن هذه المقارنة مجحفة بالمعرّي، لأن له من جوانب الفلسفة وروائع القول ما لم تَدْعُ المناسبة إلى ذكره هنا.

الرباعية

(١) قال المعرّي:

بني زمني، هل تعلمون سرائراً علمتُ، ولكن بها غير بائح؟

إذا قلتُ المحال رفعت صوتي

وإن قلتُ اليقين أطلقتُ همسي!

ما لي رأيت دعاة الشرّ ناطقةً

والرشد يصمت خوف القتل داعوه؟

إلى اللّه أشكو مهجةً لا تطيعني

وعالَم سوءٍ ليس فيه رشيدُ

حجي مثل مهجور المنازل داثر وجهل كمسكون الديار مَشِيدُ

(٢) قال المعرّي:

وعنديَ لو أمنتك علمُ سرٍّ عن الجهال غيَّبه مُكِمُّ

(٣) قال المعرّي:

لا تقيِّد عليَّ لفظي فإني مثل غيري، تكلُّمي بالمجاز!

ولديَ سرٌّ ليس يمكن ذكره يَخفى على البصراء وهو نهارُ

أما الهدى فوجدته ما بيننا سرّاً، ولكن الضلال جهارُ!

(٤) قال المعرّي:

أكتم حديثك لا يشعر به أحدٌ   من رهط جبريل أو من رهط إبليس

(٦) قال المعرّي:

لا تَدْنُوَنّ من الشرور وأهلها   فتكون عن أهل العلَى متباعدا

(٧) قال المعرّي:

إجتنب الناس وعش واحداً   لا تَظْلِم الناس ولا تُظلَم

فلا يغرُرْكَ بِشْرٌ من صديقٍ   فإن ضميره إحَنٌ وخِبُّ

(١١) أكثر المعرّي من ذمّ الزواج وعدَّد مساوئه ومشاكل الولد ولا سيما البنات. ولنترك التفاصيل ونجتزئ بقوله في النساء:

لا تدنُوَنّ من النساء..   فإن غبَّ الأمر مُرُّ!

وقوله فيهن وفي الولد:

صحبنك فاستفدت بهن وُلْداً   أصابك من أذاتك بالسماتِ

ومن رُزِقَ البنين فغيرُ ناءٍ   بذلك عن نوائبَ مسقماتِ

ومن رُزِقَ البنات فأيُّ بؤس   تبيَّن من وجوهٍ مقْسَماتِ!

(١٢) و (١٣) قال المعرّي:

أولو الفضل في أوطانهم غرباءُ   تشِذُّ وتنأى عنهم القرباءُ

فما سَبَأوا الراحَ الكميتَ للذّةٍ   ولا كان منهم للخِراد سباءُ

وحسبُ الفتى من ذلة العيش أنه   يروح بأدنى القوت وهو حباءُ

(١٤) و (١٥) قال المعرّي:

والعقلُ زينٌ ولكن فوقه قَدَرٌ فما له في ابتغاء الرزق تأثير
هو الرزق يُجرِيه المليكُ، ولن ترى أخا عيشةٍ بالحرص يُطعَم أو يُسقَى

(١٧) قال المعرّي:

توحَّدْ فإن اللّه رَّبك واحدٌ ولا ترغَبَنْ في عِشرة الرؤساءِ

(٢٠) قال المعرّي في هؤلاء المتعاظمين:

لو لم تكن في القوم أصغرَهم ما بانَ فيك عليهمُ كِبْرُ!

وقد أخذه عن قول عمر بن الخطاب «ما رأيت امرءاً يتزيَّد إلا لنقص يجده في نفسه» ولعله في هذا أسبق من تكلم على ما يسمونه مركّب النقص، بهذا الوضوح.

(٢٢) قال المعرّي:

من مذهبي إلاّ أشدَّ بفضةٍ قدحي، ولا أصغي لشَربٍ معوَّجِ
لكن أُقضّى مدّتي بتقنُّعٍ يُغنِني، وأفرح باليسير الأروجِ
هذا ولستُ أودُّ أني قائم بالملك في ثوبَيْ أغرَّ متوّجِ

(٢٤) قال المعرّي:

وإنما سائسكم دائب يرعَى المطايا ويسوق الحميرْ!

(٢٩) قال المعرّي:

وقد فتّشتُ عن أصحاب دينٍ لهم نسكٌ وليس لهم رياء!

تستروا بأمور في ديانتهم ... وإنما دينهم دين الزناديقِ
نكذّب العقلَ في تصديق كاذبهم ... والعقل أولَى بإكرامٍ وتصديقِ!

(٣٠) قال المعرّي:

يحرّم فيكم الصهباءَ صبحاً ... ويشربها على عمدٍ مساءَ
يقول لكم غدوتُ بلا كساءٍ ... وفي لذّاتها رهنَ الكساءَ!
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى ... فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

(٣٣) قال المعرّي:

وليس عندهُم دينٌ ولا نُسُكٌ ... فلا تغرّك أيدٍ تحمل السُّبَحَا
وكم شيوخٍ غدوا بيضاً مفارقهم ... يسبّحون، وباتوا في الخنا سُبُحا
لو تعقل الأرض ودّت أنها صفِرتْ ... منهم فلم يَرَ فيها ناظرٌ شبحا
إنما هذه المذاهب أسبا ... بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساء!

(٣٤) قال المعرّي:

رويدَك قد غُرِرتَ وأنت حرٌّ ... بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ
كم قائمٍ بعظاته متفقّهٍ ... في الدين يوجَدُ حين يُكشفُ عاهرا

(٣٧) قال المعرّي:

قد حجبَ النور والضياءُ ... وإنما ديننا رياءُ
يا عالَمَ السوء، ما علمنا ... أن مصلّيك أتقياءُ!
لا يكذبنَّ امرؤٌ جهولٌ ... ما فيك للّه أولياء
تأمرنا بالزهد في هذه الـ ... دنيا وما همُّكَ إلاّ هي!
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُهَا ... فتاركها عمداً إلى اللّه أقربُ!

(٣٨) قال المعرّي:

لحا اللّه إذا جئتهم ... بصدق الأحاديث قالوا كَفَرْ!

(٣٩) قال المعرّي:

ولا تحسب مقال الرسل حقًّا ... ولكن قول زورٍ سطّروه

(٤٤) قال المعرّي:

هَفَتِ الحنيفةُ، والنصارى ما اهتدت ... ويهودُ هامت، والمجوسُ مضلّله

إثنان أهلُ الأرض: ذو عقلٍ بلا ... دينٍ، وآخرُ ديِّنٌ لا عقلَ لَه!

(٤٦) قال المعرّي:

أفيقوا، أفيقوا يا غواة، فإنما ... ديانـاتكم مكرٌ من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... وبادوا، ودامت سنّة اللؤماء!

إذا رجع الحصيف إلى حجاه ... تهاون بالشرائع وازدراها

(٤٧) قال المعرّي:

والخير أفضل ما اعتقدتَ، فلا تكن ... هَمَلاً، وصلّ بقبلةٍ أو زمزم

والزمزم صلاة المجوس على الطعام.

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له ... ولا صلاةٌ، ولا صوفٌ على الجسدِ

وإنما هو ترك الشرّ مُطَّرَحاً ... ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسدِ

ما دامت الوحشُ والأنعامُ خائفةً ... فَرْساً فما صحّ أمرُ النسك للأسدِ!

والفَرْس من وزن قوس: الافتراس.

(٤٨) قال المعرّي:

وافعلِ الخيرَ فالحديـ ث كثيرٌ قد اختلفْ!

(٤٩) قال المعرّي:

إن العقول تقول مُوليةً ليس الأنامُ كنابت البقلِ

مُولية: حالفة. ولا يظهر من سياق الشعر قصده من نفي الشبه بين الأنام ونابت البقل، مع أنه أثبت هذا الشبه في أماكن أخرى من لزومياته. ولكن حسبنا اتفاق هذا البيت مع الرباعية في ابتدائهما بالعقل وانتهائهما بالبقل، وأنّ الأول يؤكد أن الإنسان لا يشبه الثاني. ولعل غرض الحكيمين واحد.

(٥٠) قال المعرّي:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نشرٌ حديث خرافةٍ يا أمَّ عمرِو!

(٥١) قال المعرّي:

دفنّاهُمُ في الأرض دفن تيقُّنٍ ولا علمَ بالأرواح غير ظنونِ!

(٥٢) قال المعرّي:

جسدٌ من أربعٍ تلحظها سبعةٌ راتبةٌ في اثنَيْ عَشرْ

قصد الشيخان: العناصر الأربعة والأفلاك السبعة. وزاد المعرّي هنا الشهور الاثني عشر، وزاد الخيّام في مواضع أخرى الحواسّ والجهات الستّ. ويقول المعرّي على عادته متردداً في أمر البعث:

زعم الفلاسفةُ الذين تنطّسوا أن المنيّة كسرها لا يُجبَر

مع أننا رأيناه ـ آنفاً ـ يذهب أحياناً مذهب هؤلاء الفلاسفة الذين تنطّسُوا.

(٥٦) قال المعرّي:

لعلَّ أناساً في المحاريب خُوِّفُوا ... بآيٍ كناسٍ في المشارب أطربوا
مساجدكم ومواخيركم ... سواءٌ، فبعداً لكم من بشَرْ!

(٦٣) قال المعرّي:

إن كان مَنْ فَعَلَ الكبائرَ مجبَراً ... فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ
واللّه إذا خلق المعادنَ عالِمٌ ... أنّ الحِدَاد البيضَ منها تُجعَلُ

(٦٤) قال المعرّي:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمرٍ سبّبته المقادرُ
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً: ... أأنت على تغيير لونك قادر؟

(٦٥) قال المعرّي:

ما باختياريَ ميلادي ولا هرمي ... ولا حياتي، فهل لي بعدُ تخييرُ؟

(٦٦) قال المعرّي:

أرى شواهد جبرٍ لا أحققه ... كأنَّ كلاًّ إلى ما ساءَ مجرورُ!

(٦٩) قال المعرّي:

عيوبي إن سألتَ بها كثيرٌ ... وأي الناس ليس له عيوب؟

(٧٢) هذه الرباعية يعزوها بعضهم إلى الخواجه نصر الدين الطوسي.

(٧٣) قال المعرّي:

جـبـلَّـةٌ بـالـفـسـاد واشـجـةٌ إن لامـهـا الـمـرء لام جـابـلَـهَـا!

(٧٦) قال المعرّي:

إن أدخـل الـنـار فـلـي خـالـقٌ يـحـمـل عـنـي مـثـقـلات الـعَـذَابْ
يـقـدر أن يـسـكـنـنـي جـنـة فـيـهـا تـرامَـى بـالـمـيـاه الـعِـذابْ!

(٨٣) قال المعرّي:

أرواحـنـا مـعـنـا ولـيـس لـنـا بـهـا عـلـمٌ، فـكـيـف إذا حـوتـهـا الأقـبُـرُ؟

وربما كان الأصح (إذا حوتنا الأقبر)

(٨٤) المعرّي هنا يخالف الخيّام ويناقضه:

أثـبـتُ لـي خـالـقـاً حـكـيـمـاً ولـسـتُ مـن مـعـشـرٍ نـفـاةِ

(٨٥) ويخالفه هنا أيضاً:

أقـر بـأنّ لـي ربـاً قـديـراً ولا ألـقَـى بـدائـعـه بـجَـحْـدِ

(٨٦) قال المعرّي:

تـوقَّـعـوا مـن دهـرهـم عـدلَـهُ والـدهـرُ لا يـحـسـن أن يـعـدلا
فـي كـل دهـرٍ جَـنَـفٌ كـامـنٌ والـنـحـسُ فـي الـمـولـد والـسـعـدُ لا

(٨٨) ترجمة النصّ الفارسيّ للشطر الرابع: «الأَولَى أن يُسْلَح على فلك كهذا» وقد هذبناه.

(٩١) قال المعرّي:

والدهرُ لا يدري بما هو كائنٌ   فيه، فكيف يُلام فيما كانا؟

(٩٢) قال المعرّي:

خرجتُ إلى ذي الدار كرهاً، ورحلتي   إلى غيرها بالرغم، واللّهُ شاهدُ!
نفارقَ العيشَ لم نظفر بمعرفةٍ   أيّ المعاني بأهل الأرض مقصودُ؟
لم تعطنا العلمَ أخبارٌ يجيء بها   نقلٌ، ولا كوكبٌ في الأرض مرصودُ

(٩٤) قال المعرّي:

ولم يدرِ لما أن أتاها، ولا درى   إلى أين يمضي، فاستكان مدبَّرَا

ولكنه يقول في مكان آخر وكأنه يجيب على تساؤل الخيّام وتساؤل نفسه:

نمر سراعاً بين عُذمين، ما لنا   لباثٌ، كأنّا عابرون على جسر

(٩٥) قال المعرّي:

وركْبٍ وارِدٍ ليقيم عصراً   وآخرُ قد أجدَّ به الرحيلُ

(٩٦) قال المعرّي:

فهل قام من جدَثٍ ميِّتٌ   فيخبرَ عن مسمعٍ أو مَرَى؟

وقال عن الموتى:

طلبتُ يقيناً يا جهينة عنهمُ ولم تخبريني يا جهينُ سوى الظنّ
فإن تعهديني لا أزال مُسائلاً فإنيَ لم أُعطِ الصحيح فأستغني!

(٩٧) قال المعرّي:

وما تريد بدارٍ مالكها تقيم فيها قليلاً ثم تنطلقُ؟

(٩٩) قال المعرّي:

اللّه صوَّرني ولستُ بعالِمٍ لِمَ ذاك، سبحانَ القديرِ الواحدِ!

(١٠٠) قال المعرّي:

رَيْبُ الزمان مفرِّقُ الإلفَيْنِ فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
أنهَيْتَ عن قتل النفوس تعمُّداً وبعثت أنت لقتلها ملكين؟
وزعمتَ أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين!

(١٠٢) قال المعري:

ويجهلُ حتى يسألَ الفلكَ الذي يدور عليه كيف بدءُ مدارِهِ؟
وتشاجروا في قبة الفلك التي ما زال يعظم في النفوس عمودها
فيقول ناسٌ سوف يدركها البِلَى ويمينُ ناسٌ لا يجوز همودها

يمينُ: يفترى

(١٠٤) قال المعرّي:

سألتموني فأعيتني إجابتكم من ادَّعى أنه دارٍ فقد كذبا!

(١٠٥) قال المعرّي:

أما اليقين فلا يقين، وإنما … أقصى اجتهادي أن أظنّ واحدسا
نقول على المجاز، وقد علمنا … بأنّ الأمر ليس كما نقول!

(١٠٦) قال المعرّي:

جميعنا يخبط في حندسٍ … قد استوى الناشئ والكهلُ

(١٠٧) قال المعرّي:

وما جَدَلُ الأقوام إلا تعِلَّة … مصوَّرة من باطلٍ متوهَّمِ

(١٠٨) قال المعرّي:

وبَصيرُ الأقوام إلا مثليَ أعمى … فهلمُّوا في حندسٍ نتصادَمْ!

(١١٢) قال المعرّي:

غدوتَ مريض العقل والدين، فالقَنى … لتعرف أنباء الأمور الصحائح

(٢١٦) قال المعرّي:

وأشهد أنني غاوٍ جهولٌ … وإن بالغتُ في بحثٍ ودرسِ

(١١٧) قال المعرّي:

إذا كان علمُ الناسِ ليس بنافع … ولا دافع فالخُسْرُ للعلماء!
إذا علميَ الأشياء جرَّ مضرّةً … إليَّ فإن الجهل أن أطلب العلما

(١١٨) قال المعرّي:

أما الصِّحاب فقد مرُّوا وما عادوا ... وبيننا بلقاء الموت ميعادُ
أُعلِّل مهجتي ويصيح دهري ... ألا تغدو؟ فقد ذهب الرفاقُ!

(١٢١) قال المعرّي:

صاحِ هذه قبورنا تملأ الرُّحـ ... ـبَ فأين القبور من عهد عادِ؟

(١٢٢) قال المعرّي:

ومن شِيَمِ الأيام، وهي كثيرةٌ ... فناءُ كبير واقتبالُ غلام
فهادجٌ حاملُ عكازةٍ ... وفارسٌ معتقلٌ صعدَهْ
وآخِرٌ يدرك مَنْ قبله ... ويترك الدنيا لمن بعدَهُ
قدوم أصاغرِ ورحيلُ شِيبِ ... وهجرة منزلٍ وحُلولُ رمسِ

(١٢٤) العَيْر من وزن طير: الحمار الوحشيّ. يقابلها في الفارسية «كَور» من وزن نُور، وهي تعنى العير والقبر معاً، وقد استعملها الخيّام لكليهما في هذه الرباعية، فأصبح «الكَور» مَصِيداً وصائداً. ولم نستطع نقل هذا الجناس التام إلى العربية إلا بهذا الجناس الضئيل بين كلمتي العير والقبر، على أنه جاء عفواً..

(١٢٥) كلمة «كو؟» الفارسية من وزن ذُو، تعني «أين؟» وترجمة الشطر الرابع من الرباعية هي «قعدتْ تقول: كو كو كو كو؟» يعني «أين، أين، أين، أين؟». ولم يستطع أحد ترجمة هذا التوافق الممتع بين المعنى وحكاية صوت الفاختة إلى أيّةِ من اللغات.

(١٢٧) قال المعرّي:

مــن ديــارٍ جــاءهــا الــقــادم الآ تـي فـلـم يـعـتـبـر بـمـنـصـرِفـيـهـا

(١٢٨) قال المعرّي:

قــد كــان قــبــلــك ذادةٌ ومَــقَــاولٌ ذادوا، وما صَرَفَ الخطوبَ ذيادُ!

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ كذلك نبت الأرض يعقبه النبتُ!

(١٢٩) قال المعرّي:

خفّفِ الوطءَ، ما أظنُّ أديم الأ رض إلاّ مــن هــذه الأجــســادِ

وقبيحٌ بنا وإن قَدُمَ العهـ ـدُ هــوانَ الآبــاء والأجــدادِ!

سر إن اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ

على أنه ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى أحياناً، فيقول:

طَأْ بالحوافر قتلَى في مصارعها فالجسم بعدَ فراق الروح كالمَدَرِ!

(١٣١) قال المعرّي:

ولــو أنــى أُعَــدُّ بــألــفِ بــحــرٍ لـمرَّ عـليَّ موتٌ فـاحتساني!

(١٣٢) قال المعرّي:

سَرَى الموتُ في الظلماء والقومُ في الكرى وقام على ساقٍ ونحن قعودُ

وتأكلنا أيامُنا، فكأنما تمرُّ بنا الساعات وهي أُسودُ!

(١٣٣) قال المعرّي:

نُــرَدُّ إلــى الأصــول، وكــلُّ حــيٍّ لـه في الأربع القُدُمِ انتسابُ

(١٣٤) قال المعرّي:

نمتاز من أمّنا الغبراءِ حاجتَنَا ... وللبسيطة من أجسادنا مِيَرُ
وما الأرض إلا مثلنا الرزقَ تبتغي ... فتأكل من هذا الأنام وتشربُ!
فلا أُغرَرْ إذا أجَلى خَطَاني ... سيأتي الموتُ أغفل ما أكون!

(١٣٥) قال المعرّي:

وما نفيقُ من السكر المحيط بنا ... إلا إذا قيل هذا الموت قد جاءَ

(١٣٦) قال المعرّي:

وشخوصُ أقوامٍ تلوح، فأمَّة ... قدِمَتْ مجدّدةً وأخرى تهلكُ

(١٣٧) قال المعرّي:

والترب مثوايَ ومثواهمُ ... وما رأينا أحداً منه قامْ

(١٤٢) قال المعرّي:

فلا يُمسِ فخّاراً من الفخر عائدٌ ... إلى عنصر الفخّار للنفع يُضربُ
لعلَّ إناءً منه يُصنَع مرةً ... فيأكلُ فيه من يشاء ويشربُ
ويُنقَل من أرضٍ لأخرى وما دَرَى ... فواهاً له، بعد البلى يتغرّبُ!

(١٥٠) قال المعرّي:

لعل مفاصل البنّاء تضحى ... طلاءً للسقيفة والجدار

(١٥٢) قال المعرّي:

وكم وطِئتْ أقدامُنا في ترابها ... جبينَ أخي كِبْرٍ وهامةَ أبلجِ

سر إن اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفاتِ العباد!

(١٥٤) قال المعرّي:

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ كذلك نبت الأرض يعقبه النبت

(١٥٧) قال المعرّي:

نمضي ونتُركُ البلاد عريضةً والصبح أنوَر والنجوم زواهرا
وما عالَمي إن عشتُ فيه بزائدٍ ولا هو إن أُلقِيتُ منه بناقصِ
نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

(١٥٨) قال المعرّي:

أما الصحاب فقد مرّوا وما عادوا وبيننا بلقاء الموت ميعادُ
سرٌ قديمٌ وأمرٌ غير متضح فهل على كشفنا للسرّ إسعاد؟
مضت قرونٌ وتمضي بعدنا أممٌ والسرُّ خافٍ إلى أن يُنفَخ الصُورُ

(١٥٩) قال المعرّي:

وقد تعوّضت عن كلٍ بمشبهه فما وجدتُ لأيام الصّبا عوضا
سار الشبابُ فلم نعرف له خبراً ولا رأينا خيالاً منه مُنتابا

(١٦٠) قال المعرّي:

لونانِ من ليلٍ وصبحٍ لوّنَا شَعري، وأضعفني الزمان الأيّدُ
جسميَ أودَى مرُّ السنين به فلتطلب النفسُ منزلاً بدَلَه
والجسم للروح مثل الربع تسكنه وما تقيم إذا ما خُرّب الجسد

(١٦١) قال المعرى قريباً من معنى الشطرين الأولين :

دنـيـاك دار شـرورٍ لا سـرور بـهـا   وليس يدري أخوها كيف يحترس!
عـرفـتُ سـجـايـا الـدهـر، أمـا شـروره   فـنـقـدٌ وأمـا خـيـره فـوعـودُ

(١٦٣) قال المعرّي :

وقـد بـلـونـا الـعـيـشَ أطـوارَهُ   فـمـا وجـدنـا فـيـه غـيـر الـشـقـاء

(١٦٤) قال المعرّي :

وشـبَّ وشـاب، وافـنَـى الـشـبـابَ..   وسـقـيـاً لـه مـن خـضـابِ نَـصَـلْ
ومـن بـعـد ذلـك يـجـيء الـحـمـامُ..   فـانـظـر عـلـى أيّ شـيءٍ حَـصَـلْ؟

وقال يخاطب الدنيا :

وظـلـمٌ أن أحـاول فـيـك ربـحـاً   ولـم آخـرج إلـيـك بـرأس مـال!

(١٦٥) قال المعرّي :

تـعـبٌ كـلُّـهـا الـحـيـاة، فـمـا أعـ..   جـب إلا مـن راغـبٍ فـي ازديـاد!

(١٦٦) قال المعرّي :

حـيـاة كـالـحـبـالـة ذات مَـكْـرٍ   ونـفـسُ الـمـرءِ صـيـدٌ أعـلـقـتـه!
فـلـكٌ يـدور عـلـى مـعـاشـرَ جـمَّـةٍ   وكـأنـه سـجـنٌ عـلـيـهـم مـطـبـقُ

على أنه يبشر الطائر الذى أعلقته حبائل الحياة بالخلاص، ولكن في سخرية عنيفة قاسية، فيقول :

يا طائراً من سجون الدهر في قفصٍ لَتُذْبَحَنَّ، فلا سجنٌ ولا شرَكُ!

(١٦٧) قال المعرّي في معنى الشطرين الأولين:

تَفْنُونَ والفلكُ المسخَّرُ دائرٌ وتقدُّون فتضحك الأقدارُ!

(١٧٠) قال المعرّي:

فليت الفتى كالبدر جُدِّدَ عمره يعود هلالاً كلما فنيَ الشهرُ

(١٧٤) قال المعرّي:

وهذه الدنيا على أنها محبوبة لم تُخلِنا من ألَمْ

(١٧٥) قال المعرّي:

وما أُؤمّل عند الدهر مصلحةً وإنما هو إتلافٌ وإفسادُ

(١٧٦) لم أتبين سرَّ التناقض بين أول الرباعية الذي يدعو المرء إلى العزوف عن الدنيا وآخرها الذي يحضّه على اختطاف حظه منها.

(١٧٧) قال المعرّي:

سلِّ الفؤاد عن الحياة.. فإنها شَرٌّ وشُرّ
وقد نلتَ منها ما كفاك.. فما ظفرتَ بما يسرّ

والشّر، بضم الشين: العيب.

(١٧٨) قال المعرّي:

من يغتبطْ بمعيشةٍ فأمامه نُوَبٌ تطيلُ عناءَه فجعاتُها

(١٧٩) قال المعرّي:

أصاحِ هي الدنيا تشابه مِيتةً ... ونحن حواليها الكلابُ النوابحُ
فمن ظَلَّ منها آكلاً فهو خاسرٌ ... ومن عاد عنها ساغباً فهو رابح!
تزوَّج دنياه الغبيُّ بجهله ... فقد نشزت من بعد ما قُبِضَ المهرُ
تطهَّرْ ببعدٍ من أذاها وكيدها ... فتلك بغيٌّ لا يصحُ لها طهرُ!
عرفتُ من أُمِّ دَفْرٍ شيمةً عجباً ... دلَّت على اللؤم، وهي العنف بالخدمِ
ومن يُهِنها تَصُنْه عن مكارهها ... بعض الصيانة، فارفضها بلا ندمِ
وما لنفسي خلاصٌ من نوائبها ... ولا لغيريَ إلا الكون في العدم

(١٨١) قال المعرّي:

تغيَّبتُ في منزلي برهةً ... سَتيرَ العيوب فقيد الحسد
إذا ما شئتُم دَعَةً وخفضاً ... فعيشوا في البريّة خاملينا

(١٨٦) قال المعرّي:

تَسَمَّى سروراً جاهل متخرصٌ ... بفيه البَرَى، هل في الزمان سرورُ؟
نعم ثَمَّ جزءٌ من ألوفٍ كثيرةٍ ... من الخير، والأجزاء بعدُ شرورُ!

(١٩٠) قال المعرّي:

ألا إنما الدنيا نُحُوسٌ لأهلها ... فما في زمانٍ أنت فيه سعودُ
جيبُ الزمان على الآفات مزرورُ ... ما فيه إلا شقيُّ الجدِّ مضرورُ

(١٩١) قال المعرّي:

متى ملأت كفَّيكَ دنياك أرسلت ... مُلِمًّا يُعيدُ الكفَّ من جودها صفرا

كأن وليداً مات قبل سقوطه على الأرض ناجٍ من حبالتها طَفرَا!
وألقاك فيها والداك فلا تَضَعْ بها ولداً يلقَى الشدائد والنكرا
وأرحتُ أولادي، فهم في نعمة الـ عدم التي فضلت نعيم العاجل!

(١٩٢) قال المعرّي:

حياةٌ وموتٌ وانتظار قيامةٍ ثلاثٌ أفادتنا ألوف معانِ
ألم تَرَ عالَماً يأتي ويمضي سواه كأنه مزعِيُّ بقلِ؟
وكيف أجيد في دارٍ بناءً وربُّ الدار يؤذنني بنقلِ؟
أهذي الدار ملكٌ لابن أرضٍ بها رامَ المقامَ، أم اكتراها؟
وما تريد بدارٍ لستَ مالكها تقيم فيها قليلاً ثم تنصرف؟

(١٩٣) قال المعرّي:

لنفسيَ أن تنأى عن الجسم روعةٌ كروعة أنثى أُجلِيَتْ عن ديارها!
فإن رحلت بالرغم عن مستقرها فما كان سكناها له باختيارها
وردتُ إلى دار المصائب مجبراً وأصبحت فيها ليس يعجبني النقل!

(١٩٤) قال المعرّي:

أرانيَ غمراً بالأمور، ولم أزل أجوب دجاها أو أخوض غمارها

(١٩٦) قال المعرّي:

والخير والشر ممزوجان ما افترقا فكل شهدٍ عليه الصَّابُ مذرورُ

(١٩٧) كأن الخيّام يريد في هذه الرباعية أنْ يحلّل تركيب الإنسان

إلى عناصره الأولى على نظرية العناصر الأربعة. فالنار قلبه، والماء دموعه، والهواء حياته، والتراب مثواه!.. ولعله قصد نفس المعنى في الشطرين الأولين من الرباعية فقال إننا جئنا أطهاراً كالهواء فاكتسينا الوضر كالتراب، وكنا وادعين كالماء برداً وسلاماً فأصابنا الغم كالنار ـ ثم فصل المعنى على وجه آخر في الشطرين الأخيرين. ويقول المعرّي في معنى الرباعية:

أخـــوكِ مـــعـــذَّبٌ يـــا أمَّ دفـــرٍ أظـلَّـتـه الـخـطـوب وأرهـقـتـه
ومـا زالـت مـعـانـاة الـرزايـا عـلـى الإنـسـان حـتـى أزهـقـتـه
إذا خُـشِـيـتْ لـشـرٍ عـجّـلـتـه وإن رُجِـيَـت لـخـيـرٍ عـوّقـتـه
حـيـاة كـالـحـبـالـة ذات مـكـرٍ ونـفـس الـمـرء صـيـدٌ أعـلـقـتـه!
سـقـتـه زمـانـه مَـقِـراً وصـابـاً وكـاس الـمـوت آخـرُ مـا سـقـتـه!

أمُّ دفر: الدنيا، المَقِر، بكسر القاف: المرّ أو الحامض.

(١٩٨) قال المعرّي:

ربِّ مـتـى أرحـل عـن هـذه الـ ـدنـيـا، فـإنـي قـد أطـلـتُ الـمـقـام
لـم أدرِ مـا نـجـمـي، ولـكـنـه مذ كان في النحس جرى واستقام!
والـعـيـش سـقـمٌ مُـنْـصِـبٌ لـلـفـتـى والـمـوت يـأتـي بـشـفـاء الـسـقـام

(١٩٩) قال المعرّي في معنى الشطر الأول من الرباعية:

نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المزنِ فـلا جـادنـي إلا عَـبـوسٌ مـن الـدَّجْـنِ

وقال في معنى الشطر الثاني:

خسئتِ يـا أمّـنـا الـدنـيـا، فـأُفٌّ لـنـا بـنـي الـلـئـيـمـة أنـذالٌ أخـسّـاءُ

وأخو الحجى أبداً يخارب طبعه		فتراه وهو محارب كمسالم

قال في معنى الشطر الرابع:

أيها الدنيا، لحاكِ الله من ربة دلّ

ما تسلّى خلدي عنك وإن ظن التسلّي

إني ونفسي أبداً في جِذابْ		أكذِبها وهيَ تحبّ الكِذَابْ

(٢٠٢) قال المعرّي:

وهوَّن ما نلقَى من البؤس أننا		على سفَرٍ، أو عابرون على جسر

متى ألقَ من بعد المنية أسرتي		أُخبّرهم أني خلصتُ من الأسر

العيش أفقرَ منا كل ذات غنى		والموت أغنَى بحقٍّ كل محتاجِ

إذا حياة علينا للأذى فتحت		باباً من الشر لاقاه بأرتاجِ!

(٢٠٣) قال المعرّي:

يسارٌ وعدمٌ، وادٌ كار وغفلة		وعزٌّ وذلٌّ.. كل ذاك غرور!

وكيف أقضّي ساعةً بمسرّةٍ		وأعلم أن الموت من غرمائي؟

(٢٠٥) قال المعرّي:

تلك أنباءٌ أرتنا عبراً		معجباتٍ كأحاديث السَّمَرْ

في حياةٍ كخيالٍ طارفٍ		شغَلَ الفكرَ، وخلاّك ومرّ

(٢٠٦) قال المعرّي:

أراك الجهلُ أنك في نعيمِ		وأنت إذا افتكرت بسوء حال

وما سمحت لنا الدنيا بشيءٍ		سوى تعليل نفس بالمحال

(٢٠٧) قال المعرّي:

إن مدحوني ساءني مدحُهم ... وخلتُ أنى في الثرى سُخْتُ
جسميَ أنجاسٌ، فما سرَّني ... أني بمسك القول ضُمِّخْتُ

(٢٠٨) قال المعرّي:

تعالى اللّه، كم ملْكٍ مهيبٍ ... تبدَّل بعد قصرٍ ضيق لحدِ
لو نُخِل العيشُ لما حصَّلت ... شيئاً سوى الموت يدُ الناخلِ!

(٢١٠) قال المعرّي:

هبيني عشتُ عمرَ النَّسر فيها ... وكان الموت آخر ما لقيتُ

(٢١١) قال المعرّي:

بطن التراب كفاني شرَّ ظاهره ... وبيَّن العدلَ بين العبد والملكِ
جاران: مَلْكٌ ومحتاجٌ، أتى زمنٌ ... عليهما فتساوى البؤسُ والترفُ

(٢١٣) قال المعرّي:

بلوتُ أمورَ الناس من عهد آدم ... فلم أرَ هالكاً إثْرَ هالكِ
إذا كان هذا التُّرب يجمع بيننا ... فأهل الرزايا مثل أهل الممالكِ
وقد زعموا الأفلاك يدركها البلَى ... فإن كان حقاً فالنجاسة كالطهر!

(٢١٤) قال المعرّي:

فلا يُعْجَبْ بصورته جميلٌ ... فإن القبحَ يُطوَى كالجمالِ

(٢١٥) قال المعرّي:

هب الفتى نال أقصى ما يؤمّله ... أليس راعى المنايا خلفه حُطَمُ!

(٢١٨) قال المعرّي:

تمّنيت أن الخمر حلّت لنشوةٍ ... تجهّلني كيف استقرّت بيَ الحالُ

ولكنه يخاف الخمر على عقله فيقول:

يقول الناس إن الخمر تُودي ... بما في الصدر من همّ قديمِ
ولولا أنها باللُّبِّ تُودي ... لكنتُ أخا المدامة والنديم

على أنه يجد دواء آخر يغنيه عنها، وهو الموت:

واستشعر العاقل في سقمه ... أن الردى مما عناه الشفاء
إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً ... فثَمَّ أفقد أوصابي وأمراضي!

(٢١٩) قال المعرّي في معنى الشطرين الأولين:

المرءُ يقدِم دنياه على خطرٍ ... بالرغم منه، وينآها على سَخَطِ

(٢٢١) كأن المعرّي يعقّب على رباعية الخيّام إذ يقول:

ستطلقنى المنية عن قريب ... فإني في أسار واعتقالِ

(٢٢٦) قال المعرّي:

أيأتى نبيٌّ يجعل الخمرَ طِلقةً ... فتحمل ثقلاً من همومي وأحزاني؟
وهيهات لو حلّت لما كنت شارباً ... مخففةً في الحلم كفّة ميزاني!

فكأن الخيّام يهوّن عليه في هذه الرباعية عبث الحميا بالعقول ما دامت العاقبة هي الخراب. ولكن المعرّي حييّ مفرط الحياء، متوجّس بسبب فقدان بصره. نبّهه أحدهم مرةً إلى أن الدبس قد قطر على ثوبه فجعل يمسحه قائلاً «قاتل الله الشره!» وأقلع بقية حياته عن أكل الدبس. فكيف به لا يذعر من عقابيل بنت العنب، ولا يجفل من أن يكون (خربا)؟

(٢٢٨) بينا يكثر الخيّام من ذكر فضائل الخمرة يكثر المعرّي من ذم شرورها وفعلها بالشاربيها، مع أنه لم يذقها. وأحسبه يصف ما يخشى أن يصيبه من أذاها لو عاقرها. من ذلك:

توخَّ بهجرٍ أُمَّ ليلى، فإنها	عجوزٌ أضلّت حيَّ طسمٍ ومارِبِ
دبيب نِمال عن عقارٍ تخالها	بجسمك شراً من دبيب العقارب!
ولو أنها كالماء طِلقٌ لأوجبت	قلاها أصيلاتُ النهى والتجارب

(٢٣٢) قال المعرّي:

إن الشبيبة نارٌ إن أردت بها	أمراً فبادره إن الدهر مطفئها
والمرء في حال التيقُّظ هاجعٌ	يرنو إلى الدنيا بمقلة حالم

(٢٣٥) قال المعرّي:

نفرُّ من شرب كاس وهي تتبعنا	كأننا لمنايانا أحبَّاءُ!
لا يرهب الموتَ من كان امرءاً فطناً	فإن في العيش أرزاءً وأحداثا

(٢٤٧) قال المعرّي:

أرى فلكاً ما زال بالخلق دائراً | له خبرٌ عنّا يُصان ويُخبأُ
غُيِّبَ مَيْتٌ فما رأته | عينٌ سوى رؤية المنام!

(٢٥١) قال المعرّي:

لو كان ينطق ميّتٌ لسألته | ماذا أحسَّ وما رأى لما قدِمْ

(٢٦٣) قال المعرّي:

أرى الأشياء ليس لها ثباتُ | وما أجسادنا إلا نباتُ!

(٢٨١) قال المعرّي:

أتترك ههنا الصهباء نقداً | لما وعدوك من لبنٍ وخمر؟

(٣٠٢) قال المعرّي:

تورَّعوا يا بني حوّاءَ عن كذبٍ | فما لكم عند ربٍّ صاغكم خَطَرُ!

(٣١٣) قال المعرّي:

إنما نحن في ضلالٍ وتعليلٍ | فإن كنت ذا يقينٍ فهاتِه!
وبصير الأقوامِ مثليَ أعمىً | فهلمُّوا في حندسٍ نتصادَمْ!

(٣١٨) قال المعرّي:

ودنياك ليست للسرور مُعَدَّةً | فمن ناله من أهلها فهو سارقُهْ!

(٣٢٢) قال المعرّي:

خُذَا الآن فيما نحن فيه، وخلِّيا غداً فهو لم يقدِمْ وأمسِ فقد مرَّا!

(٣٢٤) قال المعرّي:

وما أجساد هذا الخلق إلا عواريُّ المقادرِ لا الهبات

(٣٣١) يقول المعرى في معنى الشطر الأول:

والنفس تفنى بأنفاسٍ مكرَّرةٍ وساطعُ النار تُخْبِي نورَهُ اللُّمَعُ

ولكنه لا يتفق مع الخيّام في أن الحياة تمضى كما تريد أنِ تمضيها، (كما أن الخيّام ينكر ذلك في رباعيات أخرى ـ ٣١٨ مثلاً). قال المعرّي:

يعيش الفتى ما عاش كالظبي، لم يُفِدْ بدنياه إلا أن يُعَالَ ويَكبُرَا

ولم يَدْرِ لما أن أتاها، ولا درى إلى أين يمضي، فاستكان مدبَّرا

(٣٣٣) قال المعرّي:

وإذا رجعتَ إلى النهى فذواهب الـ أيام غير مؤمَّلٍ رجعاتُها

ويعبّر تعبيراً رائعاً عن فوات الزمن إلى غير رجعة فيقول:

غدي سيُوجِد أمسي، لا ينازعني في ذاك خلقٌ، وأمسي لا يصير غدي!

(٣٣٧) قال المعرّي:

وعلمتُ قلبَ المرء يغرق في هوى دنياه، خاب مكاتماً ومجاهرا!

ماذا أفدتَ بأن أطلت تفكراً فيها وقد أفنيتَ ليلك ساهرا؟

(٣٥٠) كأن المعرّي يردّ على الخيّام قالته في الخمر والسماع:

فلا تُعجِبَنْك عروسُ المدام ولا يطربنك مغنٍّ صدَخ!

(٣٦٠) قال المعرّي في معنى السطر الثالث من الرباعية، ولكن من باب الاستنكار:

وتوهّم الشَّيبَ المدالفَ أنهم لبسوا على كِبَرٍ بُرُودَ شبابِ

أما الخيّام فقد قال ذلك استحساناً. وقد قصد بالشطر الرابع أن الخمرة تطيل عمر اليافع حتى يشيخ.

(٣٦٩) المعرّي يريد لثراه بعد موته أن يقضي الطهور:

تيمَّموا بترابي علَّ فعلكُم بعد الهمود يوافيني بأغراضي

وإن جُعِلتُ بحكم اللّه في خزفٍ يقضي الطهور فإني شاكر راضي

وهذا غريب من المعرّي وهو من نعرف كفراناً بالشرائع وازدراءً لشعائرها، فلعله قال ذلك من باب التقية. أو لعله قصد بالطَّهور مطلق النظافة.

الفهرس